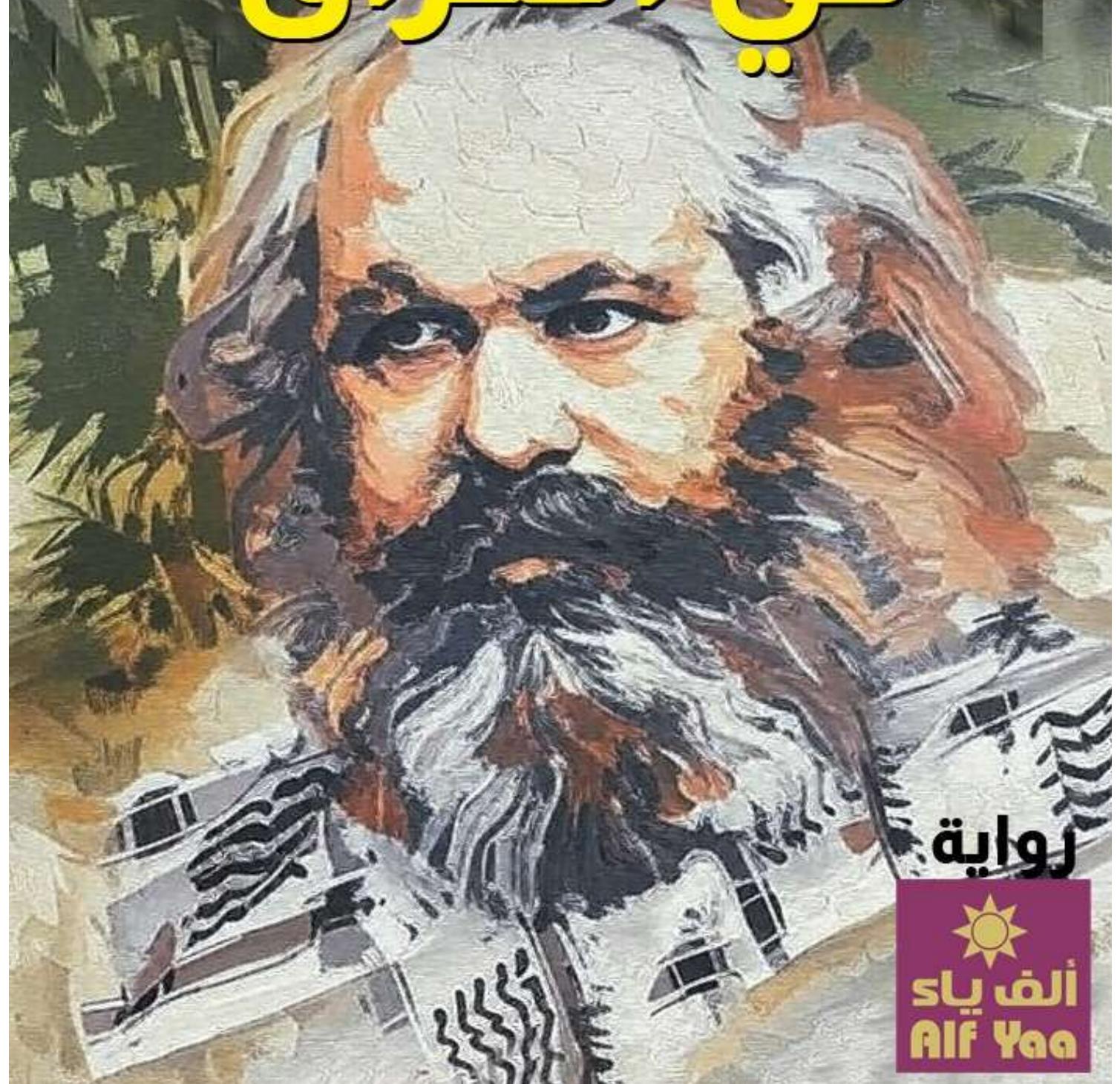


# فرات المحسن

# كارل ماركس

# في العراق



رواية

# كارل ماركس في العراق

**المؤلف: فرات المحسن**  
**الكتاب: كارل ماركس في العراق (رواية)**

صدرت النسخة الرقمية: تشرين 2/نوفمبر 2025  
الطبعة الأولى: 2017/دار الجواهري بغداد العراق

- الناشر: "ألفياء AlfYaa"
- الموقع الإلكتروني: [www.alfyaa.net](http://www.alfyaa.net)
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات
- (Mobi و PDF و ePub و/or أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ "ألفياء AlfYaa"
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعِّزِّز محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- "ألفياء AlfYaa" ناشرة للكتاب فقط.



- لوحة الغلاف: ٩٩٩٩٩٩٩
- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود

**فرات المحسن**

**كارل ماركس**

**في العراق**

**رواية**



# الفهرست

9.....	دعوة إلى العراق
19.....	في البحث عن عباس بن فرناس
43.....	لقاء تاريخي في الزمن العصيب
53.....	سوء فهم أم خلاف مبيت
63.....	ليلة الفزع الكبير
71.....	الخروج نحو الجنوب
85.....	الناصرية الوجهة الجديدة
97.....	هناك حيث العشوائيات
119.....	هناك حيث زقورة أور
129.....	البصرة وجهتنا القادمة
145.....	الاختطاف
161.....	ليلة الاختطاف الأولى
181.....	الشعب الألماني يتحمل خطيرتك
189.....	ضيوف جدد
197.....	هل كان غسل ذنوب
205.....	الخلاص من قبضة أبو بشير
223.....	في الحبس
229.....	ليس من السهولة نسيان القسوة
241.....	في حضرة العقيد لطفي

251.....	ما وزع مع الحصة التموينية
267.....	سر مرض أبو رمزي
281.....	الانفجار
291.....	البحث عن المأوى
309.....	في ثياب الأستاذ عبد القادر مله عطا آل مغامس
315.....	الحلم
327.....	الاختطاف مرة أخرى
339.....	خبز حرية دولة مدنية
355.....	الشباب زبائن المقهى
369.....	في ساحة التحرير
391.....	وصية الأستاذ عبد القادر

«في إنتاج الناس الاجتماعي لحياتهم يدخلون في علاقات محددة، ضرورية ومستقلة عن إرادتهم، وهي علاقات إنتاج تطابق درجة معينة من تطور قواهم الإنتاجية المادية. وتشكل مجموع علاقات الإنتاج هذه البنيان الاقتصادي للمجتمع، أي تشكل الأساس الحقيقي الذي يقوم فوقه صرح علوي قانوني وسياسي تتماشى معه أشكال اجتماعية. فأسلوب إنتاج الحياة المادية هو شرط العملية الاجتماعية والسياسية والعقلية للحياة بوجه عام. ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، إنما وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم.»

كارل هانريك ماركس



# دعوة إلى العراق

الرسالة تبدو واضحة وضوح الشمس في هذا اليوم المشرق الجميل. هكذا فكر كارل ماركس وهو يعيد قراءة مضمون الرسالة التي وصلته من بعض مريديه في العراق. دعوة صريحة وكريمة لا لبس فيها، تظهر حاجتهم لوجوده بينهم في العراق. الرسالة تستعرض بفيض من العبارات المشوقة والمشجعة الغرض من الزيارة، وفي مقدمتها رغبة حقيقية من المشاييعين في الوصول لمعرفة متكاملة عن طبيعة الأحداث الجارية، ومقارباتها من خلال تحليل نظري وعلمي مطابق وسليم للواقع السياسي الاقتصادي الاجتماعي الثقافي الحاصل الآن في العراق. وهم يعتقدون، وهذا هو الصواب، بأن منهجية تحليلاته وبمقاربات المادية الجدلية والتاريخية، سوف تظهر بصورة جلية طبيعة الحدث العراقي، مسبباته ووقائعه ثم مخارجه وأيضاً استخلاص النتائج وتقديم الحلول.

في الرسالة شيء من طلبات غريبة لم يعرها ماركس اهتماماً جدياً بادئ الأمر، بل وبشكل أولى فكر بإبعادها عن تفكيره في الوقت الحاضر على الأقل. فالخيار الأول من مريديه يقترح عليه دراسة مقدمة ابن خلدون. ليس ابن خلدون بغرير عليه، وقدقرأ له بعض الترجمات وحفظ اسمه كاملاً، عبد الرحمن ابن محمد ابن خلدون أبو زيد، ورغم توصل هذا البعض التحليلات والاستنتاجات المنطقية، ولكنه لم ينزل إعجابه،

بسبب ما طرحته من أفكار طوباوية في الكثير من بحوثه وفلسفته. فرغم كونه عد فيلسوفاً وعالماً اجتماعياً، وكذلك مؤرخاً وشاعراً وله دراسات كثيرة وبالذات في علم الاجتماع، ونشوء الدول ومن ثم انهيارها، فهو يرى فيه شخصية متذبذبة وصولية انتهازية نفعية غير مبدأة على الإطلاق، وكان يبحث عن الواجهة قبل أي شيء آخر، ويستجدي في هذا الأمراء والملوك، ويضع نفسه تحت إمرتهم لنيل المنافع والعطايا، وهذا ما دلت عليه سيرته التاريخية وعلاقاته بهؤلاء الحكام وصراعاتهم ومؤامراتهم في المغرب العربي والأندلس، وأيضاً علاقته مع أعتى طاغية في زمانه وهو تيمورلنك الذي اكتسح العالم الشرقي وببلاد العثمانيين بحد السيف وأقترف أبشع الجرائم بحق الكثير من البلدان التي غزاها وقتل وسبى أهلها. كان ابن خلدون هذا، رجلاً دون مبادئ وقيم، لذا أشك فيما توصل إليه، ولا أرى أنه قادر على تقديم شيء، ممكناً الانتفاع منه، إن أردت دراسة المجتمع العراقي. تلك اللحظة فكر ماركس برمي طلب أصدقائه هذا جانباً، ثم بعدها وبقناعة تامة أهمله كلياً. ثم راح يتمعن بطلبهم الثاني وحاول معرفة الغاية من ذلك الطلب الخاص بالبحث في دراسات الدكتور علي الوردي عن المجتمع، ويقال إنه عالم اجتماع عرض الكثير من الحقائق المذهبة والمؤسية عن المجتمع العراقي. راوده شعور بأن دراسة كتب الدكتور علي الوردي، مثلاً يطلبها منه مريدوه العراقيون، لن تكون بذات جدوى لملامسة الحدث اليومي، وتحليل الواقع العراقي في الراهن من الوقت، فالزمن تغير وتغيرت معه الكثير من الواقع والتقاليد والطبع، في

أجواء الرأسمالية المتوحشة التي تغلغلت في حياة الكثير من شعوب الأرض. الموضوعة بواقعها وطبيعتها العامة، لها مقاربات وتدخلات ومتلازمات ومتضادات، لذا يتطلب الغوص في أبعاد مكنوناتها بروية وأناء، دون المجازفة والعجالة والتسطيح. لا بل أن بعض الإشكالات تتلاقي حتماً وفكراً على الوردي ومنهجيته بالتحليل. هكذا خطر في بال ماركس وهو يقلب الرسالة، ثم دسها في جيب بنطاله. ورغم طلب مريديه، وعدم اطلاعه على تحليلات ورؤى المكني بالدكتور علي الوردي، فإنه لم يترك الأمر يشغل باله طويلاً، لذا اتصل هاتفياً بزميله فردريك أنجلز الذي يعيش في الطرف بعيد عن مدينة لندن، وطلب منه معلومات كاملة عن العراقي الدكتور علي الوردي، فزوّده فردريك بمعلومات موجزة، حول مجموعة أسماء لشخصيات بحثية عراقية تشتراك جميعها باسم علي، وهذا الاسم شائع في العالم العربي، وربما تختلط على الآخرين طبيعة تلك الشخصيات ووظائفها، لذا اكتفى كارل ماركس بانتقاء شخصيتين منها، يبدو إنهما باحثان اجتماعيان قبل أي شيء آخر، واكتفى بسيرتيهما الموجزة وأهمل الباقيين.

بعد أن تيقن من أن حيرته في الأمر ليست أكثر من حيرة صديقه فردريك في هذا المضمار، وقرر أن يجهد مستقبلاً للتعرف على شخصية علي الوردي بتفاصيل أخرى، من خلال مريديه حين يصل بغداد. وربما سوف يسمح له الوقت للقاء به والتعرف عليه، إن كان على قيد الحياة، تلك ستكون فرصة مناسبة للحصول على المعلومة حول الحراك الاجتماعي والصراع الطبقي، ومن ثم كتابة بحثه عن المجتمع العراقي

لاحقاً.

الرسالة التي وصلته كانت واضحة وشاملة، لم تهمل حتى الأشياء والمستحقات الصغيرة، وهذا ما جعله يغبط مردييه، دقتهم ومنهجيتهم في الإعداد والترتيب لرحلته القادمة إلى بغداد. وحسب هواه وطبيعته المتفتحة والمؤمنة بقيمة الإنسان وفطرته الطبيعية الطيبة، فقد أبعد عن ذهنه مطالبتهم بأجور رحلته وقت وصوله هناك، واكتفى بالرضا عن تعهدهم بدفع جميع مستحقات الرحلة حين وصوله إلى بغداد أو عند مغادرته.

لثلاثة أيام شغل ماركس تفكير عميق وهو يلمم حاجياته. وضع جهاز الكمبيوتر في حقيبته الجلدية الصغيرة مع جواز السفر وبعض أوراق يحتاجها، وأعد حقيبة السفر الكبيرة، وضع فيها ملابس تكفي لفترة عشرة أيام.

عشرة أيام كافية جداً، سوف لن يضيع فيها وقته، هكذا حدث نفسه. من الطبيعي إن مشاعريه قد استعدوا لزيارتة استعداداً جيداً، فرسالتهم تشي بذلك، وهم سوف يقدمون له من الاستبيانات والبيانات والإحصائيات والواقع، ما يغني عن جهد كبير، عليه أن يبذله في محاولات التحليل والاستنتاج الواقع الحدث العراقي. هذا ما خطر في باله، وهو يضع بعناية وخفة ربطات العنق المنتقة من قبل رفيقته لورا، جوار بدلته الكحلية وقمصانه الصيفية الخمسة بألوانها المختلفة. دس تحتها ملابس داخلية ومنشفة وساعة منضدية، اعتاد على مرافقتها في مختلف سفراته وتجواله خارج إقامته وسط العاصمة البريطانية

الصاخبة، بعد أن أتخذ لندن، مجبراً دون تردد، مقرًا لسكناه بعيداً عن أجواء الكراهية التي واجهها في بلده ألمانيا. لم يهمل أو ينسى وضع قنينة العطر التي أهديت له قبل أسبوع مضى، عند احتفالهم بعيد ميلاده الذي يحفظه الكثير من الرفاق ويهمله هو عن عمد، فهو لا يحب الاحتفالات الصاخبة التي تشتبث الذهن وتربكه. وضع جوار قنينة العطر قنينة المطهر البلاستيكية ودسهما تحت الملابس. ربما لن يجد في العراق ما ينفع لتطهير الأكف. فهذه واحدة من المصائب المستحدثة للرأسمالية المتوحشة، هكذا فكر في الأمر. مطارات العالم بدأت تأخذ الاحتراز الشديد والحذر والتحوط، وتنزع ركاب الطائرات، وبحجة الحذر والخوف من الإرهاب، أن يصطحبوا معهم حين ركوبهم الطائرة قناني العطر أو أي علبة سوائل أخرى أو حتى أدوات حلاقة وملاعق وسكاكين وقداحات، بدعوى أن ذلك احتراز يمنع احتمال تعرض الركاب أو الطائرة لعمليات خطف أو تهديد بالتفجير. هكذا هي الرأسمالية الخائفة المرتجفة بعد أن حققت أعلى مراحلها الامبرالية، باتت اليوم ترجف من ولديها المشوه القاتل، الذي ولدته سفاحاً بعد اغتصاب خيرات الشعوب.

على أية حال حقيقة السفر كبيرة وتنسع للكثير. لن أحمل معي في الطائرة سوى جهاز الكمبيوتر وحقيقة اليد واكتفي بأخذ كتابين مهمين من الجائز أن أجده فيما ما ينفع أو ينشط في ذهني بعض الأفكار والاستدلالات، هذا ما دار في خلده، وهو يقوم بترتيب حاجياته في جوف الحقيقة الكبيرة.

الكتاب الأول الذي فكر بحمله، كان بعنوان المتخيلات الاجتماعية الحديثة لشارلز تايلر<sup>(1)</sup>، فهو وبمحتوى راقٍ جداً وذكي، يتحدث عن تشكيل الهوية الوطنية، ومنابع الذات والحداثة والعلمة والدين، عبر فكرة المتخيل الاجتماعي. هذا سوف أنتفع منه في استنباط الطرق لمعرفة الكيفية التي يتخيل فيها شعب ما، الحال الذي هو عليه. ربما الشعب العراقي يقارب معرفة وجوده الاجتماعي، أن تطابق ذلك مع الواقع والحرراك اليومي والعام للعراقيين. أيضاً سوف أحمل معي كتاب المجتمع الشبكي The network Society لدارن بارني<sup>(2)</sup> الذي يتحدث فيه عن اقتصاد المعرفة والعلمة، وحال الدولة القومية والثقافة والجماعة، ومعنى العمالة والبطالة في العصر الرقمي. تلك جمِيعاً سمات مشتركة لجميع شعوب العالم. هكذا حدثه نفسه تلك الساعة، وهو يقلب مجموعة الكتب فوق المنضدة، التي تتوسط الغرفة ذات الأثاث المزدحم والمرصوف دون عناء.

بقناعة نافدة تيقن أن دارن بارني وشارلز تايلر يتوصلان في أن واحد وبخطوط مشتركة، رغم تباينهما في الاتجاه، إلى اكتشاف تلك السمات التي تبلورت كفكرة متعددة يفرض نفسه لتحليل المسيرة التاريخية للرأسمالية ونتاجها المتبلور في

<sup>1</sup>) تشارلز مارغريف تيلور فيلسوف كندي أحد الفلاسفة المعاصرین في مجال السياسة والفلسفة الأخلاقية وترجمت أعماله للعديد من اللغات، ويشتغل في مجالات: فلسفة التحليل، الظاهريات، التأويليات، الفلسفة الأخلاقية، الإنسانيات، الاجتماعيات، الفلسفة السياسية والتاريخ.

<sup>2</sup>) أكاديمي وباحث كندي، وأستاذ تكنولوجيا المعلومات في جامعتي سيمون فريزر وتورنتو وماكماستر في كندا.

العلوم المتوجبة، التي قلبت موازين وأعراف الحياة العامة، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية، وفي المقدمة منها السمات والهيكل الثقافي، وباتت الكثير من شعوب العالم ترك مصائرها للمجهول، وتفقد سماتها العادية والمألوفة، لصالح تشكيلات متوجبة، تدفع بها وتحيطها بالخوف والاضطرابات. فالأسواق المفتوحة وهيمنة الشركات الكبرى، وعمالة القراء والنساء المستبدات والأطفال المشردون، والتفاوت الطبقي والتهديد اليومي للرعاية الاجتماعية، وتخريب البيئة والتلوث وهيمنة ثقافة الابتزاز والربح والتسطيح الفكري، كل ذلك نتاج تلك القذارة الرأسمالية. ليس هناك أدنى شك بأن كتاب دارن بارني سوف يمتعني جداً بمحتواه.

وهو يحاور نفسه راح ماركس يضغط ويفرك بإلحاح إبهام يده اليسرى، وتلك عادة، يمارسها حين يضغط عليه التفكير وتدور في رأسه الرؤى والحسابات المتسارعة، اكتسبها جراء القلق والتوتر الدائمين اللذين عاشهما طيلة حياته، وبالذات خلال الزحام والربكة المتولدة في النفس أثناء البحث والتحليل وتكثيف الأفكار، حول وحدة صراع المتناقضات وقانون نفي النفي، وأيضاً العمل المعرفي المضني في محاولة مقاربة وتحليل تحول الكم إلى كيف، والبحث في المسيرة التاريخية والتطور الحتمي للبشرية، وفق المنطق الجدلية وبالأدوات الثورية، وذلك هو أُس النظرية الشيوعية العلمية، التي وضعها مع صديقه الوفي فردرريك انجلز. راح ماركس في صمت طويل ينظر لأرضية الغرفة ساهماً يحدث نفسه عن طبيعة العولمة المتوجبة التي أستعرضها وفصلها دارن في كتابه

وكيف انه يقاربـه بالفكرة وفي الكثـير من الاستنتاجـات والمخارـج.

وضع حقيـبة السـفر جـوار السـرير وترـكـها مـفتوـحة، فـهـنـاك اـحـتمـالـات كـثـيرـة وـارـدـة. ربـما أمر السـفر يـتـطـلـب مـنـه وضع حاجـات أـخـرى، سـوفـ يكونـ في حاجـة إـلـيـها خـلال العـشـرـة أـيـام التي عـلـيـه أنـ يـقـضـيـها فيـ العـرـاقـ. فـكـثـيرا ماـ كـانـت تـحـدـث لـه فيـ سـفـرـاته بـعـضـ المـفـارـقـاتـ، حينـ يـكـتـشـفـ فيـ وقتـ مـتأـخرـ، أنه قد نـسـيـ وضعـ فـرـشـةـ الأـسـنـانـ أوـ مـقـصـ الـحـلـاقـةـ أوـ قـلـمـهـ الأـثـيرـ.

لـهـ ذـهـنـهـ مـاـ يـفـكـرـ بـأـخـذـ هـدـاـيـاـ لـمـرـيـديـهـ وـمـشـايـعـيهـ فيـ العـرـاقـ، وـقـدـ أـبـعـدـ عنـ ذـهـنـهـ مـثـلـ هـذـاـ الـأـمـرـ، فـهـوـ لاـ يـعـرـفـ عنـهـمـ شـيـئـاـ مـحدـداـ، لاـ عنـ طـبـيـعـتـهـمـ وـطـبـاعـهـمـ، وـلـمـ يـشـاهـدـهـمـ أوـ يـلـتـقـيـ بـهـمـ، وـهـوـ بـالـمـطـلـقـ لـاـ يـمـلـكـ أـيـ تـصـورـ عنـ أـحـجـامـهـمـ وـأـشـكـالـهـمـ وـأـذـواـقـهـمـ وـرـغـبـاتـهـمـ، سـوـىـ حـدـيـثـ عـابـرـ لـبـعـضـ الـأـصـدـقـاءـ فـيـ لـنـدـنـ تـنـاـولـواـ بـشـكـلـ مـبـسـطـ تـوـصـيـفـ الـمـظـهـرـ الـخـارـجـيـ لـلـعـرـاقـيـ، وـبـعـضـ طـبـاعـهـ الـعـامـةـ، وـكـانـ ذـلـكـ الـوـصـفـ غـيـرـ مـجـدـ عـلـىـ الإـطـلـاقـ، وـلـيـسـ مـحـبـاـ بـلـ كـانـ مـنـفـراـ وـمـزـعـجاـ. وـلـذـاـ لـنـ يـجـازـفـ حـتـىـ بـشـرـاءـ قـنـانـيـ عـطـرـ مـنـ النـوـعـ الرـخـيـصـ لـتـقـدـيمـهـاـ هـدـاـيـاـ لـمـسـتـقـبـلـيـهـ فـيـ مـطـارـ بـغـدـادـ الدـولـيـ، وـهـوـ وـفـيـ حـقـيقـةـ الـأـمـرـ غـيـرـ مـيـالـ لـتـبـادـلـ الـهـدـاـيـاـ، وـلـاـ حـتـىـ لـتـالـكـ الـبـرـوـتـوكـوـلـاتـ وـالـمـجـامـلـاتـ، التيـ يـجـدـهاـ غـيـرـ مـجـدـيـةـ فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ، وـرـبـماـ مـنـافـقـةـ. وـيـعـتـقـدـ أـنـهـ تـكـرـيـسـ لـتـقـالـيدـ بـرـجـواـزـيـةـ لـيـسـ إـلاـ.

قضـىـ يـوـمـهـ فـيـ الـبـحـثـ عـبـرـ جـهـازـ الـكـوـمـبـيـوتـرـ، بـيـنـ مـوـاـقـعـ كـثـيرـةـ مـنـهـاـ الـمـوـسـوعـةـ الـحـرـةـ وـيـكـيـيـديـاـ، وـغـوـغـلـ، لـعـلـهـ يـجـدـ فـيـهـاـ

ما ينفعه ويساعده خلال رحلته أو جولاته في مدن العراق. وجد الكثير من المعلومات المشوشة والمربكة، لا بل كانت هناك معلومات متضاربة ومتضادة، لا يمكن للمرء معها إمساك الحقيقة. فالغريب فقدان الكثير من المواضيع المتعلقة بالعراق لأي نوع من الإحصاء والتدوين، وإن وجد فهو مبتور وبعده مشوش ومربك. أصيب بالدهشة والحيرة وهو يطلب بعض المعلومات عن بغداد كمدينة. ففي خارطة لموقع غوغل وجد أن اسم المطار يظهر في بعض الأماكن باسم مطار صدام، ثم يظهر في موقع آخر باسم مطار بغداد الدولي. وقد اضطر أن يجدد البحث لمرات عديدة في محاولة لمعرفة عدد المطارات الدولية في العاصمة العراقية، فلم يجد غير هذا المطار، ومطار آخر أهمل منذ زمن بعيد وكان باسم مطار المثنى. ولكن حيرته تحولت إلى إرباك شديد، حين أراد معرفة بعض المعلومات عن أحياe مدينة بغداد ومحلاتها، فظهر له أحد أحياeها الكبيرة مرة باسم مدينة صدام، وأخرى باسم مدينة الصدر، وفي خارطة ثانية كان اسم ذات الحي، مدينة الثورة، وكان قد نال في عهود سابقة تسمية الرافدين. أصابته الحيرة وهو يقلب الصفحات بحثاً عن ثبات هوية، لمدينة لا تستقر أسماء أحياeها على حال، فكيف هو حال المدينة نفسها. تساؤل عن سبب ودوافع تلك التغيرات، أي يعني هذا أنه أمام مزاج متقلب أو مشاعر وعواطف مرتبكة، مصابة بعصاب وهلوسة اجتماعية سياسية، أم أنها ظاهرة، ناتجة عن عوامل قسر وترويع، بسبب تنافس وصراع داخل أحياe تلك القصبات والمدن. أم هناك ظروف قاهرة خفية، تضطرهم للتمويه ومن

ثم اختيار أسماء مختلفة لمكان جغرافي واحد. أم تراه حالة من تماهي الخائف مع جلاده. ومع استمراره في البحث والتقصي، وجد أن هذه التغييرات والتحولات ليست مقتصرة على مدينة بغداد، وإنما نطال الكثير من أحياء ومدن العراق. لم يكن ذلك ليؤثر على قراره، لذا حسم الأمر وتهيأ للسفر نحو بغداد.

# في البحث عن عباس بن فرناس

حطت الطائرة فوق مدرج مطار بغداد الدولي. كانت الساعة تشير إلى الثانية ظهراً من يوم جاف في شهر تموز. خارج نافذة الطائرة القريبة منه، بدت ساحة مكشوفة يتقاتف فيها الهواء بقايا أكياس بلاستيكية وأوراق صحف. ملامح بناء المطار غير واضحة بسبب الغبار الكثيف، الذي ينم عن طقس عاصف ملبد بالتراب. كان يوماً عادياً من أيام قيظ العراق اللاح.

قبل أن يخمد هدير محركات الطائرة، تصاعدت ضجة بين الركاب، كان وقعها عليه كبيراً: الله مصلي على محمد وآل محمد. سمع هدير الجملة يتضاعف ويتردد في أحشاء الطائرة بنغمات متعددة، كررها بعض الركاب ثلاثة مرات، مع مطالية الجملة بنغمة خاصة. مقدمة لم يستحسنها ماركس، وبدت وكأنها تحِد لما يفكر به، أو هي استفزاز مقصود لشخصه، فهمس سراً وكأنه يحدث نفسه، الدين هو عجز العقل البشري على التعامل مع حوادث لا يمكن فهمها. ولاحظ وهو يلوّك حيرته، أن هناك من يرفع عن عمد كفه ويفتح أصبعيه علامة النصر، فتساءل مع نفسه هل يعني لهم هبوط الطائرة انتصاراً، أم هو كان المعنى بتلك الإشارة.

فتح باب الطائرة فاندفع هواء حار داخل جوفها. صاح شخص كان يجلس ليس بعيداً عن مقعد ماركس.

- واوو... ما هذا الدفو يا الهي، هاي شمس الوطن وحرارته إلى تنطى النشاط والحيوية للروح.

تبسم له ماركس كأنما يشاطره الرأي، وشعر ببعض الاطمئنان حين تلاقت عيناهما، فالوطنية عنده تتبدى في كل ما يفعله، أو يظهره المرء. وقف أغلب الركاب في الممر، وراح حات الأيدي تتسابق مسرعة في محاولة سحب الحقائب من الرفوف. تقدم البعض مسرعاً نحو مقدمة الطائرة.

فجأة سمع صوت المضيفة يرتفع ويطلب من الجميع العودة إلى مقاعدهم والبقاء فيها لحين ورود معلومات أخرى. بدأ البعض يتململ ويثرثر بصوت مكتوم، وأخرون يشتمون ويصرخون ويذمرون من الحر. استمر الحال لما يقارب النصف ساعة، دون أن يبرر طاقم الطائرة للركاب بقاءهم وعدم مغادرتهم الطائرة. أصبح الوضع لا يطاق مع بكاء الأطفال، وصراخ البعض، وهذيان العجائز، وشتائم الشباب وسبابهم لسلطة رئيس الوزراء وزعير النقل والبرلمان، لا بل كانت كمية الشتائم تناقض وتطال جميع من هو مشارك في السلطة.

كان ماركس يدير رأسه في جميع الاتجاهات، يراقب حركة الركاب ويستمع لأحاديثهم وصرافهم، ويدقق في نوع الشتائم

وطبيعتها، في محاولة منه أن يلم بالحدث بشكل دقيق. كان يود أن يجد علاقة لرئيس الوزراء ووزير المواصلات وأعضاء البرلمان، بالحالة التي وضع فيها ركاب الطائرة. كان صبوراً دقيقاً في بحثه عن سبب تلك الهستيرية، التي انتابت البعض من الركاب، فسأل الراكب الذي يجلس جواره عن الدوافع لمحمل تلك الشتائم، التي صبت فوق رأس الحكومة فلم يجد جواباً شافياً، وإنما أزداد الوضع غموضاً، مع جملة أطلقها ذلك الراكب، وكانت من ثلاث كلمات، لم يجد ماركس معها بدا من الصمت وهز الرأس علامة جهل مفرط، ولكنه رددها مع نفسه بعسر، ووجد فيها ما يرفع من مستوى ارتباكه، فتمتم وهو يمسد لحيته الكثة.

### - عمي حكومة فاگسه.. ما معنى فاگسه؟

عشرون دقيقة أخرى مضت وسط الضجيج وارتفاع درجة الحرارة، والروائح العطنة التي نزت عن بعض أجساد الركاب المترعرقة. أعلنت المضيفة عن انفراج الأزمة والسماح بالمغادرة، فاندفع الركاب، وكأنهم سجناء أطلق سراحهم توا، فراحوا يتدافعون للوصول إلى باب الطائرة، بصحبة ضجيج وشتائم لم تهدأ أو تستكين. كان الطيار والمضيفات يودعون الركاب بابتسamas مغتصبة وتقطيبة وجه ظاهرة. وسمعهم ماركس حين اقترباه، يلوكون من وراء أسنانهم، وبصوت خافت جملة غريبة، ولو يسألهم عن معنى الكلمات التي جاءت فيها.

### - دفعت مردي بعصا كردي.. روحه بلا رجعه.

مضت بهم سيارة الباص نحو بوابة المطار، وعرف الركاب من سائقها بأن حجزهم كل ذلك الوقت، كان سببه مصادفة وصولهم مع وجود وفد حكومي، ينوي السفر بمهمة سرية ومستعجلة خارج العراق. ولأجله أفرغت قاعات المغادرة والوصول، ومنع وجود أي مسافر، في ساعة مغادرة الوفد. بعد معرفة السبب ضج الباص بهستيريا الشتائم والصراخ والتذمر، وكان أشدّها قسوة صوت عفطة طويلة، جعلت عيون الجميع تتلفت دهشة بحثاً عن مصدرها.

سلم كارل ماركس جواز سفره إلى الموظف الجالس داخل الكابينة، فطالع الرجل ماركس بشيء من الفضول، وكانت ثمة ابتسامة شاحبة تظهر فوق شفتيه، ثم طلب من ماركس النظر في الكاميرا الصغيرة التي وضعت في الجانب الأيسر من الكابينة، وهي التي تلتقط صورة العين للدلالة والكشف. بعد ذلك سأل الرجل كارل ماركس عن اسمه الكامل، ثم راح مرة أخرى يتملاه بتمعن وفضول ظاهرين، ثم قال:

- سبق أن أجييت إلـبغداد، مو هيج أخي.. أليس كذلك؟

- كلا يا سيدـي، إنـها المـرة الأولى.

- مستـحيلـ، أنا شـايـفـكـ سابقـاـ، شـعرـكـ وـلحـيـتكـ مو غـرـيبةـ علىـ.  
يمـتهـ چـانتـ آخرـ زيـارـةـ إـلـكـ لـبغـدادـ.

- مـثـلـماـ أـخـبرـتـكـ، هـذـهـ زـيـارـتـيـ الأولىـ إـلـىـ العـراـقـ.

- لا تـتـشـاقـهـ وـيـاـيـهـ، أـنـتـ منـ أـيـ بلدـ؟

- أنا أـلمـانـيـ الجنسـيـةـ.

بعد أن شعر بالإرباك والحيرة سحب الموظف جهاز الهاتف ونادي على شخص بكلمة سيدتي.

- هنا رجال ألماني الجنسية جاي من انكلترا. يكُوْل إن زيارته هذه هي الأولى للعراق. وأنا اشك بهذا، فكُوْل هل مرة أني شايفه لمرات عديدة، وهو يدخل عن طريق المطار بهائي اللحية والشعر المكвш، وحتى يحچي عربي، وأسمه گبل تكرر گدامي سيدتي، أعتقد الأمر بي شك ويحتاج التحقق من شخصه.

سحبته من ساعده بشيء من الغلطة يد ثقيلة شديدة السمرة مثل وجه صاحبها بثيابه العسكرية المرقطة، بعد أن قال بحزم، تفضل معي إلى غرفة المقدم. تقدم العسكري برفقة كارل ماركس، نحو باب غرفة موارب قليلاً، يخرج من خلاله دخان سجائر كثيف، يحمله هواء بارد رطب. كان الضابط يحمل فوق كتفيه صورة نسر ونجمة، ويجلس متشنجاً متوفراً متوتراً، وراء منضدة عريضة، تحمل الجهة اليمنى من الغرفة، وثمة لوحة معلقة خلفه على الجدار، كتب عليها بخط عريض ( قل لن يصيّبنا إلا ما كتب الله لنا )، تبسم ماركس وهو يقرأ الخط بلونه الذهبي فوق رقعة القماش الحمراء، داخل برواز خشبي أسود اللون، وتدنن مع نفسه بصوت مكتوم، قد يوجد العقل لدى الإنسان، ولكن ليس دائماً بشكل عقلاني.

أمام وجوار المنضدة سبعة كراسي بمساند غلت بقمash فاقع الألوان، يشغلها سبعة من العسكريين بزياتهم المرقطة، دون رتب عسكرية ظاهرة، وثمة تلفزيون معلق فوق جدار الغرفة المواجه لمنضدة الضابط. الجميع ومعهم الضابط، كان

مشدوداً نحو شاشة التلفزيون، حيث تعرض لعبة كرة قدم، عرف ماركس أنها تجري بين فريق برشلونه وخصمه اللدود ريال مدريد. لم يكن ماركس يهوى كرة القدم بقدر هوایته للكتب والفلسفة، ودائماً ما كانت رياضته المفضلة هي المشي، وربما منعه عن تلك اللعبة مرض النزلة الشعبية، الذي عانى منه كثيراً. راح بفضول يتفرس محتويات الغرفة، ومجموعة العساكر الذين يحتلون الكراسي السبعة، وكذلك الضابط ومحظيات منضدته. كان العساكر بين فترة وأخرى يضجون بالصراخ والضحك. كانوا يتفاعلون بعفوية، ويغيّبون عما يحيطهم، مع دحرجة الكرة بين أقدام اللاعبين. تقدم الجندي وبعد التحية قدم نفسه للضابط، وقال بصوت عالٍ، إنه جلب الشخص المطلوب. لم يرفع الضابط عينيه عن شاشة التلفزيون، وأشار لماركس بصوت مسموع، أن يجلس عند زاوية الغرفة بعيدة، فوق السرير الذي رصف هناك. كان غطاء الفراش مبعثراً، وكان أحدهم قد استيقظ من النوم توا، وترك فراشه في حالة إهمال شديد. جلس ماركس عند طرف السرير، وراح ينظر نحو الضابط لعله يتذمّر مع وجوده ويلتفت ليحدثه. كان الضابط منفعلاً ومتشنجاً، وهو يراقب أحداث المباراة، وعند لحظة إهدار هدف لفريق ريال مدريد، ضرب بكفه الثقيلة فوق المنضدة، وأطلق سيلاً من شتائم وكفر صريح، لم يسبق لماركس أن سمع مثله حين كان داخل الطائرة، ولا حتى من الشباب العراقي في الأحياء الخلفية لمدينة لندن.

- أستاذنا العزيز، هناك من ينتظرنـي خارج المطار، وعلىَّ

أخذ حقيتي أيضاً. ما المشكلة التي تعترض مغادرتي؟

هكذا ناشد ماركس الضابط وهو يقترب منه.

- إرجع مكانك، ما بقه شيء على المباراة غير القليل، أكعد أنته ضيفنا، وراح تنحل مشكلاتك بسهوله، أكعد ولا تعب نفسك بالتفكير، بالمناسبة منو تتوقع يفوز في هذه المباراة؟

عاد ماركس جوار السرير، وترك الضابط دون أن يجيب سؤاله. وبدوره عاد الضابط يشارك أصدقائه متابعة المباراة دون إنتظار الحصول على جواب من ماركس. يستمر الوقت يسير بثاقل، والجميع لاه مع المباراة. وأخيراً فاز ريال مدريد، ومع فوزه تهلل وجه الضابط وراح في موجة من فرح غامر وصراخ وتصفيق، ثم لوح بيديه في الفضاء وراح يهتف. علي وياك علي.. علي وياك علي.. علي وياك علي.. ثم صرخ بفرح ونشوة:

- خرخشو.. عيوني خرخشو، شنو حسبالكم رونالدو فلس فلسين، هذا حلال المشاكل أخو خيته.

بدوره أخرج أحد العساكر رزمة من نقود، وضعها فوق المنضدة أمام الضابط، وكان وجهه يكتسي بعلامات حزن مكين.

أدأر الضابط وجهه نحو ماركس قائلاً.

- گستك حلوه علينا أستاذ ماركس، تدري لو خسران الريالاليوم، چان مشكلاتك نلاشت وأتأجل حلها الباجر، أي سولف أستاذ شنو مشكلاتك؟

- لحد الآن لا أعرف السبب، وأي مشكلة تعترض دخولي  
العراق.

- گبل إنته زرت العراق؟.

- كلا هذه هي المرة الأولى.

- بس ضابط التفتيش يگول أنو سبق وشافاك تدخل العراق،  
وهو يعرفك جيدا.

- أنه واهم.

- بس إنته تتكلم عربي.

- نعم قبل سنوات تعلمت ذلك في الجزائر.

- أنها إنته لعد فار الدنيا فر..بس الضابط أحمد يگول هو  
شايفك هنا سابقا.

- ربما أن الضابط شاهد صوري في بعض الأماكن، أو قرأ  
لي بعض الكتب. فانا صاحب كتاب رأس المال، ونظرتي عن  
مستقبل العالم معروفة، يتداولها الملايين من البشر، والطبقة  
العاملة في العالم أجمع، ترفع صوري وتتداول كتبي.

- الله عليك، فدوه، ما تگول شنو نظريتك باختصار أستاذنا  
الفاضل، تگدر تنورنا رجاءً؟

قال جملته رافقتها حركة خفيفة من الرأس واليد، توحى  
بنوع من الاستخفاف. ولكن ماركس لم يواجه أو يتعرف على  
مثل هذه الحركات، في جميع لقاءاته السابقة، ولا حتى في  
جداله مع أعدائه، لذا لم تكن حركة رأس الضابط العراقي،

وطريقة طرحه السؤال، وابتسامته المتخابثة الصفراء، ما كانت تعني لماركس حالة من السخرية أو شيئاً من الهُزء.

- أنا كارل ماركس قدمت نظرية في النظام الاقتصادي العالمي، ومستقبله الاشتراكي وحتمية انهيار الرأسمالية وانتصار الشيوعية، ولدي تحليلات فلسفية في وحدة صراع الأضداد وقانون نفي النفي.

- عمي.. تخوفنا بهذه الانهيارات والصراعات، هسه إحنه بيا حال، وأنته دخلته بالفلسفة، وقانون ما أدرى شنو ما شنو، گول من البداية وفضها أنته شيوعي؟

- لا..

- بس شلون أنت تگول مألف كل هذي الكتب وهو شيوعي؟

- لم نصل بعد لمثل هذه المرحلة لندعني بأننا شيوعيون...  
نحن مهمدون.

- يمعود تره إحنه ما عدنه خلاك لهيچي سوالف. هسه گول..  
شنو تريد؟.

- لا أريد سوى الحصول على جوازي والذهاب إلى بغداد  
فهناك من ينتظرنـي.

- عمـي تفضل، إعذرـنا من التقصـير.

ثم نادى على الجندي الواقف وراء الباب، وطلب منه أخذ ماركس معه لإكمال معاملة دخوله العراق. ثم أردف قائلا:

- هـسه عـرفـتـ شـنـوـ سـالـفـةـ ضـابـطـ التـفـتيـشـ أـحـمدـ..ـ هـذـاـ يـعـرـفـكـ

كلش زين، لأن هو شيوعي، ويريد يغطي على نفسه.. خوش والله خوش.. أني أعرف سابقاً أكو بنصنه شيوعي ملحد، وهسه جاي بيع كلوات بروسن.. يجي يوم أطلعه من راسه.

عاد ماركس إلى ذات الكابينة ووقف ينتظر. وبعد أن أتم ختم الجواز نظر الضابط أحمد بوجه كارل ماركس وهو يدفع له بجواز السفر، وبصوت جهوري مصطنع وابتسامة عريضة ترتسم فوق محياه قال جملته.

- تفضل رفيق.

كلمة رفيق دفعت ملامح الدهشة والاستغراب لظهور بوضوح في تقطيبه وجه ماركس.

- وأخيراً.. ها أنت تخاطبني بكلمة رفيق..

- نعم أيها الرفيق العزيز كارل ماركس.

- إذن كنت تعرفي.. ولذا عاملت رفيقك بهذا الشكل السيئ، مما الذي تفعله مع الآخرين من غير الرفاق.

- رفيقي.. نحب تلاطف ويأك... وكلشي إله وكته واستحقاقه.. تره إحنـه نحبـكـ ولهـذاـ عـفـيتـكـ من الرسوم والمستحقات أو ورقة التلقـيـحـ، وماـ أـخذـهـ منـكـ غـيرـ الدـخـوليـهـ.

شكر كارل ماركس الضابط واتجه نحو باب الصالة المفضي لساحة انتظار السيارات.

قبل أن يصل الباب الخارجي، شعر بيد قوية تسحب الحقيبة الثقيلة من يده وتضعها فوق عربة صغيرة خاصة بنقل

الحائب.

- مَاذَا تَفْعِل .. الْحَقِيقَةُ لَهَا عِجَلَاتٌ وَاسْتَطِيعُ أَنْ أَسْبِحَهَا .. إِنَّهَا  
لَيْسَ ثَقِيلَة.

- مجھی جانی دو .. رفیک.

- أَذْنَ أَنْتَ أَيْضًا رَفِيق.

- يس رفیک. \*\*

- مَنْ أَيْ بَلْدَ أَنْتَ ؟ What country are you from

- بانغال سی From Bangladesh رفیک.

أَسْتَسْلَمُ ماركس لِإِرَادَةِ الْحَمَالِ الْبَنْغَالِيِّ الْأَسْمَرِ الصَّغِيرِ  
وَتَرَكَ لَهُ الْحَقِيقَةَ، وَقَبْلِ الْوَصْولِ إِلَى مَرَابِ السَّيَارَاتِ، تَقْدِمُ  
نَحْوَ ماركس رَجُلٌ تَرْتَسِمُ عَلَى وَجْهِهِ مَلَامِحُ ابْتِسَامَةِ عَرِيشَةِ.  
كَانَ أَنْيِقُ الْمَظَهَرِ، وَكَانَهُ ذَا هَبَّ إِلَى حَفْلِ سَاهِرٍ، يَرْتَدِي سَتْرَةَ  
كَحْلِيَّةَ وَقَمِيصَ ابْيَضَ بِخَطْوَطٍ صَفَرَاءَ خَفِيفَةَ. يَبْدُو عَلَى  
مَلَامِحِهِ الْجَدِّ وَكَانَهُ مَا كَانَ يَوْدِي إِضَاعَةَ الْوَقْتِ، لَذَا وَجَهَ كَلَامَهُ  
نَحْوَ ماركس بِتَرْدِيدِ سَرِيعٍ لِلْكَلْمَاتِ. كَانَ مِنَ الصَّعُوبَاتِ عَلَى  
ماركس فَهُمْ تَرْكِيبَهَا كَجَمْلٍ، وَلَا بِأَيِّ لِغَةِ كَانَ يَتَحَدَّثُ، وَلَذَا  
بَادَرَ بِالْقَوْلِ.

- تَمَهَّلْ بِالْكَلَامِ سَيِّدِي.. لَكِي أَفْهَمْ مَا تَرِيدُ قَوْلَهُ.

- نَعَمْ أَسْتَادِي.. أَهْلَاً بِكَ فِي الْعَرَاقِ.. تَرِيدُ تَرْوِحَ لِمَكَانِ  
بِالْعَاصِمَةِ بَغْدَاد؟

- نَعَمْ أَرِيدُ الْوَصْولِ إِلَى فَرَنَاسِ..

- قصدك عباس بن فرناس؟

- نعم هو بالضبط.. هناك ينتظرني بعض الأصدقاء.

فجأة قفز الحمال البانغلاديشي أمام كارل ماركس وصاح في وجهه.

- رفياك.. هزاك تريله واگفه تروه لساحة عباس راح أوديك عليها.

بسرعة وخفة امتدت يد الرجل صاحب السترة الكحلية لتدفع الحمال إلى الخلف.

- لك هاي شلون صايره الدنيا، حتى الحماميل گامو يخططون ويقررون.. حيوان.. إنته ليش تتدخل.

ثم وجه كلامه إلى ماركس.

- جناب الأخ يريد بالبهمان لو تكتسي.

- وما البهمان هذا؟.

- استادنا العزيز هادي نوع من أنواع السيارات الكبيرة شويه مو سهل تحصل بيهها مكان.

- ومن الأسرع فيهما؟

- طبيعي التكتسي.. البهمان لا زم يقطط سبع نفرات، وتنتظر فتره طويله.. والتكتسي هم سريع وهم إنته الوحدك.

- جيد نأخذ تكتسي. لفرناس بن عباس.

- أستاد.. حبيبي.. عباس بن فرناس.

- أوكى.. عباس بن فرناس.. قالها ماركس مبتسماً.

تقدّم الرجل نحو مجموعة سيارات أجرة واقفة في ممر طويل، وكان الحمال البنغالي يدفع عربته بثاقل، وخلفه كارل ماركس يحمل حقيبته اليدوية ويحول بنظره أرجاء المكان، وكأنه يبحث عن شيء ما. رفع الحمال الحقيبة ووضعها في الصندوق الخلفي للسيارة، وتسمّر واقفاً أمام ماركس، ثم مد يده فاركا سبابتها بإبهامها، دالة على رغبة الحصول على أجره. لم يتأخر ماركس في فهم الإشارة، فسحب أوراقاً نقدية من جيب سترته وأخرج من بينها ورقة بقيمة عشرين دولاراً. بسرعة خاطفة تلقفها البنغالي وصاحت.

- ثانكيو رفيك.

- هاي شنو سويت أستاد؟. هاي أنطيته هوالية.. انتم الأجانب راح تخربون الحماميل مالت المطار بهاي سوالفكم... خمس دولارات كلش كافي وراح يأخذها وهو ما مصدگ.. أستاذ رحمه لوالديك بعد لتسويه. قال السائق جملته بنوع من الجد والحدة.

- برولتاري يستحق أكثر. قالها ماركس مبتسماً.

- ببراري مو ببراري.. تره لعب عليك هذا الاملح البنغلاديشي.

قالها السائق وذهب ليجلس خلف مقود السيارة.

جلس ماركس في مقدمة السيارة جوار السائق، وراح ينظر نحو الحمال البنغالي الذي أمسك بحقيقة أحد المسافرين، من

الذين يرثون الوصول إلى سيارات النقل. كان الحمال البنغالي ينزع المسافر بجهد كبير، لأجل الاستحواذ على الحقيقة، في الوقت الذي يتثبت المسافر ممسكا بها بقوة. هز ماركس رأسه وزم شفتيه وقال:

- الفقر لا يصنع ثورة وإنما وعي الفقر هو الذي يصنع الثورة.

- نعم، أستاد شنو تفضلات.. تره ما فتهمت شنو گلت؟

- أقول.. وأنا أرى صراع هذا الحمال المسكين من أجل الاستحواذ على لقمة عيشه، حتى وأن وجه له تعنيف. تذكرت بلاده بنغلادش لهذا أقول.. الفقر لا يصنع ثورة، وإنما وعي الفقر هو الذي يصنع الثورة.. لو كان هذا الوعي يحدث في بلاده لتغير الشيء الكثير هناك، ولما قدم هذا الطفل إلى العراق للعمل.

- دخيلك ودخل الله أستاد.. تره الفقر ما يتحمل ثورة، ولا الثورة تتحمل فقر.. وإذا دخلت وحده بالأخرى، راح تصير لخمة شخينه مثل ما يگولون رب عنهم المسيحيين. خلينه بحالنه يرحم والديك. خبز حار خبز بارد، كله رزق من رب العالمين، وشنو يجي من الباري عز وجل نرضي بيه.

- أوكى سيدى، ربما تمتلك شيئاً من الصحة فيما تحدثت فيه.  
لم تتحرك السيارة سوى بضعة أمتار حين إلتقت السائق نحو  
كارل ماركس مخاطباً بصوت خفيض ولغة تو ديية ناعمة.

- تسمحلي أستاد اصعد هذا الرجل ويأنه.. هذا واحد من

أقاربي، حتى ليصير عتب عند العام.

- أوكى.. فقط أسأل من وماذا تعني كلمة العام؟.

- يعني أهلا.. أقاربنا، العشيرة.

- آها.. أوكى الآن أفهمت.. تقصد من أفراد القبيلة.

- لا عمي هذا ابن العشيرة.

- وما الفرق؟

- عمي أنتم الأجانب ما عدكم عشائر.. إحنه اليوم الما عنده  
عشيرة ما يسواله گطف جگاره.

- أوكى شنو گطف جگاره؟ ثم ما الفرق إن كان ابن العشيرة  
أو ابن القبيلة؟

- خوش، سألتني.. ولو أنا مستعجل بس أجوابك.. گطف  
جگاره يعني ما يسوه فلس. و مجموعة عشائر يكونون قبيلة  
واحدة، يعني القبيلة هي الأماليه إلي تلم العشائر، وهذا الرجال  
من حبال المضيف.

- هذا كان موجود عندنا أيضا مثل باقي شعوب العالم..  
وتقريرا بدأ يضمحل ويختفي في نهاية القرن السابع عشر،  
ولكن أنتم الآن في القرن الواحد والعشرين، ومن الضروري  
أن تتخطوا هذه المراحل...

- عمي شدتحجي، حتى لو بالقرن الخامس والأربعين.. إحنه  
بنفس الطاس ونفس الحمام، كلشي مركب عليه تركيب.

- وما هو الطاس وما هو الحمام.

- بعدين أفهمك أغاثي.. مو راح الرزق يطير، وحال المضيف تنقطع وراح يا خذه غيري.

فتح السائق باب السيارة وذهب نحو الرصيف المجاور، وراح في حديث مع الشخص الواقف هناك، الذي كان يرتدي ثوباً أيضاً ناصعاً، وسترة بلون رمادي براق، ويحمل بيده اليسرى حقيبة صغيرة، وجواره حقيبة كبيرة. رفعها السائق ووضعها في الصندوق الخلفي، وتقدم الراكب وصعد في المقعد الخلفي من السيارة.

لم يشغل كارل ماركس بالزمن الذي استغرقته الرحلة، من المطار حتى عباس بن فرناس، كونه كان منشغلاً بتتبع طبيعة البناءيات والأرض المحيطة بالشارع، والحديث الذي دار مع السائق والراكب الآخر. كانت السيارة تلهب الأرض، وكارل ماركس يجول بنظره في الفضاء الممتد أمامه، متبعاً بدقة مناظر البناءيات والأرض الجرداء المحيطة بالشارع. كان حريصاً على مراقبة جميع ما يحيط به، محاولاً استيعاب ما يدور حوله، وبين فينة وأخرى يمسح عن جبينه قطرات العرق التي شعر بها تجري بكثافة بين شعر رأسه الكثيف لتسيل نحو جبهته ثم رقبته، وبعضها تسرب ليمرط لحيته، ثم شعر بها تهبط نحو صدره. كان الجو الحار رطباً خانقاً، أضطر معه الطلب من السائق تشغيل جهاز التبريد، فاعتذر الآخر وعلل الأمر بعطل الجهاز، ولذا أضطر كارل ماركس لفتح نافذة السيارة لعل الهواء يساعد بعض الشيء في التخفيف من شدة الجو الخانق. ورغم انشغاله بالحر والعرق والتفكير بالقادم من

الساعات والأيام، فقد لاحظ أن الراكب الجالس في المقعد الخلفي دفع ببعض نقود وضعها بيد السائق، التي امتدت إلى الخلف وأطبقت على النقود، ثم سحبتها ودستها في جيب السترة. صمت ماركس وراح يفكر بمعالم الطريق الخالية من أي ملحم يوحى بالخضرة، أو أية مظاهر تشد المرء لبلد يتحدث الناس بحسد عن غناه. فالبيوت كالحنة الألوان، متباude وبعض أشجار مبعثرة هنا وهناك، والأرض جرداء مصفرة توحى ببياس أزلي.

- كلشي ما تغير.. صار لي أربع سنوات بره وهسه رجعت.. نفس الشيء ما تغير. هذا نفس الشارع بطساته وحفره والبيوت نفسها وحتى الناس.

كان صوت الراكب الجالس في الخلف وهو يتحدث، يبدو وكأنه يخرج عن جهاز مذيع. فأجابه السائق بلغة واثقة.

- عمي الله يخليلك.. إذا كلها سلابه ونهابه وعلاسه ونصابه شلون تريد الأمور تتغير.

- أعرف، أعرف عيوني، أمريكا جابتكم قصطني حتى يخربون البلد.

- هم رجعنه لقوانة أمريكا وجابتكم، وإجوي على ظهر الدبابة.. أمريكا شعليها... شوف أبن عمي المثل يكول، المايسيوگه مرضعه سوگ العصا ما ينفعه.. إذا البشر ما يخاف من الله وما يحب بلده، لا تترجمه منه شي.

- بس أخيه تره أمريكا خربت النفوس بالفلوس.

- والله أبن عمي من يوم أبن صحة والنفوس خربانه.

- إيه هسه شنو دخل الرجال بهذا اللي صار و يصير.

- عمي كلشي صار وكلشي يصير إجه من وره رأسه.

توقف الحديث وران بعض الصمت بينهما. كان السائق ينظر في المرأة الأمامية نحو الراكب الجالس في الخلف وكأنه يلومه مما تحدث به، والراكب بدوره يوجه نظراته نحو ذات المرأة لذات الغاية ولكن بحذر، وكأنهما يتحدثان بعيونهما. ألتقت كارل ماركس نحو الخلف وطالع وجه الراكب، ثم استدار وتملئ وجه السائق، وكأن هناك جملة أو ملاحظة في خاطره تود الخروج ولكنه يكبحها.

- ها أستاد.. يظهر كلامنا ما عجبك.. إنته هم تحب أمريكا مثلي وتكره صدام.

- إذا كان نقاشكم يتعلق بالحب والكره لهذا وذاك، فلن يتمكن المرء من الحصول على نتائج مقنعة ومفيدة، فالامور لا تفسر وفق ما نحب ونكره.. فالتأريخ مادة تصنعها الشعوب بقوه إرادتها.

أطلق السائق ضحكة قصيرة ثم وجه كلامه إلى ماركس.

- بالمناسبة، أستادنا العزيز. ما تعرفنا بجنابكم.

- أنا أسمي كارل هاينريش ماركس.. ودائما يختصر أسمي بماركـس.. وأنا من ألمانيا...

- والنـعم أستاد.. بـس كـون على ثـقة وروحـه للـحجـي، أـسمـك أـبد

مو غريب عليه.

وفجأة وبنوع من الثقة والجدية قال الراكب الجالس في المقد عالي.

- أي والله الاسم مو غريب.. وبولايتنا هناك قصة طويلة عن نفس الاسم، يحجون بيهها بعض الختياريه..

- نعم أسمى معروف.. لماذا توقفت عن النقاش؟

- استاد هذى السوالف وغيرها يوميه نشرب ونأكل ويابا.. وما قدمت ولا أخرت.. وما يتلاكمه أثنتين عراقيين، إذا ما خشو بهذى المشاكل... وبعدئه على ذاك الحال وما تغير بينا ولا بحياتنا أي شيء.

- فيما حدث عندكم يصح فيه تحليل زميلي وصاحبى فردرىك أنجلز.. حين قال : يطاح بالأقلية الحاكمة ويحل محلها في السيطرة على قوة الدولة أقلية أخرى، تعيد ترتيب مؤسسات الدولة بما يتلاءم ومصالحها.

فجأة صاح السائق بصوت جهوري شادا على مقود السيارة بكلتا يديه.

- أنه ابن جوده.. بعد شبابي وشيب أبي.. عرفته من الأول.

- ماذا عرفت؟

- أقصد أبي عرفها ليگدام.

صاحب الراكب الآخر بشيء من الاستهزاء

- وماذا عرف الوالد الكريم؟

- عرفني أثول بهيج موافق، كلشي ما افتهم. في يوم وچان  
عمرى اطنعمش سنه، سويت وكاحه.. أخذني الوالد طيب الله  
ثراء للغرفة، وهلستني بالحزام هلس. وبالأخير گالي، إنته لو  
نطلع دلال وچماله قمرجي، لو بياع نفط، لو سايق تكسي..  
وبغير هذني الوظائف حظاك يطيح وتعيش طول عمرك اغبر..  
تدرى ليش.. لأن إنته دجه دبنگ دماغ سز، بس شاطر  
بالكلوات والوكانة، ثاني يوم گتله يابه عود ليش دلال وألع  
قمار. گال لأن الدلال شغلته يعش ويقشر الناس بلسان حلوا  
ذرب ويصور لهم اليريد ايبيعه بس هو الموجود وماكو غيره،  
وعلمود هاذى الله يبتليه ويخللي يحب القمار والنسوان، ويدب  
فلوسه عليها، وسألته ليش بياع نفط، گال، لأن إنته تعرف  
بالحرمنه زين، وراح ما ترس التنكة إلى تبعها للناس بالنفط..  
زين وسايق ليش؟ گالي بعدين تحس بيها وتعرفه.. وأنى  
اختاريت أصير سايق. وهسه أحس أنى دايخ ما مفthem منك  
كلشي أستادنا، وما اعرف شنو گال صاحبك فريد أنجز.

- فرديك أنجلز..

- كله يك حساب أستادنا.

- تدرى استاد، وربك الكريم.. حتى أسم صاحبك مو  
غريب.. هاي شلون صدفه اليوم.. رجعته الأيام عبد الكريم  
قاسم.. ولو أسم ذاك الشخص هم ماركس، بس هو متوفي على  
عهدنبي الله دقناوز..

هكذا راح الراكب الآخر يتحدث وكأن صوته الغليظ المكتوم  
يخرج عن سماعة مذيع قريب.

- أستادنا العزيز.. چانت محلتنا كلها تحجي باسم ذاك ماركس، ويسمون المحلة مالته موسكو الزغيرة، وصور هذا اليشبها موجوده على هوايه كتب يقرأها الناس، بعدين أفتر الزمان وأجو البعثيين، هوايا ناس گلبو عكرف لوي، وصارو بعثيه و حرس قومي..وراح وكت وأجه وكت صارو قوميه من جماعة عبد السلام وجمال، ورجعو البعثيه وهم گلبت الناس وصارت وياهم. وهسه ما شاء الله كله گامت تضرب ركعة والگصة سودة. حشاك أستاذ، چان هذاك الله يرحمه.. إلى يشبه أسمك، اهوایه سوانا قلبالوغ ومشاكل ويه الحكومة.. تصور ابن خالي ليهسه ما ينعرف مصيره، شنو بالله لزموه شايل مناشير مال شوعيه

ولجت السيارة التي تقلهم داخل ساحة مترفة مكشوفة محاطة بسياج من حديد مشبك. تقف داخلها بغیر ترتیب العدید من السيارات، بعضها بلون اصفر مميز وكأنها تابعة لشركة نقل بعينها، والباقيات يبدو أنها سيارات خاصة. تقدمت السيارة لتدخل في ساحة أمامية معبدة بالأسمنت، تقف فيها بعض سيارات حديثة. ثم توقف السائق جوار باب مطعم، بعيد بعض الشيء عن تجمع السيارات، وترجل ليساعد الرجل صاحب الثوب الأبيض بأخذ حقیته ثم جاء وقال لماركس:-

- أستاد هنا المكان.. هذا هو موقع عباس بن فرناس.

غادر كارل ماركس مقعده وجال بنظره المكان ثم سأله السائق.

- وأين فرناس الذي يؤشر به.

- استادنا العزيز بعد ما تخرج باتجاه بغداد راح تشفوف تمثال كبير لرجال عنده جناحين.. هذا هو عباس بن فرناس.. طباقات مال ذاك الوجت، الله خبله خبال قوي.. وبليله سوده فد يوم حلم، و چان يسويله جناحات وراد يطير مثل العصافير.. طاح من فوگ الجبل وتكسرت عظامه، كانت تجربة لها دالة على عظمة فكر العراقيين.. دائمًا طايرين وشلعل، وبعدين ينچبحون على وجههم وتطير كل الأحلام.. بس تکول يجوزون من أحلامهم، مستحيل، لا من ثالث المستحيلات، وهذا حالنا من ذاك اليوم الحد اليوم، نطير ونوكع ونطير وننچبح، وعلى هلننه طھينچ ناعم.

همس ماركس مع نفسه، رغم أنني لم أدرك جميع ما تحدث عنه هذا الرجل، ولكن وفي حقيقة الأمر، فإن أفكار الإنسان هي انبثاق لحالته المادية، من المستحيل تماماً تجاوز قوانين الطبيعة. ما يمكن أن يتغير في الظروف التاريخية ليس سوى شكل هذه القوانين.

- يحفظكم الله أغاثي، تره ورانا شغل، لعب إيدك وخلبي  
نترك على الله ونرجع للشغل ويمكن نحصل رزق أحسن.

- ما المبلغ الذي تطلبه؟

- إنته ضيفنا أستادنا العزيز، وألف أهلا بيكم بعراق  
الحضارات، مثل ما أتفقنه، ميت دولار وهادي أقل شي  
لخاطرك، لأن الظاهر أنت طيب ابن أطياط، ولو ما وظيفتي  
بالمطار چان وصلتاك لنص بغداد.

سحب السائق الحقيبة من صندوق السيارة الخلفي، وصرخ بصوت عال على احد الحمالين. تقدم الحمال وكان شبيها بالحمال البنغالي الذي يعمل في المطار. حين قبض السائق المائة دولار من كارل ماركس وجه حديثه للعمال بصيغة آمرة

:

- مو تستغل الأستاد.. ها دير بالك.. ما تأخذ منه أكثر من خمسة دولارات.. زين.. تره أسمط أبو أبوك.. هذا ضيفنا.

- أوكي.. رفيك.. شويه.. شويه



# لقاء تاريخي في الزمن العصيب

لم يكمل كارل ماركس حديثه مع سائق التاكسي حين سمع ضجة وأصواتاً قادمة من الباب الأمامي لساحة وقوف السيارات عند مجمع عباس بن فرناس. سبعة أشخاص ب أناقة تامة رغم الحر القاتل، أحدهم يرفع راية حمراء والآخرون راحوا بموجة من تصفيق يتراافق و هتاف مدوٍ متكرر.

- هله بيـك هلـه وبـجيـتك هلـه... هلـه بيـك هلـه وبـجيـتك  
هلـه... هلـه بيـك هلـه يـشـيخ المرـجلـه..

راح ماركس يتلفت يميناً ويساراً وشعر بشيء من الارتباك، بعد أن تيقن أن الأشخاص السبعة يتوجهون وأنظارهم شاخصة نحوه. لم يستطع فعل شيء سوى الوقوف والدهشة ترتسم على وجهه. وأخيراً اجبر نفسه على الابتسام، حين وجدهم يلتلون حوله ويهتفون بذات النغمة المكررة، ثم قفز أحدهم وطوق عنق كارل ماركس وراح يقبل وجنتيه وهو يردد

- عيوني فدوه اروـحـاك.. مـارـكـسـ ماـكـوـ غـيرـكـ... أـنـتـ تـدـلـيـنـهـ  
عـلـىـ الطـرـيـقـ.. هلـهـ بيـكـ هلـهـ... هلـهـ بيـكـ هلـهـ يـمـيلـ المـكـحـلـةـ.

بـيدـ قـوـيـةـ تمـكـنـ اـحـدـهـمـ منـ سـحبـ الرـجـلـ وـفـكـ اـسـرـ رـقـبـةـ  
مارـكـسـ مـنـهـ، صـارـخـاـ بـوـجـهـ الجـمـيعـ.

- رـفـاقـ.. رـجـاءـ مـرـكـزـيـةـ... أـخـوانـ بـدـونـ خـرـوقـاتـ... خـلـونـهـ  
حـسـبـ مـاـ مـتـفـقـ عـلـيـهـ.. لاـ عـنـاقـ وـبـوـسـ دـونـ موـافـقـاتـ مـسـبـقـةـ..

الالتزام حرفياً بما اتفقنا عليه.. رفاق رجاء.. تذكروا رفيقنا ماركس متعب.

بنظرات متولدة من عينين ذابلتين شكر كارل ماركس الرفيق صاحب البذلة الداكنة بلونها الأرجواني الضارب للسواد. ثم بادره بالسؤال بعد أن أوحى مظهره الأنثيق لماركس بأنه مسؤول المجموعة.

- هل الرفيق مسؤول المجموعة التي أرسلت لي طلب المجيء إلى العراق ؟

- نعم رفيقنا الغالي نحن من أرسل بطلبك. وأنني مو المسئول الأول.. ولكنني باسم الجميع أرحب بك في أرض الرافدين.. أرض التاريخ المجيد والعنفوان، البلد الذي ظهرت فيه أول حروف الأبجدية، ومنه انطلقت العلوم والتكنولوجيا، حيث صنعت العجلة لتنتقل العالم من مرحلة إلى مرحلة، وكانت تلك أولى الخطوات لظهور الطبقة العاملة، أنت في بلد المجد الحضاري التليد.. أهلا بك أيها الرفيق العزيز في بلد التحديات الكبرى أرض العمال والفلاحين والكافحين والإنجليستيا صناع الفجر الأحمر.. حلت أهلا ووطأة سهلا.

اقرب أحدهم من رفيق آخر وهمس وهو يخفي بيده ابتسامة ماكرة.

- إسمع الرفيق سعدي.. من هسه بده يغرد... بعنه ما تعرفنه على الرجل گام الرفيق يحچي جنجلوتيات.. اليوم شراح يخلصها..

أجابه الآخر هاماً.

- يمود دعوه... قابل هاي أول مره تسمعه من رفيق انجليستيا.

لم يكمل حديثها حين بادر أحد الرفاق بأخذ كف كارل ماركس وراح معها في موجة ترhab، اضطر ماركس لسحب كفه بقوة، وعلائم الضجر بادية عليه، فقد شعر بقوة الشد التي تسحبه دون رحمه. راح ماركس يقول بنظراته في وجوه الرفاق ثم وجه حديثه دون تركيز على شخص محدد.

- يمكننا إكمال الحديث في مقر حزبكم، أعتقد أن هذا أفضل من الوقوف هنا.

تلاقت نظرات الرفاق، وظهر وكأنهم في حيرة وارتباك من السؤال الذي لم يكن متوقعاً. أحدهم بادر وهو يمسح العرق من فوق رقبته بمنديل أحمر طرز على أحد أطراfe رسم المنجل والمطرقة.

- رفيق ما عدنا مقر ثابت.

- ولكنني عرفت أنكم تملكون مقرأ ثابتاً.

- رفيق مو إحنه اللي عرفت عنهم.

- ولكن هذا ما أُخبرت به من رفاق لي في لندن قبل مجئي.

- يمكن خبروك عن غيرنه.

- إذن هناك غيركم؟

- نعم وهناك خلافات واختلافات أيديولوجيه بيننا وإحنه ما

نريد نلتقي ويأهـمـ.

- حسناً ومتى سنذهب من هنا وإلى أين نتجـهـ؟

- رفيق ماركس إـحـنـهـ نـتـظـرـ رـفـيقـ جـبـارـ،ـ وـهـوـ الـمـسـؤـولـ عـنـ كلـ شـيـءـ،ـ بـعـدـهاـ نـرـوـحـ لـلـفـنـدـقـ.

- وأـينـ رـفـيقـ جـبـارـ؟

- رـفـيقـ جـبـارـ يـتـأـخـرـشـوـيـهـ وـهـوـ هـسـهـ بـالـطـرـيـقـ.

التف الرـفـاقـ حـوـلـ كـارـلـ مـارـكـسـ،ـ أـحـدـهـمـ يـرـحبـ بـهـ وـالـأـخـرـ يـوـجـهـ لـهـ اـسـتـفـسـارـاـًـ عـنـ لـنـدـنـ وـكـيـفـ هـيـ الـمـعـيـشـةـ هـنـاكـ.ـ أـحـدـهـمـ سـأـلـهـ عـنـ طـرـيـقـ الـهـجـرـةـ إـلـىـ هـنـاكـ،ـ وـأـخـرـ عـنـ عـدـدـ أـفـرـادـ عـائـلـتـهـ،ـ وـأـخـرـ سـأـلـهـ عـنـ صـحـةـ الـأـنـبـاءـ الـتـيـ تـحـدـثـتـ عـنـ مـرـضـ الرـفـيقـ فـرـدـرـيـكـ أـنـكـلـيـزـ،ـ وـعـنـ مـشـارـيـعـهـ الـمـشـتـرـكـةـ،ـ أـخـرـ سـأـلـ عـنـ طـبـيـعـةـ الـاـخـتـلـافـ بـيـنـ النـظـامـ الـاـقـتـصـادـيـ الـانـكـلـيـزـيـ وـالـأـلـمـانـيـ،ـ فـأـجـابـهـ مـارـكـسـ بـأـنـ الـوقـتـ لـاـ يـتـسـعـ الـآنـ لـجـوابـ مـثـلـ هـذـاـ السـؤـالـ.ـ بـصـوـتـ خـافـتـ خـجـولـ،ـ بـادـرـهـ أـحـدـ الرـفـاقـ وـهـوـ يـفـرـكـ رـاحـتـيـ يـدـيـهـ بـبـعـضـهـمـاـ،ـ بـسـؤـالـ ظـرـيفـ عـنـ عـدـدـ عـشـيقـاتـهـ،ـ وـهـلـ يـفـضـلـ وـاحـدـةـ مـنـهـنـ دـوـنـ الـأـخـرـيـاتـ.ـ زـمـ مـارـكـسـ شـفـتـيـهـ ثـمـ هـزـ رـأـسـهـ وـأـبـتـسـمـ وـهـوـ يـنـظـرـ لـهـذـاـ الرـفـيقـ الصـفـيقـ.ـ تـوـجـهـتـ أـنـظـارـ الرـفـاقـ نـحـوـ رـفـيقـهـمـ،ـ وـبـدـأـتـ كـلـمـاتـ التـقـرـيـعـ وـالـاستـهـجـانـ تـوـجـهـ إـلـيـهـ مـنـ قـبـلـهـمـ،ـ وـكـانـ بـعـضـهـاـ جـارـحـاـ،ـ فـاـبـتـعـدـ الرـفـيقـ عـنـ الجـمـعـ وـهـوـ يـمـسـحـ قـطـرـاتـ الـعـرـقـ الـتـيـ غـطـتـ وـجـهـهـ،ـ دـوـنـ أـنـ يـتـرـكـ لـرـاحـتـيـ يـدـيـهـ مـتـسـعاـ مـنـ وـقـتـ.

هـبـتـ سـحـابةـ تـرـابـ صـاحـبـ قـدـومـ سـيـارـةـ سـوـدـاءـ ضـخـمـةـ نـوـعـ

لكرس ياباني حديثة، توقفت بمحاذة تجمع الرفاق، فاستدار الجميع وبوجهه تفيس بشاشة، وراحوا يحيون صاحب السيارة بحرارة.

- هلو رفيق جبار.. هلو بيـك.. هلو ورده.. هلو حبـي..  
رفيقنا كارل ماركس متـشوق لـشوفـتك.

فتح بـاب السيـارة ليـظهر جوارـها رـجل أـنيـق بـبدـله ضـارـبة للـسوـاد وـربـطة عـنـق زـرقـاء غـامـقة وـقمـيص بـصـبغـة سـمـائـية اللـونـ. كانت نـظرـاتـه تـتسـقطـ الرـفـيقـ مـارـكـسـ الـذـي وـقـفـ خـلـفـ الـجـمـيعـ. كانت اـبـتسـامـةـ رـفـيقـ جـبـارـ عـرـيـضـةـ تـرـتـسـمـ فـوـقـ وجـهـهـ الحـنـطـيـ المـائـلـ لـلـحـمـرـةـ، وـتـظـهـرـ أـسـنـانـاـ نـاصـعـةـ الـبـيـاضـ. وـدـونـ النـظـرـ أوـ الـحـدـيثـ معـ أـحـدـ منـ رـفـاقـهـ، مـدـ يـدـهـ لـمـصـافـحةـ الرـفـيقـ مـارـكـسـ. كانت أـنـظـارـ الرـفـاقـ تـتـنـظـرـ بـشـيءـ مـنـ الـاعـتـزـازـ وـالـفـخـرـ، لـهـذـاـ الـلـقـاءـ التـارـيـخـيـ فـيـ هـذـاـ الزـمـنـ الصـعـبـ وـالـعـصـيبـ. أـدـارـ رـفـيقـ جـبـارـ رـأـسـهـ نـحـوـ الرـفـاقـ وـقـالـ:

- أـوـكـيـ رـفـاقـ شـيلـوـ جـنـطـ الرـفـيقـ مـارـكـسـ وـخـلـوـهـاـ بـحـوضـ السـيـارـةـ.

بعد هذا سـحـبـ الرـفـيقـ جـبـارـ الرـفـيقـ مـارـكـسـ مـنـ يـدـهـ وـفـتحـ بـابـ السـيـارـةـ وـطـلـبـ مـنـهـ الصـعـودـ جـوـارـهـ فـيـ مـقـعـدـ السـيـارـةـ الـأـمـامـيـ، ثـمـ انـطـلـقـ مـسـرـعاـ بـعـدـ أـنـ نـبـهـ الرـفـاقـ إـلـىـ ضـرـورـةـ الـلـقـاءـ مـسـاءـ فـيـ الـفـنـدقـ.

بدأ اللـغـطـ يـتصـاعـدـ بـيـنـ الرـفـاقـ وـكـانـهـ شـجـارـ، بـعـدـ أـنـ ذـهـبـ الرـفـيقـ جـبـارـ مـنـفـرـداـ مـعـ كـارـلـ مـارـكـسـ، وـلـمـ يـكـلـفـ نـفـسـهـ حتـىـ

الالتفات نحوهم أو السماح للبعض بمرافقته وماركس. وكان سامر أكثر الرفاق تذمراً وبدت كلماته الغاضبة المتقطعة السريعة تأخذ منحى شتائم بحق الرفيق جبار.

- إيه هسه ابن المهلوس.. ابن المداس.. إحنه مو رفاق، هذا دائماً يبقه ما عنده أصول، لكن هو منين يجيب الأصول ابن الرگاع، عمت عين الوكت إيه والله، عمت عين الوكت.

- إيه ليش، شلك بهذا الحچي رفيق، مو هو رفيقنا ومسؤول حزبنا، ودائماً عنده وگفات ويأنه لو نسينه. هسه صار كخه وغلط.. يمكن راد يريح رفيقنا ماركس ويفتهم منه منفرداً بعض الأشياء الرفاقية. وهمين ميسير هيج خرق بشتايم.

- ليش إحنه مو كلنا رفاق.. ليش دائماً يميز نفسه؟

- هسه دخلتها سكته مزين مرات....؟

- گول ليش سكتت..؟

- مرات غده وعشه و يلفيك بالفندق.

- أهو.. بدت رحمة الله.. أحسن اسكت وأنجب من هذي الدهرة.

- صدگ بالمناسبة، رفيق مناف شنو گلت من هتفنه لوصول الرفيق كارل ماركس.. هله بيک هله يميل المكحلة.. شنو هاي سالفة ميل المكحلة؟

- والله أني سامع هذا من بيبيتي.. چانت تهوس الجدي لمن يجي من البستان بالمسا. وچان أبويه يخرب ضحك من يسمع

الهوسة.. فسألته يوما.. بويه شنو يعني ميل المكحله.. چان  
يگول أنته شايف المكحله مال ببیتك، مو بيه راس مثل القبع  
وبي نبوله، فأجيبيه بنعم. فقال لي هذا هو الميل، والمكحله بدون  
النبوله أي الميل، ما تسوه زبانه.. وإذا الميل ما يدخل  
بالمكحله.. العيون ما تصير وساع وتشوف الدنيا زين.. بس  
المدوخني، أنو بعد ما شرحتي هذا الموضوع، راح بموجة  
هستيرية من الضحك.. هسه أني فكرت أنو بدون ماركس،  
إحنه ما نگدر نشوف وضعنه زين.

- اي رفيق ما كتل حبوبتك وموتها، تره مو السبب كبر  
العمر، لا، كتله ميل المكحله.

ضج الرفاق **بالضحك**، وهم يتوجهون لأخذ سيارة أجرة  
للحاق برفيق جبار في الفندق. بينما وقف الرفيق مناف فاغر فاه  
بدهشه.

وصل الرفيق جبار إلى الفندق وأوصى العمال الاهتمام  
بالضيف، والاعتناء بغرفته، ونبههم إلى تحضير حاجات  
الرفيق، لأخذ حمام ثم التهيؤ للعشاء في مطعم الفندق.

حين قدم الرفاق إلى الفندق كان الرفيق جبار وكارل ماركس  
يجلسان حول طاولة منفردة يتناولان الطعام في صالة مطعم  
الفندق.

سلم الرفاق وجلسوا عند طاولة قريبة وراحوا في حوار  
جدي باديء الأمر، ثم بدأ الهزل والضحك، وكانوا يتوقعون أن  
يدعوا لهم الرفيق جبار بشيء يأكلوه ولكنه بادرهم بالقول.

- بعدكم متعشيتوا؟.

ردوا سريعا وبصوت واحد.

- لا رفيق.

- ليش ما تروحون تاكلو لكم شي بالمطعم البصـف الفندق.

فبـادرـهـ الرـفـيقـ سـامـرـ بالـكـلامـ

- رـفـيقـ جـبارـ أـكـدرـ أـبـاتـ بالـفـنـدقـ الـيـومـ؟

- ليـشـ بـعـدـكـ مـتـزـاعـلـ مـعـ أـمـ عـشـتـارـ؟

- إـيـ وـالـلـهـ رـفـيقـ.

- أـوكـيـ شـوـفـ الـاسـتعلـامـاتـ وـخـبرـنيـ.

خرج الجميع واحدا إثر الآخر وهم يطالعون ماركس  
المـنشـغـلـ بـالـطـعـامـ.

- هـايـ شـبـيـ الرـفـيقـ جـبارـ أـشـوـ صـاـيرـ بـخـيلـ؟

- يـمـعـودـينـ شـنـوـ يـوـمـيـهـ... الـبـارـحةـ تـغـدـيـنـهـ عـنـهـ.

- إـنـتـهـ وـرـفـيقـ عـبـاسـ وـسـعـديـ وـسـامـرـ موـ إـحـنـهـ.

- وـذـاكـ الـيـوـمـ وـقـبـلـهـ؟

- إـيـ هـسـهـ إـنـتـهـ صـاـيرـ قـبـغـ مـالـ حـلوـگـ.. شـنـوـ نـحـچـيـ أـتـذـكـرـناـ  
بـالـماـضـيـ..

حين أتم الرـفـيقـ جـبارـ وـكـارـلـ مـارـكـسـ عـشـاءـهـمـ وـتـنـاوـلـاـ كـأـسـ  
شرـابـ، سـأـلـ الرـفـيقـ جـبارـ كـارـلـ مـارـكـسـ عنـ استـعـادـهـ لـلـغـدـ،  
فـهـوـ أـيـ الرـفـيقـ جـبارـ سـوـفـ يـجـمـعـ بـعـضـ الرـفـاقـ وـالـأـصـدـقاءـ

هنا، في باحة الفندق، للتعرف عليه وسماع بعض الآراء. وافق ماركس على مقترح الرفيق جبار واستأذن للذهاب إلى غرفته لشعوره ببعض التعب، وحاجته لأخذ قسط من الراحة. شكره الرفيق جبار ورافقه حتى باب الغرفة، ثم هبط إلى الصالة وأتصل بالرفيق سعدي، وأبلغه بضرورة الحضور للتهيؤ ليوم غد، وإبلاغ جميع الرفاق والأصدقاء بالموعد لمقابلة الرفيق كارل ماركس والتحدث معه.

«AlYaa» مجلہ رات

# سوء فهم أم خلاف مبيت

كانت درجة الحرارة التي أُعلن عنها في أخبار الصباح قد بلغت 49 درجة، ولكن مثل هذا الإعلان يبتعد كثيراً عن واقع الحال. هذا ما شعر به كارل ماركس وهو يقف في شرفة الغرفة. فرغم وقوفه في الظل، فقد أضطر للدخول مسرعاً لشدة الحرارة التي يدفع بها الهواء فتلفح وجهه، وقرر البقاء في الغرفة تحت هواء المروحة السقافية، أو التمتع بالحمام رغم سخونة الماء، ولكن ترطيب الجسد يبعث في النفس شيئاً من الراحة.

طرق الباب، فرفع ماركس جسده عن السرير بتناقل، فقد كان في طريقه نحو إغفاءة بسيطة، جراء القيظ الذي يلف المدينة ويبيث على الخدر والنعاس. ذهب وفتح الباب ليجد الرفيق جبار واقفاً يطلب منه القدوم لحضور الاجتماع المعد للقائه في صالة الفندق. ارتدى كارل ماركس قميصاً أصفر بنصف كم مرقط بنقط صغيرة أرجوانية خفيفة وربطة عنق شذرية اللون وبنطال عريض قطني حلبي اللون. هبط السلم باتجاه القاعة، وهناك وجد حشداً من الناس يربو عددهم على أكثر من الثلاثين شخصاً.

جلس الرفيق كارل ماركس خلف طاولة أعدت له في زاوية من زوايا بهو الفندق، واصطفت أمامه مجموعة رجال كانت تجلس معهم امرأة واحدة لا غير. جلسوا على كراسي غير

متشابهة، رصفت أمام الطاولة التي يجلس خلفها كارل ماركس.

بعد ضجة ولغط كثرين أشار الرفيق جبار للجميع بالهدوء والانتباه لحديث الرفيق ماركس. بدت ملامح الانشراح على وجه ماركس وتوردت وجنته، وارتسمت ابتسامة خفيفة فوق حياه، وتنهد وهو يسحب كرسيه ليقترب جيداً من حافة المنضدة، التي وضع فوقها بعض الأوراق في ملف بلاستيكي داكن الحمرة.

بادر الرفيق ماركس، فحيا الجميع بحرارة، وشكرهم على الحضور وتكبدhem مصاعب الطريق، بعد أن استيقظت بغداد منذ الصباح الباكر على أصوات انفجارات عديدة هزت العاصمة، قطعت إثرها الطرق وبالذات شوارع جانب الرصافة الذي يقع الفندق عند أحد أطرافه. بادر الرفيق ماركس بالقول:

- رفاقي وأصدقائي الأعزاء تحيه رفاقيه.. اسمحوا لي في البداية أنأشكر الرفاق الشيوعيين العراقيين على دعوتهم وضيافتهم الكريمة، راجياً أن نستطيع خوض غمار تجربة معرفية، نستطيع بها التعرف على مشاكل العراق، وبرامج الرفاق وطرحهم للحلول المناسبة للخروج من الأزمات

رفاقي الأعزاء، يجب وفي المقدمة أن ندرك قبل أي شيء آخر، وبشكل ناجز، إن ما سوف أطرحه عليكم لا علاقة له بالماركسيّة الكلاسيكيّة، حيث كنت والرفيق فردرريك انجلizer عهد ذاك، نرى أن التاريخ مجال مكتشف أمامنا بالكامل، ومهيأ أن نتناوله بما نرغب أو نعتقد، وكنا نتصور امتلاكنا

القدرة على استحواذ الماضي والحاضر ومن ثم المستقبل. وحدنا خطوط التطور حسراً بالصراع الطبقي، وتفسير هذا الصراع وصياغة شروطه وتفكيكها، يقع على عاتق الطبقة العاملة دون غيرها.

رفاقى الطيبون، صحيح أن الكثير مما حدث في العالم من تغيرات كان ثمرة تأثير الماركسية الكلاسيكية، وبالذات جانب التحليل العلمي للمسيرة الإنسانية. واستمرت البشرية تنظر للماركسية الكلاسيكية، على أنها منهج للتحليل، ورؤى فلسفية للتاريخ والمادة، وفي الوقت ذاته حركة سياسية تحررية. وكان يحذونا، أنا والرفيق فردرىك، من خلال بحثنا المتجرد والمتأمل والمفعم بالأمل، أن تعم مفاهيمنا العالم وبالذات الثورية منها، وأن تنهار قوى الرأسمالية أمام بياننا الشيوعي، وتكون استنباطاتنا وتحليلاتنا الفلسفية الفكرية والمادية، منهجاً لثورة عارمة للطبقة العاملة، التي سوف تتوحد قواها العالمية وتجعل مهمة التغيير سهلة المنال.

ولكن أيها الرفاق. وبعد تاريخ طويل، وبناء متهافت لاشتراكيات متنوعة وأطروحات دخيلة الصقت بماركسيتنا وبما طرحناه، واختيرت تعاميم وأطر ومناهج لتفسير ما قدمناه، واستعملت نظريتنا بـإفراط منفلات، وبدت الغشاوة تحيط بأصل الفكرة وجوهرها. وكان هناك أيضاً، وهذا مهم، ويجب أن يتوضّح لجميع من يؤمن بالطرق العلمية والمناهج السلمية في الوصول إلى ما يصبوا الجميع إليه. فقد ظهرت أبحاث كانت قد خرجت من رحاب الماركسية، أو الأخرى جرت

وطوّعت الماركسية نحو حقول حضارية متعددة، خلّطت نظريتنا بال حاجات الأنانية للشعوب، وبالذات الخصوصيات الوطنية وقضايا قبل وبعد حروب التحرير ثم الاستقلال، واقتصاديات التنمية وعلم السياسة الحديث، وال العلاقات الدولية، ولذا تغيرت أساليب النضال وتنوعت طرق تفكير المراحل في التاريخ البشري، الساعي لصناعة الحضارة والمعرفة واليقين بأهمية السلم والرفاه الاجتماعي. وعند هذه التغيرات، وقبل كل شيء، أود أن أُعرّج معكم على مفصل مهم، أحدث قفزة كبيرة غيرت طبيعة وجهة الاشتراكية ومتبعها، هذا الخرق الكبير الذي أدار العجلة دورة كاملة، غيرت الكثير من المفاهيم والمعارف عن دكتاتورية البروليتاريا، والعلاقة مع الطبقة البرجوازية ورأس المال، وطبيعة الصراع الطبقي، وكيفية وضرورة ومراحل تصعيده، والتي كنا نرى من الواجب استمرارها، بتطویر وتغذیة واستعار جذوة ذلك النضال. الخرق الذي أتحدث عنه اليوم، كان بداية لزعزعة قناعات الكثرين، للحفاظ على حقول الماركسية. لا بل إن اطر فلسفية ونظرية، في السياق العام لحياة الشعوب، قد انهارت معها متاريس وسدود هذا الخرق أو لنسمه على حقيقته بالصدمة أو التفكير، وسمى لاحقا بالصلح التاريخي، حين عقد هذا الصلح بين نقابات العمال وأصحاب رؤوس الأموال، وكان هذا الصلح كافياً، لدفعنا جميعاً لإعادة التفحص من جديد في أسس النظرية، وأن نقف عندها، ونسمها بكونها كانت في تاريخ محدد، تشكل وعي البناء النظري الفلسفي للعالم، ولبت الكثير من الطموح لتفسير علمي للمادة والتاريخ، ولكن اليوم فإن

الكثير من الحاجات الإنسانية، من المحال أن تقف عند تخوم النظرية марксية الكلاسيكية، بقدر ما باتت تستطيع الابتعاد عنها.

تلك اللحظة التفت رفيق قيس نحو الرفيق سامر، الذي يجلس جواره في الصف الثاني من مجموعة المقاعد، ومال بجسده الضخم ليقرب فمه من أذنه وهمس بعصبية:

- لک داد رفیق سامر.. دتسمع هذا شدیگول.

كان سامر يبعث بجهاز الهاتف النقال وكأنه يكتب رسالة،  
فأجاب هامساً

- شتر پد؟

- يعني إنته ما سمعت شگال الرفيق کارل مارکس.

- مو كل السوالف...يا به مو أكثرهن ساميـهـن من غيره  
وقارـيـنهـ بكتـبهـ.. قـاـبـلـ عـنـدـهـ شـيـ جـديـدـ.

- عيني رفيق أنتم متأكدين أنو هذا هو كارل ماركس نفسه.  
- هاي شنو رفيق بدت رحمة الله، هاي شبيك مكبسل !؟  
سؤال غريب متشوف الكفشه مالته واللحية.. هو ماركس بدمه  
ولحمة.

- زين أنته أنتبهت شگال؟  
- مو گتلک مو کلشي سمعته... دحچي شنو شگال؟  
- لك داد شي ما معقول.. إتخلى عن الماركسية الالاسية  
وطعن بيها.

وكأنه لدغ من عقرب، صاح الرفيق سامر بأعلى صوته،  
وكان يضغط بقوة على مقابض الكرسي.

- لا.. ما ممكن.. مو بكيفه.  
سكت كارل ماركس وتطلع ناحية الصوت، وران صمت  
عميق على القاعة. كانت أصوات سيارات إسعاف تأتي من  
بعيد وهي تخترق الشوارع بسرعتها الجنونية. التفت بعض  
الرفاقي صوب الرفيق سامر، وبادره الرفيق جبار بالسؤال.

- هاي شبيك سامر شنو خلاك تصرخ بهشكل؟  
فجأة وقف الرفيق سامر وقد شحب وجهه، وأخذت شفتيه  
ترتعشان، ويداه تدوران في الهواء، وهو يوجه كلامه نحو  
كارل ماركس.

- الرفيق العزيز كارل ماركس، أعتقد أن عليك وفي هذا  
الأمر، أن تقف عند حدودك وتعذر، الماركسية الالاسية هي

منهجاً وطريق حياتنا، وليس من حقك أن تتنكر لها وتتجاوز  
عليها... لن نسمح لك بذلك.

ضجت القاعة باللغط والهدر، وكان الرفاق كانوا على موعد مع خلاف مبيت، يظهر أنه لن ينتهي بسلام، فقد انشطر الجمع بين مؤيد ومستنكر، ولم يستطع الرفيق جبار السيطرة على الموقف، لذا طلب من الرفيق كارل ماركس الذهاب إلى غرفته عسى أن يستطيع هو وضع حل لهذا الإشكال الذي أثاره الرفيق سامر. لم ير غب ماركس بالمغادرة وبادر بالحديث رغم اختلاط صوته بالضجيج الذي يقوم به بعض الرفاق.

- رفافي الأعزاء، رفافي الأعزاء.. أعتقد أن هناك اجتزاء أو سوء فهم حدث عند الرفيق، في الغاية أو التوصيف والمدخل الذي أردت أن أبدا فيه لقاءنا. وكان الأفضل الانتظار لما بعد أكمال حديثي ثم البدء بطرح الأسئلة والنقاش.

- يانقاش رفيق، إنته خليت طريق مفتوح حتى نتوافق مع ما صرحت بيه.. رفيق هاي رده وتحريف واحنه ما مستعدين نسمع مثل هذا.

كان حديث سامر حاسماً وكانت الكلمات تخرج من فمه وكأنها أحجار تن撒ق في فوق رؤوس الحضور، لذا بدء الضجيج والأصوات تتلاعى، ثم أخذ البعض بالتسرب من الجلسة والذهاب للخروج من القاعة.

- ما الذي تعرفه عن الماركسية أيها الرفيق العزيز؟

بادر مارکس بتجیه السؤال إلى سامر، وكانت عيناه قد

ظهر عليهما الاحتقان وأخذت أصابعه تقر بحدة فوق المنضدة. كان سامر قد استدار بقامته الفارعة ورأسه العكش جانباً، وراح في نقاش حاد مع رفيقه الآخر الجالس على الكرسي المجاور، ولكنه تتبه لصوت كارل ماركس، فألففت إليه وطلب منه إعادة السؤال، فهب الرفيق جبار من مكانه وصرخ بأعلى صوته.

- رفيق سامر أنت تريد إثارة المشاكل مو غير شي، ولو چنت مهمتم للأمر چان انتبهت لسؤال الرفيق ماركس.

- أنه تره منتبه رفيق، بس بنفس الوقت رفيق عيسى وجه لي نقد غير مبرر، وردت أشرحله وأوضحله بعض ما خفي عليه. رفيق كارل ممكن تعيد سؤالك.

أعاد كارل ماركس طرح سؤاله عن ما يفهمه سامر في الماركسية.

- رفيق.. منذ الصغر وأنا أقره الكتب الماركسية، كتابك نقد مذهب هيغل في الدولة إلى بؤس الفلسفة والبيان الشيوعي ورأس المال والعمل المأجور حتى العائلة المقدسة وغيرها من الكتب. وچنه دائمًا نحاول من خلالها تماثل وضعنا في العراق وقدرة ما طرحته والرفيق أنجلز على تحليل الواقع العراقي بمختلف تجلياته.

- وهل وجدت في كل تلك الكتب ما يوصلك إلى نتائج حاسمة؟

- بعض الشيء، وهو كلشي..

- حسناً و هل استمعت لحديثي اليوم و فهمت الغاية منه؟.

- الحقيقة رفيق ما چنت أستمع للحديث، لأن چنت مشغول بأمر عائلي على الهاتف، الرفيق قيس شرطي كل شيء.

نهض رفيق جبار من مكانه و صرخ بوجه الرفيق سامر بصوت جهوري واضح.

- رفيق سامر هذا حبي لو اتخربط، مشغول، وما سمعت، ورفيق قيس شرطي.. شنو أحنه زعاطيط.. شنو هذا التخربط.

- رفيق لتغلط.. تره أتحملتك صار سنتين.. أشو هو فيه شايف نفسك.. تره أنا عمري ما أعرف بتسلسل حزبي وما يهمني أنته منه، وما تقدر تفرض عليه أوامرك، وهذا رفيقكم الجايبي من الغرب.. تره مو كارل ماركس.. هذا تحريف، وغالب عرف لوي على الماركسية، وراح نراويه إنه مو غيرنه شنو الماركسية.

وبعصبية رد عليه رفيق جبار وكان يؤشر له بسبابة يده وكأنه يوجه تكريعاً لأحد تلامذته.

- بعد ما إلك مكان بهذا الفندق بعد هذا اليوم، وما تقدر تبات بعد إهنا، حتى لو طلگتك أم عشتار بالثلاث. شنو إنته رب مشاكل ولغاوي.

خرج سامر مسرعاً من القاعة والتحق به كل من الرفيق قيس والرفيق ساهرة والرفيق شاكر والرفيق غني، وعند خروجهم كانوا جميعاً يوجهون نظرات حادة نحو الرفيق كارل ماركس والرفيق جبار.

لم يدع الرفيق جبار هذا الأمر يمر دون أن يبادر لتهئة الأجواء، فطلب من الرفاق الباقين، الانتقال إلى قاعة الطعام لتناول الشاي و العصائر، ثم وجه كلامه إلى كارل ماركس الذي كان بدوره يقلب الأوراق التي أمامه محاولاً أن يبعد عن ذهنه هذه اللحظات التي مرت وتمر بتناقل، دون أن يستطيع حل الإشكال، بنقاش مثمر يخرج الموضوعة بما يتواافق مع منهجه في نقد الحالة والكشف عن المستجدات في الفلسفة أو الاقتصاد السياسي، وظروف ومستجدات الصراع الطبقي وحتى التغيرات في العلوم والمادة. لحظتها سمع الرفيق جبار يوجه له الكلام وابتسامة شاحبة تعتلّي شفتيه.

- رفيق ماركس لا تهتم فالمرة اهقة السياسية دائماً ما تواجهها جميع الأحزاب والتنظيمات، وهي واحدة من المعوقات، لا بل المؤذيات في العمل. غداً سوف نسافر إلى مدينة الناصرية، فهناك لدينا رفاق رائعين، وقد نسقت معهم حول هذه الزيارة قبل قدومك إلينا.

## ليلة الفزع الكبير

طيلة الليل لم تغمض لماركس عين، بقي مسهدًا يفك  
بنظرات الغضب والتهديد التي توعده بها سامر. ما كان يعنيه  
قوله، راح نراويه أحنّه مو غيرنه شنو الماركسيّة.

كان مجمل ما حدث يلح في خاطر كارل ماركس، وفكّر لو  
أنه استطاع تصحيح الأمر مع الرفيق سامر، من خلال وسيلة  
تقنّعه باستمرار الحوار، لما حصل ذلك الانشقاق أو سوء الفهم.  
وأيضاً كان للرفيق جبار دورٌ غير مفيد على الإطلاق، لا بل  
كان مفرطاً بالعجالّة، وهو يقرّع سامر ويوجه له اللوم. فكر أن  
ثمة موافق، ممكّن أن يكون التحاور فيها الحل الأمثل لحسمها  
أو جسر الخلاف.

أراد الاستحمام لأجل كسب بعض راحة، فربما ينعشه الماء  
ويهدأ خاطره بعض الشيء، بعد أن شعر بأن الليل تجاوز  
منتصفه. ولكن حذفية الماء كانت تصدر صفيرًا خافتًا، دون أن  
يخرج عنها ماء. بحث في الغرفة عن مصادر الضوء، علبة  
ثقب، أو شمعة أو قداحة، فلم يجد لهذه الأشياء أثراً، فالظلمام  
كان دامساً، ولذا كان يتلمس الأشياء والجدران في مشيته.

هبط السلم، يلاصق جداره، محاذراً السقوط. كان يضع  
أقدامه فوق درجات السلم واحدة إثر أخرى بحذر وبطء. يتلمس  
أرض السلم ثم يضغط، كل ذلك بسبب الظلمام الذي غطى

غرف الفندق وممراته. بعد عدد غير قليل من درجات ودورات السلم، وجد نفسه أمام منضدة الاستعلامات. كان يصدر من خلفها صوت شخير قوي. طرق بأصابعه طرقة خفيفا فوق سطح الصندوق الخشبي، فتوقف الشخير للحظة ثم عاود مرة أخرى، فعاود ماركس بدوره النقر بأصابعه، فتوقف الشخير لبضع ثوان ثم تصاعد مرة أخرى. استهوت اللعبة كارل ماركس، فكررها لعدة مرات، بعد أن شعر بقدرتها على إبعاد الضجر والكآبة التي تملأ قلبه، ولعلها لعبة تضمر عنده بعضاً من الشعور الكاسح بالوحدة، الذي لم يفارقه منذ مساء البارحة، وجعل النوم يجافييه. طق طق طق ثم يتوقف الشخير.. طق طق وهكذا استمر يمارس لعبته مع الشخير، دون أن يرى مصدره. ضحك مع نفسه وفكر لو أنه صالح على صاحب الصوت وأنهى اللعبة، عليه يجد لديه حلا للظلمة أو انقطاع الماء، وربما جلس معه يتبادلان الحديث. بعد مضي ما يقارب العشر دقائق، هوى ماركس بقبضة يده وبكل ما أوتي من قوة فوق منضدة الاستعلامات. عند تلك اللحظة هب أحد ما من خلف الصندوق وهو يصرخ :

- الله وأكبر.. الله أكبر.. بويه لحّولي أنكتات.. بويه شمخي  
بويه جويسم الحّولي... الله وأكبر.. لخاطر الحسين شترید اخذ  
بس لا تكتاني.. اروح فدوة لاترمي.. لا ترمي عليك أبو  
الحسين.. تره صاحب جهال فدوه لا ترمي. الحّولي بيا الله  
عليكم راح أموت.. بويه شمخيبي.

تشنج جسد ماركس، وأخذ يتثبت بزاوية منضدة

الاستعلامات. فجأة خرجمت من الممر الخلفي، حزمة أنوار لمصابيح كاشفة، وجهت أنوارها نحو المنضدة. أضيء المكان، بعد أن جاء ضوء ساطع لمصباح يدوي كبير، من الباب الداخلي المجاور لطاولة الاستقبال، فكشف عن المكان بجميع محتوياته. كانت هناك منضدة الاستعلامات، يقف كارل ماركس جوارها، بلحيته وشعره المنفوش، وكان يمسك بقوة أحد طرفيها، وينظر نحو الأرض القريبة من قدميه. جوار المنضدة، تمدد جسد رجل في الستينات من عمره، يرتدي دشداشة بيضاء كالحنة، وكوفية مرقطة تلف حول رقبته، ينسدح بجسمه الضامر الطويل على الأرض، ضاغطاً بيديه على رأسه ويصدر عنه شخير مسموع.

- يمعود أبو شمخي كلشي ماكو.. هذا خطار رفيقنا جبار.. أبو شمخي هذا مو حرامي.. أبو شمخي گول غيرها خويه... ما تصحه.. ياوسفه.. إيه والله يا وسفه على الزلم.. أبو شمخي. لم يحرك أبو شمخي ساكنا وبقي مسمراً ممدداً، دون أن تتم عنه حركة أو يصدر عنه صوت سوى شخير خفيف.

- يمعودين دخيل الله شويه ماي.. صالح أحدهم

تناول الرجل الجالس جوار أبو شمخي قنينة الماء، وسكب بعضاً منها بيده، ثم مسح به وجه أبو شمخي، كرر العملية عدة مرات فوق الرأس وعند الرقبة وعلى الوجه، فلم تتم عن أبو شمخي حركة تعطي الانطباع بصحوته، استمر الوضع لأكثر من ربع ساعة، دون حركة من أبو شمخي، عندها قرر الرجل المسعف، وطلب بصوت عاليٍّ من الموجودين، استدعاء سيارة

إسعاف لنقل أبو شمخي إلى المستشفى.

- يمود تره أولاً منع تجول، بعدين كلمن يگلک سايق  
إسعاف يطلع بهيج وگت گله چذاب.

- اي هسه أنحاول.

- شتحاول... أکو سايق إسعاف شارب نفط بهذا الليل..  
الجيش لو الشرطة من خوفهم راح يشبعونه کتل.. وليس أکو  
واحد بشعبة الإسعاف راح يسمعلك لو يرد عليك... خوش  
عليك إسعاف..

- خوش لعد خابرو رفيق جبار..

- اي خوش فکره.

- اي والله ما يحلها غير رفيق جبار.

كان كارل ماركس مسما مكانه، يرقب الوضع ويشعر بقوة  
هائلة لتأنيب الضمير تكتسح كيانه، فربما تسبب بموت هذا  
الرجل في هذه الليلة المنحوسة، وهذا ما لا يغتفر عنده. وراح  
يزجر نفسه وبيونبها، كيف سمح لنفسه بهذا الفعل الهائل، لم  
يكن الوضع يحتمل مثل هذا المزاح الثقيل مع رجل كبير السن.  
كان يطالع الوجوه التي يعتري بعضها الاصرفار ويغطي  
عيونها النعاس، وهي تجد نفسها مجبرة تنتظر نتائج الحدث.  
كان البعض منهم لا يبعد عينيه عن ماركس، وكأنهم يوجهون  
له نظرات لوم وتقرير، شعر ماركس معها بقوة ضغط تكتسح  
كيانه وتدفعه للغثيان.

- ألو رفيق جبار.. أسف رفيق أسف گعدتك من النوم..

رفيق عدنه مشكله.. رفيق ما تتحمل للصبح.. رفيق والله أبو شمخى.. رفيق ما يتحمل للصبح...الخاطر الله رفيق.. بغيوبه مدى يصحه... شلون إذا مات... إيه مو توگع براس خطارك أبو لحية وكفشه، إذا مات أبو شمخى.. رفيق.. يمود رفيق..

- سده للتلفون.. يگول نيموه بغرفة من غرف الفندق للصبح وبعدهه خابرو إسعاف.

تقىد ماركس من جسد أبو شمخي وأخذ يده اليسرى وراح  
يفرك الكف المتibiaة ثم مسد بشيء من قوة على جبين أبو  
شمخي وصدغيه، ووضع قطرات خفيفة من الماء فوق شفتيه،  
فندت عنه تنهيدة قوية ثم شخرة ثم حسراً بعدها فتح عينيه  
وأغلقهما ثم فتحهما ثم صاح بصوت خافت متقطع

- بويه شمخى، بويه جويسىم وينكم..

عندما ضجت القاعة بالتكبير وردد الجميع بصوت واحد..  
علي ويالك علي... علي ويالك علي.. علي ويالك علي.. ثم  
صاحب أحدهم بصوت جهوري شق به عنان سماء القاعة :  
ها خوتي ها

النجم يفگد نشعته لو يغيب سهيل  
ولو غاب الگمر موحش يصير الليل  
وفگد الزين أبو شمخي مو هين يهد الحيل  
ها وفگدك ... ها وفگدك  
حز بینا .. وهای الماتتسوه

وأخذ الجمع بترديد ( وهاي الماتتسوه وفگدك حز بينا وهاي الماتتسوه ) والدوران والردد قرب جسد أبو شمخي المدد، وكانت أنوار المصابيح اليدوية تلتمع وتومض في سقف القاعة، مع هرولة دوران الرجال. حاول كارل ماركس إسناد جسد أبو شمخي في محاولة لمساعدته على النهوض من رقته، فدفع أبو شمخي يد كارل ماركس، ونهض دون مساعدته، وكان ينظر لماركس شزرا، فتأثر ماركس كثيراً من هذا الإعراض والغضب، فقدم اعتذاره لأبي شمخي وأمسك يده شاداً عليها. ولكن أبو شمخي كان في حالة من الكدر والبغض، لا يحتمل معها النظر في وجه ماركس أو قبل اعتذاره، لذا سحب يده بحدة ظاهرة زادت من شعور ماركس بالذنب.

طالع ماركس جوقة الرجال وهم في مرحهم وضحكتهم، وكأنهم يغوضون عن زمن طويل من حزن يلف أجسادهم وأرواحهم، وال الساعة الآن تضيئها المصابيح اليدوية فتجد الوجه المتعب فرستتها، لسرقة فرح طفولي لم يكن ليخطر على بال، فرح بعد خوف وحزن ينبع من وسط الظلمة، هكذا هي ساعات يومهم، تمضي بين جنونين وكل شيء لا يقبل أن يكون طبيعياً.

هذا الرجال وتفرقوا، وعاد أبو شمخي إلى مكانه خلف منضدة الاستعلامات، ولم يعد يظهر من جسده سوى رأسه المدور الصغير المتفلع بكوفيته، وكان قد وضع أمامه شمعة صغيرة بدأ ضوءها المرتج ينير وجهه الأسود، وتظهر على جبينه تقطيبه عبوسه. حاول كارل ماركس التقرب من المنضدة

واستدرج أبو شمخي للحديث، لتسنح له فرصة تجديد اعتذاره، ولكن لم تكن محاولته لتجدي نفعاً مع أبو شمخي، فاستدار ماركس وذهب نحو قاعة الانتظار، حيث انتبذ ركناً قصياً، وراح يحدق في الظلام الذي لف الشارع خلف زجاج النافذة المغبر.

\* \* \*

- رفيق.. رفيق ماركس.. هاي شنو أشو رايح بسابع نومه..  
وليش مو بغرفتاك.

أستيقظ كارل ماركس على صوت رفيق جبار وهددها يده. فتح عينيه وجال بهما المكان، وتذكر ليلة البارحة المسؤومة فتوقف عند وجه أبو شمخي، الذي كان يمسح سطح منضدة الاستعلامات بقطعة قماش دون أن يرفع عينيه. جلس الرفيق جبار جوار ماركس، وراحا بحث ييدو هازلاً. كان ماركس يشرح لجبار بشيء من الأريحية الظاهرة ما حصل ليلة البارحة، لذا كان الرفيق جبار يطلق بين فينة وأخرى ضحكة مجلجلة تجبر أبو شمخي على النظر نحوهم وعلامات الغضب بادية عليه، ثم يعود لقطعة القماش يضغط عليها بقوة ويمررها بعصبية فوق سطح المنضدة الخشبي، ومع تكرار ضحكات الرفيق جبار لم يعد أبو شمخي يتحمل الأمر فقال بصوت قوي واضح.

- إبني جبار وروحه الأبيك. لوما انته توگف بعيني ذيج الساعة، چان أنه خاش بخطيته، وراصه بوحده حاره رص بين

عيونه، وحده مو أكثر من أم التلاثين.

- أفعه عليك أبو شمخي.. غير تنغلب عليه الدنيا، الأحزاب الشيوعية وتفرعاتها ومنظمات المجتمع المدني ونقابات العمال، الأمميات بجميع فروعها، حتى تنظيمات حرب العصابات في بوركينا فاسو وسوق الشيوخ وخليج عدن وملاوي وكمبوديا والنمور الحمر والصقر والصقر الجارح والهواء البارح.

- رفيق جبار هم دخلته بزوا غير ما أدرى شني ما شني.. خلف الله عليك.. چان البارحة أتيتمو العيال على أيد صاحبك، وأنت هسه تضحك وييه هذا الكافر أبو كفشه.

## الخروج نحو الجنوب

أستغرق طريق الخروج من العاصمة بغداد ما يقارب الساعة والنصف، لشدة الزحام في الشوارع، وإغلاق بعضها، إثر انفجارات دوت أصواتها وترافق مع أذان الفجر. الهواء مترب خارج السيارة، ومدى الرؤية جراء الغبار، لا يتجاوز العشرة أمتار. جهاز التكييف في سيارة اللازكس، يبعث بصمت هواء منعشًا، وثمة رائحة عطر نسائي تناسب مع الهواء البارد، لتبعث في النفس شيئاً من البهجة والراحة. راح الرفيق جبار يبعث بمفتاح المذياع دون التوقف عند محطة بعينها. أنتبه كارل ماركس لهذا الأمر فبادر بالسؤال.

- هل هناك أخبار مهمة تبحث عنها؟

- نعم رفيق.. كل شيء بالعراق مهم، كل يوم أكوا مئات الأخبار الجديدة، أكثرها يبعث الأسى والحزن، وبعض آخر بيء اشويه أمل.. ولكن الخوف والألم هما سيدا الموقف.

اقربت فتاة صغيرة رثة الثياب متسخة الوجه، من زجاج النافذة القريبة من كارل ماركس، ولوحت له بعلبة مناديل ورقية. كان وجهها الطفولي الكسير وأصابعها الصغيرة المتسخة، يرسلان له إشارة استعطاف وتوسل، طالبة منه فتح

زجاج النافذة لابتياع بضاعتها، أحت بذلك، وكانت تسير مع حركة سير السيارة البطيء. نظر ماركس إلى وجهها الطفولي، فأعتصر قلبه الألم، وراح يعبث بجipp بنطاله محاولاً أخراج النقود. حاول فتح النافذة، ولكنه وجد الرفيق جبار يميل بجسمه ويمسك بيده راجياً منه عدم فتح النافذة.

- رفيق من تفتح النافذة راح يدخل الغبار، ويترس حوض السيارة، ويتلف لنا الجو والمقاعد.. هذي وغيرها الآلاف، راح تشوفهم بكل مكان، وإذا ردت تشتري بضاعتهم، فتحتاج إلى خزينة دولة لتسدد أثمانها. دعوا لي ولا تشغل بالك بها.

- ولكن هذه طفلة، والفقر يدفعها للمجازفة بحياتها بين عجلات السيارات، وكان على أهلها الاعتناء بها، وعليها أن تكون في المدرسة الآن.

- أعرف وهناك مثلها الآلاف.. صرنا بفضل السياسيين إلى يحکمونا ثالث بلد في العالم بنسب الفقر والفقراء.. رفيق خلينه من ذلك الآن.. هل تعرف إلى أين نتوجه.

- أخبرتني البارحة بأننا سوف نسافر إلى مدينة الناصرية.

- أولاً عندي أقارب بمدينة النجف، نزورهم ونتناول الغداء عدهم، ثم نكمل طريقنا لمدينة الناصرية. بالمناسبة يعجبك تزور الزقورة وأثار سومر، ومقام النبي إبراهيم.

- أود ذلك ولكن دع هذه ومقام إبراهيم لفرصة أخرى.

راح السيارة تلهب الأرض، متوجهة صوب مدينة النجف، ومنظر بساتين النخيل على جنبي الشارع، يبدو الطريق معها

مثل غابة لا نهاية لها، ولكن منظر غابات النخيل لن يستمر طويلاً، فتظهر أراض قاحلة جرداً مهملة، وأنهر وسوقاً جافة، وهياكل بيوت خربة، وأكواخ طينية تجاور بنايات لمؤسسات، تبدو من هيكلها، أنها سبق وكانت شركات أو مصانع أو دوائر حكومية.

كلما اقتربت السيارة من المدن، كانت الشوارع خارجها مكتظة بالبشر السائرة على الأقدام. بشر كثيرون يحملون رايات وأعلاماً ملونة، بعضها طبعت عليه صور لشخصيات. الناس كانوا، صغراً وكباراً، يغدون السير، البعض منهم حفاة، والنساء تتلفع بعباءاتها السوداء، وأقدامها تلتهب الأرض. الجميع يسرع في المسير، وسط هذا الفضاء المغبر، ودرجات الحرارة غير المعقولة. تسأله كارل ماركس عن هذه الحشود، وهي تسير تحت لهب الشمس الحارقة، وإلى أي غاية يتوجهون. كان ينظر إلى جهتي الشارع بالتناؤب ويؤدّي الحصول على إجابة، تقع فضوله الذي تصاعد مع منظر الناس وكثرةهم.

- رفيق جبار ما هؤلاء الناس وإلى أين هم ذاهبون؟.
- هذه يارفيقي العزيز، شعيرة من شعائر الطائفة الشيعية..  
أنت لديك معلومة عن الطائفة الشيعية أليس كذلك؟
- نعم.. نعم.

- هؤلاء يذهبون مشيا على الأقدام، للوصول إلى مدينة كربلاء، حيث قبر الحسين بن علي، الذي قُتل في واقعة سميت

بواقعة الطف، والحسين أحد الأئمة من أبناء بنت نبيهم محمد، وهذى الحشود تتوجه مشيا على الأقدام نحو قبره تبركاً، وبنفس الوقت اعتقاداً، بواجب الوصول إليه ونصرته، وأيضاً يظنون، أنهم يفعلون هذا تكيراً عن مشاعر ذنب يحملونها ويتوارثونها جيلاً بعد جيل، وبالذات القراء منهم، أما أغنياؤهم ومشائخهم، فهم أسياد الموقف، وهم المنتفع الأول من كل تلك المشاعر والشعائر، ويوظفونها لكسب الأرباح المادية والمعنوية.

- هذا ما قلناه في الكثير من مجالات بحوثنا وكتاباتنا، وما يفعله المنتفعون من الدين بتخدير البشر بنصوصه لتطويعهم وإفقارهم..

- رفيق ماركس أعتقد أنك والعزيز فردرريك أنجلز بحاجة لأكثر من سنة، تجرون تعيشون بالمدن المقدسة، إذا كان في العراق أو إيران وهمين بالسعودية وبلدان الإسلام الأخرى، لتخروا بحصيلة غنية عن الشاطئي باطي الذي يملأ هذه الشعوب.

- رفيق ما هذا الشاطئي باطي.. أفصح لي عنه!.

- الشاطئي باطي رفيق لن ينفع معه حديث ساعة، ونحن في طريق سفر.. الشاطئي باطي.. رفيق هو سبب كلشي وكلاشي صار ويصير بينه.. طرائقيع مال الله وأعباده.

- رفيق جبار ليس الوقت وقت مزاح، أو أحجيات وحзорات وتوريات.. حدثني أولاً عن الشاطئي باطي ثم بعدها، هذه الكلمة طرائقيع ماذا تعني أيضاً.. عزيزي جبار ربما

تكون هذه معلومة جديدة، أستطيع تضمينها كتابي الذي سوف يصدر عن الهوية القومية للدين.

تلك اللحظة ظهرت في الأفق القريب نقطة سيطرة عسكرية، فخفف جبار السرعة وقال لماركس إن عليه أن لا يحدث أحداً من العساكر في نقطة التفتيش، وترك الأمر له، وهو من يتکفل بكل شيء، فوافق الرفيق كارل ماركس، دون تمحيص أو اعتراض أو حتى الاستفسار عن الأسباب.

- رفيق ماركس عدك ورقة نقود بعشرين دولار؟ أنا ما عدي بس نقود عراقية.

- نعم رفيق جبار يوجد عندى.

- رفيق خلي بيديك ورقة العشرين دولار، وحاول أن تطويها وتعرضها وأنت تقلبها بين أصابعك، على أن تبين قيمتها جيدا.

- ولماذا أفعل هذا؟

- هسه مو وگت أسئلة، وعليك أن تسوّي ما أقوله، حتى تتجاوز Heidi السيطرة وأسئلتهم واستفساراتهم، حتى لا يوگفونه لساعات بحجة وجودك وبأيامه كأجنبي، وسبب سفرك باتجاه الجنوب، وما الغرض منه، وإلى أي منطقة، ومن تعرف هناك، ومتى تعود، ولديهم هناك جوگه من الأسئلة لا طائل لها، وفي النهاية سوف يقبلون بما نمنه لهم، ويفرجون عنـا، أما المحاولة التي أطلبها منك، فإنـها تختصر كل ذلك.. أعرفـت ذلك رفيقي العزيـز.

- كلا.. سوف أحـاول معرفـته لاحقاً، وعليـك بعد عبورـنا

شرح ما تفضلت به الان.

- أوكى رفيق.. سوف تتعرف على ذلك دون شرح مني.

توقفت السيارة جوار نقطة التفتيش، تقدم رجل ببزة عسكرية مجعدة، طويل القامة حاسر الرأس، يحمل فوق كتفه بندقية مزدوجة.جاور السيارة عن قرب، ثم سار أمامها حتى نهايتها. كان يمسك بيده اليمنى جهاز الكشاف الأسود، بمجسه النحاسي المدبب، ثم عاد وتوقف جوار نافذة الرفيق جبار.

- وين رايحين؟

- للنجف.

- عدكم ممنوعات؟.

- هاي شنو.. أحنه شکول ممنوعات الله يحفظك.

- سلاح لو قناني عطر.

- قناني عطر نعم بس سلاح لا.. منحتاجه بوجودكم الله يحفظكم.

جلبت حركة يد ماركس مع ورقة النقود انتباه العسكري، فقرب جسده من النافذة، وأدخل جزء من رأسه، ليمنع النظر جيدا، بما كان ماركس يضعه بين أصابعه.

- الأخ من الكاكية اليضربون در باشه؟.

- لا هذا صديق من السادة آل مسيعيده، يومهم كله مخلصينه بالصلوة والصوم.

- أها خوش و هاي شنو بيده؟
- هاي ورقة دولارات.
- أي أعرفها بس چم دولار؟
- عشرين دولار وبس هاي عنده، وطول الطريق يلعب  
بيه.. مصدگ.
- أخاف مزورة؟
- بعنه ما وصلنه للنجف حتى نزوره بالحضره.
- ههها ههها.. كون أكدر أشوفه.. خاف مزورة.
- مد جبار يده وسحب ورقة العشرين دولار من بين أصابع  
كارل ماركس ودسها بيد العسكري، الذي بدوره أسرع وأخافها  
في جيب بنطاله قائلا.
- عمي عساها أبختكم، وأبو الحسينين يأخذ حوبتي وحوبة  
جهالي منكم، إذا طلت مزورة.
- عزيزي أخذ رقم سيارتي، ومن تطلع الورقة مزورة تُدَرِّج  
أتدور علينا، وشتريد سوي بينه.
- الله وياكم طريق النجف على البسيـه.. مودعين.

اقربت السيارة من مدخل مدينة النجف الشمالي، وتوقفت  
قرب حاجز سيطرة عسكرية كبير. فتشت السيارة بذات الجهاز  
الكاف الذي يشبه المسدس بمجسمه المدبب، الذي بدأ يهتز مثل  
ذنب كلب. أقترب الجندي من النافذة، وطلب أوراق جبار  
والرفيق ماركس الثبوتية. شعر جبار بالحرج فأوراق ماركس

سوف تسبب لهم استفساراً وحواراً طويلاً وإشكالاً لن يحل بسهولة، وخذ وهات لوقت طويل مع هؤلاء، وهذه السيطرة لا ينفع مع رجالها أي نوع من النقود، فهناك مفتش عام، يقف ليس بعيداً، يرقب ما يحدث بين الركاب وجندوه، وهناك كاميرات تراقب محيط ووسط السيطرة، وأيضاً هناك دوريات تتبعهم، فبوابة النجف تعني الكثير للحكومة المركزية، وأيضاً لحكومتها المحلية، واحتراقها يعني كارثة إنسانية بكل ما تعنيه الكلمة، وقطعاً للأرزاق وأضراراً بالغة بالسياحة والمناسبات الدينية، وهذا يسبب انخفاض عوائد وواردات مجلس المحافظة، وفوق كل هذا وذاك استخفاضاً، بقدرة الحكومة على ضبط الأمن حتى في مناطق نفوذها.

- نقيب أبو زينب موجود؟

- إيه موجود.. شنو تريد منه؟

- گرايبي أريد أسلم عليه..

- إيه أطيني هوياتكم هسه، وبعدين أصيحاك نقيب أبو زينب.

- هسه قابل إنه متهمين لو هاربين.. مو دا أكلك أبو زينب گرايبي. راح أطبك على صفحة وأنزل أحچي وياه.

- خوش عمي.. اذا أبو زينب گرايبي.. چا بويه أنه راح أندهر.. أتفضل أطبك على صفحة وظفي.

أوقف جبار سيارته جانباً وترجل منها، تاركاً الرفيق ماركس جالساً فيها، يرقب بعينين قلقتين ما يدور حوله. عاد

الرفيق جبار و معه نقيب الشرطة أبو زينب، وكان الأخير أنيقاً ببدلة منشأة، حاسر الرأس وعلى كتفيه نجوم بيضاء مطرزة. كان مسرعا نحو السيارة، فتح بابها و راح في ترhab حار للرفيق ماركس.

- أهلا بالرفيق العزيز.. أهلا بكاشف مستقبل البشرية، أهلا برب البنية والعقلانية والمادية والتاريخانية، يا أبو البروليتاريا الثورية وهاديها لغدتها الأفضل.

أصبح وجه كارل ماركس قرمزاً، وهو يستمع لهذا المديح غير المتوقع من أحد عساكر الشرطة العراقية وبرتبة نقيب. فتبادل والرفيق جبار النظارات، شعر عندها جبار بالحرج الذي أصاب ماركس، فبادر و حسم الموضوعة بتدخل لبق.

- رفيقنا العزيز ماركس، أقدم لك رفيقنا الطيب أبو زينب، سبق أن كان محبا للشيوعية على عهد الدكتاتورية، وكان برتبة عريف بالشرطة، أعتقل ثم طرد من وظيفته بتهمة الشيوعية، وبعد سقوط الفاشية البعثية، أعيد إلى الشرطة بعد الدمج وبرتبة ملازم ثان، واليوم هو نقيب، ويحسب على جماعتنا، وهو ثوري، تستطيع أن تضعه على يمناك عند الشدائـد، مثلما يقول المثل، إـي نـگـول عـلـيـه ثـورـيـ منـ الطـراـزـ الخـاصـ.

أبتسـمـ الرـفـيقـ كـارـلـ مـارـكـسـ اـبـتـسـامـةـ عـرـيـضـةـ وـمـدـ يـدـهـ نـحـوـ أبوـ زـينـبـ مـصـافـحاـ وـقـائـلاـ.

- أهلا وسهلا بالرفيق العزيز أبو زينب.

تهلل وجهه نقيب أبو زينب فرحا و صرخ وهو يقفز جوار

نافذة الرفيق ماركس.

- الله أكبر اليوم أصبحت شيوعاً حقيقةً.. اليوم جابتني أمي من جديد، أني صافحت أبو الشيوعية، أعرف هو بوجودي وإنسانتي، بمصافحته شال عنِّي جميع تهم المغرضين والحاقدِين. رفيق جبار ما أنسالك هذا الجميل، ما طول أني عايش، بارك الله وجدي أبو الحسينين هذه الساعة. الگاكم أبيت عمِي أبو زامل بحِي الزهراء اليوم العصر مو هِيج، لوما بعد ساعة عندي دورية تفتيش، چان أجيت وياكم أتبَارك برفيقنا ماركس.

- رفيق أبو زينب تره أحنَه مراح نتأخر بالنجف، بس نزور عمِي أبو زامل ونتغده عنده، ونشلع للناصرية ما أريد أوصل ليِغاد بالليل.

- وسفه رفيق جبار مراح نلتقي بالرفيق.. مو خوش حسبه.

- بالرجعه راح أمر عليكم، وتسوينه گعده مضبوطه، تره عمك ماركس خلي على يمناك، دن ما ينترس عبه.

- يمعود بس تعالو.. بس تعالوا.. وفرحو روحي العذبتني تريدهم.. بس تعالو... لو أجيتوا كل عزيز بعمرِي أطشنَه فدى لعيونكم... بس تعالوا.

كان أبو زينب فرحاً مثل طفل، لم يصدق بعد أنه التقى ماركس وصافح يده، فأصابته نشوة غريبة أفرغها حين راح يقبل الرفيق جبار ويضمِّنه إلى صدره. ثم فتح له باب السيارة وقبله قبلة أخيره..

- رفيق جبار الله عليك تره أنتظركم.

- أو عدك رفيق أبو زينب.

ارتقت السيارة نحو الشارع الإسفلاتي، بعد أن كانت مركونة عند الجانب الترابي، واستدار بها الرفيق جبار نحو الطريق الخارجي، متوجهاً نحو وسط المدينة، ثم حي الزهراء، حيث بيت العم أبو زامل. قال الرفيق جبار لرفيقه ماركس، بأنه سوف يخبر العم أبو زامل بأنك موقد من الأمم المتحدة كعالم أثار، وبدورك، عليك أن لا تطيل أو تعمق الحديث، حين يحاول أبو زامل إثارة أي نقاش معك، فأبو زامل من النوع الفضولي، وسوف يمطرك بأسئلة لا نهاية لها، وأن عرف من أي بلد قدمت، فسوف يستعرض قدراته وعارفه عن العلاقة مع الانكليز والألمان، منذ مجيء فيصل الأول كملك على العراق حتى يومنا هذا.

استقبلهم العم أبو زامل والدهشة ظاهرة على قسمات وجهه المجد. كان رجلاً مشوق القوام، وجه ميال إلى الحمرة رغم علائم الشيخوخة، ويبدو الوقار ظاهراً عليه. يرتدي العقال والковية المرقطة. يلتف على خصره حزام جلدي عريض يضغط على طرفي الزبون الحني البراق.

- هل عمي جبار شلون الأهل، شني هل غيبة، وعدته على العيد الفات أشو ماجيت؟

- والله عمي مشاغل، بس كون عله ثقة، أني ما ناسي موعدى، وأفكـر دائمـاً أجي أشوفـكم، والـيـوم أـنـي چـنـت متـوجهـ

للناصرية بشغل ضروري، بس لكيته فرصة وگلت خلي  
أشوف عمي أبو زامل.

- يا أهلا وسهلا ومرحبا بييك وبصديقك. أم زامل خلي البنات  
يفرشن بغرفة الخطار، اليوم جبار ابن أخيه بيات يمنه، أوياه  
خطار.

- عمي والله أنه جيت بس أشوفكم وأروح.. مكلف بشغله  
مهمة بالناصرية، ولازم أوصله بهذا الرجال، قبل ما يصير  
المسا.

- هاي صايره دايره؟!

- والعباس لوما شغلتي چان بتت يمكم، وصاحبى هذا لازم  
يكون بالناصرية اليوم قبل باچر.

أقترب العم أبو زامل من الرفيق جبار وبصوت هامس  
حدثه.

- أگلاك بويه هذا منيلك.. أشو مو شکول عراقي، يصير من  
غير ديرتنه؟

- لا عمي هذا مو عراقي، ويدگش بالحچي أدگش، وشوويه  
يفتهم بالعربي ويتكلم بس انكليزي.

- چا اشعده بالناصرية؟.

- مكلف من الأمم المتحدة يروح يشوف الآثار.

- ليش ما يگدر يروح باچر.. شنو متوازي يريد يلحك على  
الملك أورنمو من يطلع من گبره؟

- عمی هذوله عندهم الشغل يعني شغل، مو بشكانه تمسلت.
- اي والله عمی صحيح، چا مو أنه جربتهم من أشتغلت وياهم بشركة النفط. أم زامل صبينه الغده الزلم ما ناويه تبقة هوای.

جلس الجميع القرفصاء على سجادة غطت أرض الغرفة، أبو زامل وثلاثة من أبنائه وجبار. لم يملك الرفيق ماركس القدرة على تقليد جلستهم، فأثنى قدماً ووضع الأخرى تحت عجيزته. كانت أنظار أبناء أبو زامل تتجه نحو ماركس، وراحوا يتداولون الإشارات عن هيئته. أحدهم يغمض عينيه ويسدل يده عند فكه مشيراً إلى لحية ماركس، والأخر يشير بيديه لتهلل الشعر، ولم تهداً تلك الحركات والإشارات لحين صرخ بهم أبو زامل.

- شنو سالفتكم.. شواذى.. خوب مو شواذى.. ما تگعدون راحة وتتنزقون مثل الزلم.

لم يأكل الرفيق ماركس غير الشيء اليسير جداً، وكان يجد صعوبة حتى في ذلك. كان أبو زامل يدفع لماركس بقطعة صغيرة من السمك، ويضعها في صحن الطعام الذي أمامه. كان ماركس يركز نظره نحو يد أبو زامل، وهي تعبث بجسد السمكة وبباقي صحون الطعام، ليقوم بتوزيع ما يريد على الجميع، ثم يأخذ بمص أصابع كفه بصوت مسموع. أحس ماركس بثقل يعتصر صدره، وشيء من الغثيان ووجع حاد في

معدته. شيء من رغوة تندفع من أسفل معدته إلى أعلى ثم ترتد، شعر برغبة في التقبؤ، فطلب من جبار أن يدخله على المرافق الصحية، فأرشده جبار عليها. واجهته هناك مسألة عصية على الحل، فتوقف قرب الباب ناظرا إلى الفتحة التي تتوسط مستطيلاً مقعرأً قليلاً. لم يفقه الرفيق ماركس كيف يمارس المرء الاستفراغ في مثل هذا الوضع، فشعر بفورة من شيء حامضي تصاعد نحو حنجرته، عندها دفع ماركس رأسه نحو الأمام، وأفرغ معدته من كل ما تناوله منذ الصباح حتى اللحظة.

## الناصرية الوجهة الجديدة

حدث الطريق بين الرفيقين، وهم ما يتوجهان إلى محافظة الناصرية، تناول وضع مدينة النجف وقبابها الذهبية والسياحة فيها. وابتعد ماركس عن التطرق لما كان عليه حاله، أثناء وجية الغداء في بيت أبو زامل. بدوره استطاب الرفيق جبار الحديث، فراح يستعرض براعته في شرح، ما يعرفه من معلومات عن مدينة النجف، تأريخها وحواريها وأزقتها وسكانها وقبائلها، ثم عرج، وب الحديث مسهب، يستعرض حكاية الحكام الفعليين للمدينة اليوم، وكيف تدر السياحة الدينية مبالغ مهولة على خزينة المحافظة، وأيضاً هناك أموال الزكاة وغيرها، لكن المدينة بقيت، حالها حال باقي المدن الدينية في العراق، دون عناية واهتمام. ينتشر الجوع فيها، وتغمر أزقتها النفايات، وخراب البنى التحتية والعشوائيات ظاهرة عامة، وانعدام الخدمات الصحية وغيرها، وقاده الحكم فيها يمعنون في الاستحواذ على الأموال، ويشعرون الصراع السياسي والشخصي بينهم، للتمويه على ما يقترفونه من سرقات. ثم وبنوع من الفخر تحدث الرفيق جبار عن الأمام علي بن أبي طالب، مسمياً إياه أب الفقراء والاشتراكي الأول، معدداً مناقبه ومستعرضاً بعض أقواله. كان الرفيق ماركس صامتاً ساكناً ساهماً، وكأنه في حومة من تجلي تاركاً للرفيق جبار ما يلذ له

من حديث، وبدوره أخذ جبار ينتقل من موضوع لآخر، لحين اقترابهم من المدينة التي ظهرت معالمها عن بعد.

- راح نوصل مدينة الناصرية. أني طولت بحديثي، وربما ولد ذلك بعض الضجر لديك؟

- لا قطعاً، كان حديثاً شيئاً سوف أحافظ من خلاله ببعض الملاحظات أقدمها، لك وعليك أن تجيبني عنها لاحقاً.

- جيد رفيقي العزيز.

خفض الرفيق جبار سرعة السيارة وأخرج هاتفه الجوال وضغط على بعض أرقام، ثم جاء الصوت من بعيد.

- نعم رفيق جبار.. هلـه ومـيت هلـه... هـاي إـنتهـ وـينـ...؟

- أني ورفيق ماركس قريباً راح نوصل الناصرية.. أعتقد ما يحتاج تجي ويه الرفاق حتى تتلـگونـه.

- بكـيفـكـ رـفـيقـ.. السـيـطـرـةـ رـاحـ يـطـلـبـونـ منـكـ كـفـيلـ منـ المـدـيـنـةـ.

- هـايـ شـنوـ.. شـغـلـهـ جـديـدـهـ.. لـيشـ شـنوـ النـاصـرـيـةـ صـارتـ أـقـلـيمـ؟

- هـايـ بـلاـتيـقـ مـجـلسـ الـمـحـافـظـةـ.. يـگـولـونـ يـخـافـونـ عـلـىـ آـمـنـ المـدـيـنـةـ.

- عـلـىـ أـيـ حـالـ رـاحـ أـدـبـرـهـ وـإـذـاـ ماـ دـبـرـتـ، اـتـصـلـ بـيـكـ تـجيـ تـتكـفـلـهـ.. بـالـمـنـاسـبـةـ حـجزـتـ قـاعـةـ لـلـقاءـ باـچـرـ؟

- رـفـيقـ لـاـ يـهـمـكـ كـلـشـيـ جـاهـزـ.. فـدوـهـ لـكـلـبـكـ، سـلـمـلـيـ عـلـىـ

رفيقنا كارل ماركس، وَكُلُّهُ الشَّبابُ عَلَى لِهْفَةِ الْقَائِمِ.

- صار رفيق.. وهو هم يسلم.. أوكى حببى أبو الشباب إلى اللقاء.

اقربت السيارة من نقطة التفتيش، فأشار العسكري بيده وطلب من رفيق جبار التوقف، ثم اقترب من نافذة السيارة، وسأل من أي مكان قدمتم فأجابه الرفيق الجبار من بغداد.

- شعدكم جايبن للناصرية؟.

- زیارت لگر اپنے

- عدم تصريح بالزيارة.. يعني هناك أكوا واحد يكفلكم حتى تدخلون المدينة؟

- شنو احنه نحتاج لمثل هذه الكفالة.. احنه عراقيين.

## - أعرف خالى انتم عراقيين..

قال ذلك وهو يركز نظره على الرفيق ماركس، الذي بادله النظرات وابتسمة مودة ترتسم على محياه.

## - أی وھستہ ماراھ نروح؟

- لا خالی ما تگدرون إذا مو كفیل..

- كفیلہ اللہ و رسولہ ..

- خالي لتاح.. ومو وكت شقه.. أطبگ على صفحة وانزل  
من السيارة

- ليش؟

- سمعت شني گتلک.. لتخليني أسوی غير شي.

- شنو تسوی.

- استغفر الله.. بویه ما تطیني هویتك.

مد الرفيق جبار يده وسحب محفظته من جوار كابح السيارة اليدوي، وبحث داخلها ثم اخرج هوية سلمها إلى العسكري، الذي ما أن طالعها حتى وقف بالاستعداد وتسمر مكانه، وكأنه مس بتيار كهربائي. تبیست يده، وبالكاد وبارتعاشة ظاهرة أعاد الهوية وهو يتطلع إلى وجه الرفيق جبار قائلا.

- العفو سidi.. العفو.. ما چان قصدي.. تعرف التعليمات سidi.. أنه أقوم بواجبي سidi.

- ما صار شي إبني.. زين تسوی.. الواجب أهم من كلشي.

- تفضل سidi الله وياكم.. محروسين سidi.

أعاد الرفيق جبار الهوية إلى مكانها في المحفظة، وودع العسكري بابتسامة رضا وتمنى له مساءً طيباً. كان العسكري يقف متخفياً جوار السيارة، وفجأة تفوه بصوت متهدج متسلٰ، موجهاً كلامه للرفيق جبار، فضغط الرفيق جبار على كابح السيارة وراح يستمع لحديث العسكري.

- سidi رحمة لوالديك..

- گول إبني شترید..؟

- سidi أروحلک فدوه.. لو تگدر تساعدني.. سidi أني

مظلوم وأمي مظلومة، وما ادرني شنو أسوبي.. سيدتي انه ما  
أريد أكلاك ماكو راتب صار شهرین.. بس انه من أهل الحلة،  
وصارلي سنتين ونص هنا بالناصرية، وأمي تعيش وحدها،  
ويردون يشيلونها من بيته، يگولون هيء ساكنة بالعشوائة..  
سيدي الله يجعلك بكل خطوه سلامه انته تقدر تساعدنی، أني  
ما معترض، وأكدر أبغه هنا طول عمري، بس أمري سيدتي..

- انطيني أسمك ورتبتك والفوج والفرقة التابع لها، ونشوف  
شنگدر انسوی، ها ولتنسه تنطيني عنوان بيتم بالحله.

سحب الرفيق جبار دفتر ملاحظات صغير وقلم من صندوق السيارة الداخلي، وطلب من العسكري المعلومات وراح يدونها في دفتره. تعذر على العسكري تقديم عنوان دارهم، كون المنطقة غير مدرجة في سجلات بلدية مدينة الحلة كمنطقة سكن، ولكنه قدم للرفيق جبار وصفاً عن المنطقة، وسماها بستان الحلو. كان الرفيق جبار يهز رأسه مبدياً اهتماماً ظاهراً بتلقي المعلومة.

- إن شاء الله من أرجع أشوف شنو أكدر أفيدك.. ادلل  
أبني... بس حافظ على واجبك وخليلك متيقظ.

تحركت السيارة بهدوء متوجهة صوب الشارع الخارجي المفضي إلى مدينة الناصرية.

- الله ويأكم سيدى محروس بأبو الفضل العباس سيدى.  
كانت عنا الرفقة ماركس طلبة الوقت تدوران في

محريهما، وعلامات الدهشة والتساؤل باديتان على وجهه. لذا لم يترك الأمر يمر دون أن يبادر بالاستفسار عن الذي حدث.

- ما الذي حدث وجعل العسكري بتلك الهيئة من الارتباك وهو يطالع هوبيك، ثم يطلب منك مساعدته.

- لا تشغل بالك رفيقي العزيز فلكل مقام حديث، ولسوق مريدي جاذبية لا تضاهيها جاذبية الأرض.

- رفيق جبار منذ اليوم الأول وأنت تتحدث معي بالألغاز.. أفصح عن ما تقوله وتفعله أرجوك.. ألسن شيو عياً ثوري؟؟

- نعم رفيق لن تجدني غير شيوعي من الطراز الأول.

- ومع هذا تستخدم معي بالألغاز والأحاجي.. مرة شاطي باطي والآن سوق مريدي.. من تراني، لأكتشف ماذا عنيت بقولك سوق مريدي؟.

- ما ضام عليك شيء ومراح أضم.. رفيقي العزيز.. سوق مريدي هو سوق شعبي يقع في إحدى مناطق بغداد الفقيرة، وفيه تجري عمليات تزوير واسعة لمختلف الوثائق الرسمية الحكومية وغير الحكومية، والهوية التي قدمتها إلى العسكري كنت قد عملتها في سوق مريدي.

- أتسمح لي بمعاينتها؟

- نعم رفيق.

أخرج الرفيق جبار الهوية من المحفظة وسلمها إلى كارل ماركس الذي أطلق زفيرًا قويًا متقطعاً وهو يقرأ محتوى الهوية

- هذا يعني أنك برتبة عقيد في ديوان رئاسة الجمهورية..  
هل هذا صحيح؟

- رفيق مثلما كتلك هاي هوية مزورة.  
- وكيف تسمح بذلك وأنت الشيوعي، مثلما تدعى.

- رفيقي العزيز في العراق اليوم ماكو فرق أبين هذا  
وذاك.. إن لم نأخذ هذى الطرق فسوف تأكلنا حتى الجريدة،  
وليس القلط السمان فقط. وكل حال مخرج، وإن لم نفعل هذا  
فلن ندخل مدينة الناصرية وغيرها.

- ولكنك خدعت الرجل ووعده زوراً.

- كلا رفيقي العزيز.. ما چذبت عليه. لدى الكثير من  
الأصدقاء في جميع الوزارات العراقية، يمكن بواسطتهم حل  
مشكلة هذا العسكري المسكين.

غرق الرفيق كارل ماركس بصمت تمام وراح يطالع الأفق  
دون تركيز أو اهتمام بما يظهر أمامه، شعر بأن هناك ما هو  
غامض في هذه الرحلة، وهؤلاء الذين قابلهم وتحدث معهم،  
باتوا يوحون له بغير ما يظهرون. شعر بغرابة المواقف  
والأحداث التي تكررت منذ أول لقاء في مطار بغداد، ومن ثم  
اجتماع الفندق، وخروج سامر وتهديداته، وتعابير وحركات  
الرفيق جبار، كل هذا يشي بالشك والريبة. وتساءل مع نفسه إن  
كان يستطيع إكمال الشوط بمثل ما يريد وما خطط له، ومن ثم  
يعود إلى لندن بحصيلة من النتائج المفيدة. وما النفع الذي  
يستطيع تقديمها لهؤلاء الأوباش؟. ضحك في سريرته وهو

يطلق عليهم تسمية الأوباش، أعتقد أنهم لا يستحقون مثل هذه التسمية، فالأوضاع فرضت عليهم أحكامها فرضاً، وهم لا يملكون القوة لتغييرها، بل يحاولون تطويق ذواتهم وتدرجين أنفسهم داخلها، هكذا ورد في خاطره. فجبار يتعامل أحياناً مع الآخرين برقة وروح رفاقية عالية، ويحنو عليهم ويقدم لهم المساعدة، وفي ذات الوقت نراه يتعالى، مانحاً نفسه مكانة علياً، ومقدماً ذاته على الآخرين، ويلعب معهم دور المتسلط أو المعلم مع تلامذته.. يبدو أنني أمام نموذج لسلوك محير، لمسته أول الأمر في المطار، مثلاً تكرر عند بعض رفاق جبار، فالجميع يستخدم ألفاظاً مبهمة وسلوكاً يوحى بالغرابة، ويفتعلون القوة رغم مشاعر الخوف وعدم الثقة.

- تفضل رفيق هسه وصلنا.

توقفت السيارة أمام دار طلي بابها الخشبي بلون أزرق فاقع. والجدار الخارجي للبيت تساقط عنه الكثير من غطائه الأسمنتية، فظهرت بعض أحجاره الكالحة اللون، جراء الرطوبة والأملاح، وبدا منظره وكأنه مرقاً بخرائط لجزر صغيرة، تنتشر فوقه بعثية. جوار الباب وقف رجل أسمرا البشرة، بوجه حليق مليح يرتدي بيجامة رصاصية اللون بخطوط طولية خضراء، يلوح بيده وترتسم على وجهه ابتسامة عريضة.

- هله ومية هله بالرفاق.. هله والله.. زارتنه البركة.. صدگ بويه چذب.. ماركس ابيباتنه.. او يوم المبارك عليه وعلى الناصرية.. لا بويه موبس على الناصرية.. على العراق كله..

## هل ومية هل..

ثم سحب ماركس وأخذه بالأحضان، وراح يقبله في موجة من القبل السريعة المصحوبة بصوت يشبه الفرقعة، ويردد.. هله وميته هله.. هله بالزین النشمي. لم يفعل الرفيق ماركس شيئاً، بل عاف جسده للأيدي الثقيلة، التي كانت تلف حوله وتعتصره بقوه.

استطاع الرفيق جبار بشيء من الجهد، سحب الرفيق ماركس من أحضان الرفيق أبو نداء وأبعده بضع خطوات.

- رفيق ماركس.. الرفيق أبو نداء من رفاقنا القدماء، ونحن نعتز بوقفاته الثورية مع الجماهير المسحوقه، وكان منذ فترة طويلة نواة لتجمعنا في هذه المدينة الباسلة.

- أهلاً وسهلاً بك رفيقنا أبو نداء.. نداء، ياله من اسم جميل.

- أهلاً وسهلاً بالرفيق ماركس..

- نعم رفيق ماركس اسم نداء يجلب الخير، ويبعد الضرر عن الناس. ولعب بينه شاطي باطي بيوم النداء بالكويت.<sup>(1)</sup>

هكذا تكلم الرفيق جبار معقباً.

- ها رفيق جبار بدأ رحمة الله.. اي هذاك يوم وهذا يوم... تره چنه مجبورين.

- صحيح أبختي وحظي صحيح.. مجبورين.

- اي هسه دفوتو جوه حتى تستراحون.. وبعدين شغل

<sup>1</sup>) يوم النداء هو الاسم الذي أطلقه صدام على يوم غزو الكويت.

بساميرك رفيق جبار.

كانت نظرات الرفيق ماركس تتنقل بين شفاه الرفيقين، في محاولة لفهم الحوار الدائر بينهما، وفي الوقت ذاته كان يفكر بكلمتي شاطي باطي، التي تكررت أمامه مرة أخرى، ولم يجد لها تفسيراً. يا ترى لم يستعملهما الرفيق جبار بهذا الشكل المفرط، وماذا تعني عنده. كان هذا السؤال الأول، الذي بادر بطرحه الرفيق كارل ماركس على الرفيق جبار، وهم يجلسون عند طاولة الطعام، التي أعدت لهم في بيت الرفيق أبو نداء.

- رفيق ماركس.. خل نتعشى أولاً وبعدها أشرح لك شنو الشاطي باطي.

- رفيق جبار.. لن أتناول ملعقة طعام واحدة إن لم أجده هناك جواباً شافياً عن الشاطي بالطبي.

- كن على ثقة رفيقي العزيز أنه معنى مجازي، لا يستحق منك كل هذا التفكير والتطيير والضجر.

- حتى ولو.. عليك الآن الإفصاح عنه، إن أردت مني مشاركتكم الطعام.

- أيباه.. الرفيق ماركس غير عنودي.. وصعب جداً.. مثل كتبه.. مو سهل واحد يفهمه، أقره بيها ليلاً ونهاراً وأريد أدبر حالياً ويأبهه وما أقدر.. تجيبني منا وتوديني منا.. أيباه شگد صعب رفيق ماركس حتى بالأكل.

قال ذلك الرفيق أبو نداء، ثم أطلق ضحكة خجولة وهو يطالع وجه ماركس الذي راح بدوره يحدق بالرفيق جبار،

وتقطيبه ظاهرة ترتسم فوق جبينه.

- رفيقي العزيز.. لا بأس سوف أشرح لك الأمر..أولا الشاطي باطي وليس الشاطي بالطي.

- ليس لذلك أهمية، المهم ما يعنيه؟

- الشاطي باطي هو تعبير عن خلط في الأمور، وترميز عن فعل الإيذاء. أي أن الواقع السيئة والأحداث الخطرة والجرائم الكبرى والآثام والخدع ونذائر الشؤم والمصائب والحروب والموت المجاني والقط والجوع والأمراض والعوز وانعدام الخدمات، كلها اجتمعت على العراق وشعبه بسبب وأخر، وفعلت فعلها المؤذي، ونحن نختصر كل هذا الإيذاء، في تأويل مجازي هازل للمحنة، لقول لعب بنا الدهر والدنيا شاطي باطي.

- رفيق جبار فدوه أروحلك، تگدر تعیده مره لخ بشكل بطيء، تره شويه صعبه عليه.. ما افتهمت شنو گات..

هكذا بادر الرفيق أبو نداء بالاستفسار والطلب.

- هاي شنو رفيق أبو نداء دا تخجلنه يم الرفيق ماركس. صمت ماركس وتناول الملعقة وراح يبعث بصحن الرز الذي وضع أمامه.

يا للتهويل الموحش، الذي سطره الرفيق جبار. إنه يدعم قناعاته، بدوافع الخوف والضيق والميول غير الواقعية، بحوادث تقتربن بمسبات، ولها نتائج يمكن أو من غير الممكن ردعها، وهي ليست مستحيلات، ولكنها تبقى حاضرة، وللإنسان

إمكانية السيطرة عليها، عبر قدراته على التغيير. ليس هناك من أمر جبri في هذا الكون، ويبقى الخيار الإنساني في المقدمة، وهو من يبتكر الكثير من الطرق، التي تقف في وجه جميع تلك المصائب، وعلى الأقل التقليل من حدتها أو الحد منها. ولكن الملاحظ وحتى في حادثة ليلة البارحة الظلماء، أن هذا المجتمع يعيش على قاعدة القدرية والاستسلام أو الرضا عن الواقع، وبما تجود به المصائب، دون مبادرة لردعها.

- ماذا رفيق ماركس.. أراك بغير شهية للطعام؟

- يجوز عشانا ما يعجبه، لو ما متعود يأكل تمن ومرگه بالعشاء.. رفيق تره إحنه على گد حالنه.

- كلا أيها الرفاق الأعزاء.. لا عليكم فلنبدأ بالأكل.. شكرًا لك رفيق أبو نداء.

## هناك حيث العشوائيات

كانت الليلة مقلقة بل ثقيلة ومتعبة جداً، أبعدت النوم عن عيني ماركس. فالرطوبة في الغرفة مرتفعة، شعر معها بضيق تنفس، وثقل كبير يرقد فوق صدره العليل أصلاً. كان للحشرات القارصة وصرصرة الصراصير حضوراً طاغياً، هذه الحشرة الغريبة في طباعها وحياتها، ذكرته بمدرسة ترير العليا، التي كان يديرها صديق أبيه هوغو فييتباخ، حيث تعرف هناك على الطالبة ماجدولين الظرفية، كانت تسبقه بعام دراسي، وكانت شغوفة بالبحث عن الصراصير، في جميع زاوية من زوايا المدرسة والأقسام الداخلية، لتضعها في زجاجات بأغطية مثبتة، وتقدم لها الطعام المناسب، وتجلس ليلاً تتنصل أصواتها. كانت تشعر بالزهو والغبطة، حين تأخذ بوصف النغمة الليلية التي تصدرها تلك الحشرة. وتأخذها نشوة لذة وافتخار، وتترفرج أساريرها بفرح غامر، وكأنها تريد إقناع الآخرين بانتمائها الكلي والمطلق لعائلة الصراصير. ثم تقوم بتقديم المعلومة برضاء وقناعة تامة، عن قدرة تلك الحشرات العيش دون طعام لمدة شهر كامل. وحسب دراستها لحياة هذه الحشرة، تقول إن الصرصور، يستطيع أن يتوقف عن التنفس لمدة 45 دقيقة دون تأثير على حياته، كذلك يستطيع العيش دون

رأس لمدة أسبوع. كان البعض يهزاً من تلك المعلومات، والأخر لا تهمه الموضوعة من أساسها، فالحديث يتعلق بحشرة ليست بذات قيمة، أو كريهة ومقرفة له. ولكنه بعيداً عن كل هذا الغط، كان يتقبل طروحات صديقه على علاتها ليضيفها لمعلوماته، رغم ما يساوره من شك أحياناً. ومع هذا كان يثق بمجدولين جداً، كونها طالبة جادة ومتقدمة في الدروس. حين انتقل إلى جامعة بون وهو في السابعة عشرة، نسي صوت الصراصير، ومعها ابتدأ مجدولين واقفاصها الزجاجية عن تفكيره، ولكنه وجد الحشرة هذه حاضرة الآن، بشكل مفزع وقريب. يسمع أصواتها، وكأنها صافرات إنذار أو نوافيس تطرق رأسه، لا بل شعر وكأنها تسكن بين طيات الفراش أو تدب وتتنط بين طيات ملابسه.

سهد ماركس يتنقل من موضوعة لأخرى. ومن خلال استحضار أحداث الماضي، وكذلك التفكير بما ستؤول عليه الأوضاع في لقاء الغد، حاول إبعاد ذلك الطنين وإهمال ما يتعرض له من لسع الحشرات، وضغط رطوبة الهواء على صدره. لم تغمض له عين، وعجز عن التوطن داخل هذه الغرفة الساخنة الرطبة، وبدأ الإرهاق يأخذ منه وطراً ليس بالقليل، ففتح ضلقة النافذة المطلة على الزقاق. كان الظلام تماماً في الخارج. القمر اختفى كلياً، وكأن السماء أفرغت من نجومها تماماً، فبدا الزقاق في عتمة مفزعة. تذكر ماركس حادثة الفندق ليل البارحة وصرارخ أبو شمخي، فضحك بسره، ولكنه وجه لنفسه مرة أخرى بعض اللوم على ما حدث. شيء من نسيم بارد تسلل بخفة عبر الشباك، جعل ماركس يشعر

بعض راحة، فجلب كرسيًا وجلس جوار النافذة، بعد قليل أحس بالخذر يدب بجسده والنعايس يطرق جفونه.

عند العاشرة صباحاً، وبشيء من العجالات تناولوا الفطور، وخرجوا من الدار بصحبة أبو نداء، الذي أخبر الرفيق جبار عن مكان اللقاء، فتوجهوا بالسيارة نحو وسط المدينة، ثم انحرفوا إلى الشمال حيث حي الطنطالة. ضحك الرفيق جبار وهو يستمع لهذه الكلمة، وسأل الرفيق أبو نداء عن هذه التسمية الغريبة.

- رفيقي.. لأن هذي الأرض أصلاً چانت مقبرة مهملة، وأجو الناس وبنو بيوتهم فوگاها، والناس بسبب واقعهم البائس وقسوة حياتهم اضطروا للبناء و السكن هناك، ومن خوفهم واعتقاد البعض منهم بروية أشباح تتجلو ليلاً بين البيوت، لذلك سموه حي الطنطالة..

- يالها من مفارقة غريبة.

- يا غرابة رفيقي.. تصدق عدنه هناك حي لاخ بمدينتنا يسمونه حي الزراب، أي الغائط ويعني فضلات الإنسان حاشاكم.<sup>((1))</sup>

- لا.. لا بربك.. ما اصدق.

- من أخلص اللقاء أخذك ونروح هناك.

- بس رفيق إنته گتلي راح تحجز قاعة للجتماع.

<sup>1</sup> حي الطنطالة وهي الزراب مناطق سكن عشوائية حقيقة أنشأها القراء قرب مدينة الناصرية.

- رفيق الوضع بقاعة وبنص الولاية مو أمان، يروح يضربوه بقبله صوته مثل ما سووهه بحفلة حسين نعمه.

- أها هيچ.. خوش.. زين سويت رفيق.

كان ماركس صامتاً لا يصدق ما يسمع من حديث. تذكر الإحصائيات والقواعد والمعلومات التي استقاها من بعض الأصدقاء في لندن، وكذلك التي قدمها له الرفيق جبار، عن واردات العراق المالية وتشكيلات الإدارات الحكومية وأوضاع الطبقة العاملة، وحالات البلد من الخدمات. فتساءل مع نفسه، وهو يشاهد وضع البيوت المتداعي، والأزقة المترفة المليئة بالحفر والنفايات داخل العشوائيات، فتساءل أين تذهب تلك الواردات الهائلة وعلى وفق أية شاكلة يتم أنفاقها.

توقفت السيارة جوار بيت يبدو حاله أفضل بكثير من باقي البيوت المجاورة له، وطلب أبو نداء أن يترجل الجميع لاستطلاع مكان لقاء الرفاق بالرفيق ماركس. دفع الرفيق أبو نداء الباب ودخل دون استئذان، فسمع صوتاً نسائياً صادراً عن الداخل.

- ها يمه أبو نداء.. تفضلوا هله بيكم.. تره عبيس بعد شواي ويجي.. هوه وصاني بيكم من قبل يوم.. وأنه جمعت شكو كراسى عد الجيران وصفطهن بغرفة الخطار.. هله بيكم خاله ومرحبه.

- تسلمين أم جواد والله يوفق، ويوم نوكفلج بعرس حببنيه أخونا عبيس.

- ها أم جواد حنیتی لیوم عرسج..

- لا يمه هذا يوم وراح وبعد ما يرد.. بس شسوبي أريد أفرح  
بوليدي الزغير.. أشو عبيس يطارد مثل الحصان، وماكو نثية  
تلحمه

- وسفه والله وسفه.. تره من ينلجم وتربطه المره.. بعد  
متشوفين من خيره

- بس کون أشوفه سعید، هم مخالف. یمه أرید أفرح  
بفر و خمه

- گولي إن شاء الله . خاله أم جواد بدون زحمة سوي琳ه  
چاپات، وأحننه راح نطب ونگعد بغرفة الخطارات.

- تدللون پا بعد طوایف خالتک . هذا بیتكم یمه.

دخل الثلاثة غرفة الضيوف من بابها المطل على الممر الخارجي. أخذ ماركس ينظر لما حوله، حيث وضع بشكل عاشر عدد كبير من مقاعد متعددة الألوان والأشكال، وبعضها متهالك يبعث على الأسى. فوق الجدار المواجه للنافذة العريضة، علقت صورة كبيرة ملونة لشخص يرتدي غطاء رأس أخضر، وتغطي جسده الضخم عباءة بنية اللون، ويجلس القرفصاء على الأرض، ويضع سيفه المشطور وسط حضنه، وجواره قبعت ثلاثة أسود ضخمة مستسلمة لقوه ارادته

وسطوته الظاهرة.

جلبت انتباه الرفيق ماركس تلك الطلة البهية والعيون الذكية الجميلة الواسعة لصاحب الصورة، فراح ينظر فيهما بتمعن. وقال في سره، لقد أجاد الرسام في إيصال تأثير الصورة على المشاهد. تلك اللحظة طلب الرفيق جبار من الرفيق ماركس الجلوس قرب باب الغرفة، وراح والرفيق أبو نداء يعيد ترتيب المقاعد، وهو يندنن بأغنية خطرت على باله الآن. طالع الرفيق جبار ساعته، ثم سحب كرسياً وجلس جوار الرفيق ماركس. دخلت أم جواد وبيتها طبق نحاسي فوقه ثلاثة أقداح شاي.

- ما هذا؟ قال كارل ماركس بدهشة.

- هذا شاي.

- عجيب وبهذا اللون الفاحم؟

- الجماعة هنا يحبون تناوله بهذا الشكل، أيضاً هناك مصيبة، فالشاي توزعه الحكومة مع الحصة التموينية الشهرية، وهو مغشوش أي مخلوط بالخشب المحروق.

- واو! ما هذا الفعل القذر؟

- لو حدثتك بما تمنحه الحكومة، وتوزعه شهرياً على الناس لجزعت أكثر..

في تلك الأثناء سمع طرق على الباب الخارجي، فذهبت أم جواد لترى الطارق.. سمع ترحاً للمرأة بالضيوف، فدخل ثلاثة أشخاص، كان أحدهم يرتدي ثوباً فضفاضاً ويضع على

رأسه كوفية وعقل، والأخران يرتدان البنطال وقميصاً بنصف كم.. استقبلهم الرفيق أبو نداء عند باب الغرفة، وتبادل معهم القبل، ثم دخل الجميع وتوجهوا مباشرة نحو الرفيق ماركس وحيوه بحرارة، ثم جلسوا قربه يتلمسون ويتبادلون الابتسamas. توالى قدوم الرفاق، حيث جاء خمسة منهم، ثم تبعهم خمسة آخرون، ولحقهم بعد ذلك سبعة.

فجأة دخل الرفيق عبيس. دفع الباب الخارجي بقوة وهو يصرخ بصوت عالٍ، تصاحبه ضحكة مجلجة.

- أم جواد.. يمه.. فدوه أروح لهذيج الكصايب الحلوة، والرصعة والخدود الحمر.. وين الغده يمه.. راح أخرب من الجوع.

- يمه عبيس رباعك إلتمو..

- أفعه.. عيوني رفاق اعتذر، حسبالي بعدكم ما جايin..

تقدم عبيس وصافح ماركس بحرارة، وقبله من وجنتيه بقلتين صوتتين سريعتين، ثم اتجه نحو رفيق جبار وضمه بقوة إلى صدره، وراح يقبله بقوة وشوق ويقول.

- هذيج الليلة ولا تنسى رفيق جبار.. طعمها بالحلّ<sup>گ</sup> ليهسه.. چانت ليلة ليلاء مثل ما يگول رفيق شكر.. عاشت الناصرية حرقة ديمقراطية، تحت نير الظلم والاستعباد..

ثم أطلق ضحكة قوية، ضج معها الجميع بالضحك، الذي استمر لوقت غير قليل، كان فيه ماركس يطالع الوجوه بدهشة ظاهرة وبغيض مكتوم.

- رفيق لا تتعجب، فالجميع يعرف نكات وفتشات رفيق عبيس.. في كل مرة وبعد أن يتناول الكثير من الكحول، يأخذ بالهتاف الذي اعتاد عليه.. عاشت الناصرية حرة ديمقراطية، تحت نير الظلم والاستعباد، والذي يصرخ به، بعد أن يشعر بدبيب الكحول يسري بجسده بقوة، ثم بعدها يغفو عند أقرب كرسي.

هز ماركس رأسه وأغتصب ابتسامة خفيفة، أراد بها إظهار اقتناعه بحديث الرفيق جبار.

- هل نبدأ رفيقنا العزيز؟

- أنتم تقررون ذلك لأنكم أصحاب الدعوة.

- حسنا رفاق سوف نبدأ.. أرجو من الجميع الجلوس.

- رفيق جبار ولا يهون رفيق ماركس.. أكدر أكل لگمة طعام زغironه وأجيكم بعدين.. تره ميت من الجوع..

- أوكي رفيق عبيس.. بس لا تتأخر.

- أوكي ورحمة الله وبركاته.. عيوني.. طلقه.

\* \* \*

وضع الرفيق جبار أمامه منضدة صغيرة، وجلس والرفيق كارل ماركس خلفها، وجلس باقي الرفاق قبالتهم فوق المقاعد، التي رصفت على طول الغرفة.

- تحية أيها الرفاق الأعزاء، وشكرا لحضوركم الجميل،

يقول الرفيق دريدا<sup>(1)</sup> إنه ليس هناك ثمة مستقبل بدون ماركس، وإننا سوف نرى تفوياً شعبياً للاشتراكية في المستقبل. هذا بدأ الرفيق جبار حديثه، لإدارة الندوة، وتقديم الرفيق ماركس للمجموعة. ثم أضاف.

- الواقع إن هناك وبعد حدوث الأزمة الاقتصادية في العالم الرأسمالي، شعر الناس بأن هناك عودة قوية لماركس والماركسيّة. أشار دريدا مثلما آخرون، إلى كون تاريخ العالم وحقبه العديدة، ما كانت لتخلو من شبح الشيوعية الذي يتجلّى داخلها.. ونحن يا رفاقنا، وإثر هذه الأحداث العالمية، التي انعكست بدورها على واقعنا العراقي، طلبنا من رفيقنا كارل هانريش ماركس، الحضور للاطلاع على أوضاع العراق، وبناء تصور معرفي حقيقي، عن الحقبة التي يعيش بها أبناء شعبنا، ثم تقديم ما ينفع من حلول لأزماتنا إن صح التعبير.

- رفيق جبار ممكِن سؤال بروح أبوك؟

بصوت خشن وبحة واضحة سأل صاحب الكوفية والعقال.

- بعدين رفيق أبو مزعل.. الأسئلة بعدين.

- لا رفيق چا تريد السالفة تعبر وأنا ما مفthem منها شي.

- خوش رفيق.. تَگدر تسأل بعد ما أخلص.

<sup>1</sup>) دريدا فيلسوف فرنسي من مواليد الجزائر، صاحب نظرية التفكيك. تعتبر فلسفة دريدا، ما بعد الحداثة عامة تفكيكا للنماذج المعرفية التي افترضت وجود غائية وافتراضت من ثم مصدرا متعاليا للمعرفة، يقرر المعنى، الحقيقة، القيم، وبالتالي السلطة.

- إِي شُنِي سَالْفَتُك.. لِيشْ مَا تَقْبِل.. مُو أَكْلَكْ رَاحْ تَفْلَتْ مِنِي  
حِچَايَاٰتُكْ إِذَا مَا أَسْأَلْ؟
- شُنُو رَفِيق.. بَسْ أَخْتَصِر.
- رَفِيقْ هِيهْ جَلْمَهْ گَلْتَهَا أَنْتَهْ وَدُوكْتَنِي بِبِهَا..
- شُنُو هِيه؟
- هَذَا دُورِيدْ مِنُو.. مِنْ طَوَافِنَا لَوْ هُمْ أَجْنَبِي؟
- أَهَا.. تَقْصِدْ دَرِيدَا.. رَفِيقْ هَذَا اسْمَهْ جَاكْ دَرِيدَا، فِيلُوسُوفْ فَرَنْسِي مِنْ مَوَالِيدِ الْجَزَائِرِ، وَهُوَ صَاحِبُ نَظَرِيَّةِ التَّفْكِيَّكِ.
- شُنِي تَفْكِيَّكِ.. چَا هِيهْ صَارَتْ مَكَائِينْ وَبِرَاغِي.
- ضَجَ الرَّفَاقُ بِالضَّحْكِ وَسَادَ بَيْنَهُمْ جُو مِنَ الْمَرْحِ.
- عِنْدَهَا تَدْخُلُ مَارْكَسُ، وَطَلَبَ مِنَ الرَّفِيقِ جَبَارَ الْحَدِيثِ، لِيُوضَعَ لِلرَّفِيقِ السَّائِلِ مَنْ هُوَ جَاكْ دَرِيدَا.
- رَفَاق.. دَرِيدَا فِيلُوسُوفْ طَرَحَ فَكْرَةَ الصَّعُوبَةِ فِي فَهْمِ اسْتِرَاتِيجِيَّاتِ النَّصِّ دُونَ تَفْكِيَّكِهِ، حِيثُ يَكْمَنُ فِي طَبِيعَةِ الْفَلْسَفَةِ الْعَلْمِيَّةِ، وَفِي مَتْنِ النَّصِّ ذَاتِهِ هَذَا التَّنَاقْضُ، وَجَاكْ دَرِيدَا أَرَادَ اسْتِجْلَاءَ هَذَا الْخَطَابِ، لِتَفْكِيَّكِ اسْتِرَاتِيجِيَّاتِ النَّصِّ، لِإِثْبَاتِ تَنَاقْضِ نَمُوذِجِ النَّصِّ ذَاتِهِ.
- رَفِيقْ لَوْ خَالِهِ عَلَى سَكَفِ الْعَامِ أَحْسَن.. بُويِهِ بَطَلتْ مِنِ السُّؤَالِ.
- لِمَذَا رَفِيقْ أَلمْ تَسْتَوْعِبُ ذَلِكَ؟

التفت الرفيق جبار وهمس بأذن الرفيق ماركس، أن دع  
الأمر لي، ولا حاجة لك بالرد أو الشرح لحين ما ننتهي.  
فجأة دخل الرفيق عبيس مسرعاً دون أن يطرق الباب،  
ووقف وسط الغرفة بين الرفاق ثم راح يلوح بيده وأخذ  
بالإنشاد:

كضيناهما مشي على النار  
واليسحـك جمر شيسير بـجـدامـه  
كـضـينـاهـن سـهـرـ وـالـنـوم طـبـعـ الذـيـبـ  
عينـ وـعـيـنـ ما تـتـفـرـزـنـ أحـلـامـهـ  
وكـضـينـاهـنـ رـكـضـ مـتـعـوبـ  
كلـمـاـ يـهـمـ روـحـهـ أـيـطـيـحـ  
ما يـلـحـكـ الجـدـامـهـ  
هو المـالـكـهـ الزـادـ الـيـسـدـ الجـوـعـ  
گـوـهـ أـيـفـوتـ بـصـيـامـهـ<sup>(1)</sup>

عاشت الشيوعية العالمية.. عاش العراق.. عاش الرفيق  
ماركس.. فلتحيا وحدة الطبقة العاملة العالمية.

وكأنهم كانوا بانتظار رجوع عبيس وإلقاء قصيده هذه، لذا  
هبوا هبة رجل واحد من أماكنهم، وكان الجميع منفعلاً يردد

<sup>1</sup>) كلمات القصيدة للشاعر لفته الباني.

كلمات الرفيق عبيس بجد وإخلاص، عاشت.. عاشت..  
وكان أصواتهم كانت تخرج من الأفئدة، والتصفيق بدأ على  
أشده مع لغط وضحك، وانطلقت من خلف الباب هلهلة رنانة،  
لأم جواد مشاركة منها فرح رفاق أبنها عبيس.

قفز صاحب الكوفية من مكانه وصدح بأعلى صوته، موجهاً  
كلامه للرفيق ماركس :

مطلوبين احنة وجينة نوفي الدين

جيـتـ وـمعـتـنـيـ يـاـ كـارـلـ أـدـورـكـ

وـمـنـكـ اـنـشـدـ الصـوـبـيـنـ

يلـ كـلـكـ فـهـمـ وـعـلـمـ

وـتـسـوـةـ مـاـيـ العـيـنـ.

قاطعه الرفيق جبار بحدة، وكان يضغط على أسنانه، وكانه  
يزجر. وبنبرة صارمة وصوت غاضب قال:

- رفاق يمودين.. رفاق نستمر لو لا. هذا تره مو محله..  
ميصير؟

- طبعاً رفيق نستمر..

أجابه بعضهم

- رفاق الهدوء مهم لجلستنا.. والرفيق ماركس، يود أن تكونوا جميعاً بمستوى المسؤولية الرفاقية.

بصوت هامس سأله الرفيق ماركس رفيقه جبار عما يحدث،

ولماذا يفعل الرفاق مثل هذا اللغط والضجيج.

- إنها عادة عراقية متعارف عليها، تحدث في حالات تجمع الناس لغرض الاحتفال أو التشيع أو الفواتح، فهناك من يخرج من بينهم ليلاقي بعض الأبيات الشعرية وكلمات التمجيد، قبل أن يتحدث المحاضر أو الخطيب.

ثم قطع حديثه الهامس مع ماركس، وبادر موجهاً كلامه لمجموعة الرفاق، أن عليهم الهدوء. عند تلك اللحظة وقف الرفيق أبو مزعل صاحب العقال والковية مرة أخرى ووجه كلامه إلى رفيق جبار.

- وسفه جبار ما چان عهدي بيأك هيچ.. تقطع هوستي.. ليش بويه شني إحن مو بعينك.. شني صاير اليوم قبغ مال احلوگ.. گالولي الرفاق عليك، شايف نفسه شوفه.. من رخصتكم رفاق، أنه طالع وبعد طريقي مو وياكم من هل يوم. الديره والحزب المسؤوله رفيق جبار مالي مكان بيه.

ضجت الغرفة بالأصوات، تنادي عليه للبقاء، ولكن أبو مزعل أبي وخرج وأغلق الباب وراءه بحدة، دون أن يستمع حتى لصوت الرفيق جبار الذي كان ينادي عليه ويعذر منه ويترجاه البقاء. هرول عبيس وراءه محاولاً إرضاعه دون جدوى، فودعه عند الباب الخارجي وعاد إلى الغرفة. حيث وجد الرفيق جبار قد انتقل مع الرفاق إلى حديث جاد.

- رفاق.. فيما يتعلق ببرنامج اللقاءات مع الرفيق ماركس فهو سيكون على شكل جولات في المحافظات، تدور فيها

حوارات ونقاشات، نحاول أن نستخلص منها ما ينفع شيوعيتنا وعراقتنا. وأنا هنا لا أريد استخدام تعبير تربك البعض، وتقود إلى فهم قاصر، لما يريد أن يقدمه الرفيق ماركس لنا، واعتقد أن من المناسب لنا جميعاً، أن نخرج عن نمطية المحاضرات، ونبداً بنموذج جديد ومقنع للمخاطبة، ألا وهو طرح الأسئلة من قبلكم، والرد عليها من قبل الرفيق ماركس. وقد بدأها الرفيق بالجواب على سؤال الرفيق أبو مزعل، ولنبدأ بما يشغل بالكم وندونه ثم يرد عليه رفيقنا كارل ماركس.

- اسمحلي رفيق بسؤال.. بادر أحدهم بالقول
  - تفضل رفيق.. ولو بعده ما سجلنه أسماء الراغبين بتوجيه الأسئلة.
  - رفيق ماركس بروح الوالدة.. متغلّبي أحنّه أضل هيج نركض والعشه خباز؟
  - رفيق ماركس.. رفيقنا يسأل إلى متى يبقى حالنا على هذه الشاكلة التي رأيتها، فقر وعوز في كل شيء.
- هكذا بادر الرفيق جبار لتقريب لغة السؤال للرفيق ماركس، وكان في كل مرة يستخدم هذا الشيء لتسهيل أمر الحوار بين ماركس والأخرين.
- رفيق، عندكم أفكار ومشاريع الطبقة الحاكمة، وهي المهيمنة الآن، ومن يملك القوة المادية، ودائماً تحاول فرض منظومة أفكارها على المجتمع، وتاريخ البشرية منذ الخليقة، هو تاريخ صراع الطبقات، وهناك ظالمون ومظلومون، وهم

في تعارض دائم، ويخوضون حرباً متواصلة، تارة معلنة وطوراً مستترة، ومثل هذه الحرب حتماً سوف تنتهي، إما بتحول ثوري للمجتمع ككل، أو هلاك كلاً الطبقتين المتصارعتين.

- إِي رَفِيقٌ وَتَالِيهَا مُوْأْنِشَعُلْ سَلْفَهُ سَلْفَانَا، وَنَرْكَضْ وَنَرْجَعْ كَرْيٌ. وَأَشُوْ هَسَهُ مَا تَشَوْفُ غَيْرُ الْلَّطْمُ وَالْبَجِيْ وَالسَّبَحَةُ السَّوَدَةُ أَمُّ الْمِيَّةُ أَوْ أَحَدُ، وَالْتَّفَجِيرَاتُ ذَبَحْتَنَا ذَبَحْ، وَجَوْعُ وَخَدْمَاتُ مَعْدُومَةٌ.

- الرَّفِيقُ يَقْصُدُ أَنَّ الْمَجَمِعَ الْعَرَاقِيَّ نَاضَلَ كَثِيرًا وَلَكِنْ فِي الْآخِيرِ رَجَعَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَيَطَرَتْ عَلَيْهِ مَافِيَاتُ تَحْكُمِ بَاسْمِ الدِّينِ وَامْتَلَاكِ الْحَقِيقَةِ. رَفِيقٌ يَعْنِي لَعْبَتْ بَيْنَهُ شَاطِئِي باطِئِي مَثْلُ مَا شَرَحْتَ لَكَ ذَلِكَ سَابِقًا.

أَطْلَقَ رَفِيقُ جَبَارَ ضَحْكَةً، وَهُوَ يَحَاوِلُ جَهْدَهُ تَرْجِمَةُ الْأَسْئَلَةِ وَتَوْضِيْحَهَا لِلرَّفِيقِ مَارْكَسِ.

أَجَابَ مَارْكَسُ قَائِلًا بَعْدَ أَنْ أَنْهَى تَدوِينَ السُّؤَالِ فِي وَرْقَةِ أَمَامِهِ.

- رَفَاقٌ عَلَيْنَا أَنْ نَدْرَكَ الطَّابَعَ الْمُؤَثِّرَ لِكُلِّ مَعْطِيَاتِ وَوَقَائِعِ الْحَاضِرِ، وَقَدْرَتِهَا عَلَى الْوَقْوفِ بِوجْهِ التَّغْيِيرِ وَقُوَّى الْدِيمُقْرَاطِيَّةِ، وَتَلَكَّ الْمَعْطِيَاتِ بِالذَّاتِ مِنْ يَسِّهِمُ فِي تَثْبِيتِ بُنْيَةِ الْمَجَمِعِ الْكُلِّيَّةِ ذَاتِهَا، وَتَكْفُلُ دِيمُومَةِ الْأَوْضَاعِ الْإِقْتَصَادِيَّةِ وَالْسِّيَاسِيَّةِ الْاجْتَمَاعِيَّةِ السَّيِّئَةِ، وَفِي هَذَا لَا نَنْسَى أَنَّ الدِّينَ، فِي مَثْلِ هَذِهِ الْمَجَمِعَاتِ يَعْنِي عَجَزُ عَقْلِ الإِنْسَانِ عَنِ التَّعَالَمِ مَعِ

حوادث، لا يمكن فهمها أو يتغدر عليه تحليل كنهها.

- رفيق ولو أنا مو كلشي أفهمته.. بس إحنه شنو نگدر  
أنسويه؟

- رفاق، الإنسان بواسطة العمل، وبالعمل وحده يستطيع تغيير ذاته، وكذلك تغيير ما حوله، ولأجل خلق ظروف أفضل لحياته وللمجتمع. وأعتقد أن هذا الشيء هو ما يحتاجه الشعب العراقي بشكل ملح. ورغم أن العمل في النظام الرأسمالي يصبح وسيلة وأداة لاستلاب الذات وقهرها، ويكون نشاطاً مستهلكاً، في ظل شروط إنتاج، يتم فيها شراء قوة العمل، وهنا يكمن الخطر، حين يكون الإنسان العامل، جزء من وسائل الإنتاج، وغير مالك لها، لينقلب إلى مجرد قوة تباع وتشتري.

ففر عبيس من مكانه وبصوت واضح قوي وجه كلامه للرفيق ماركس.

- رفيق ماركس متگلي هو شنو العمل؟

طالع ماركس وجه عبيس الأسمر المملوح، والذي يشي بمقدار وقوفه تحت أشعة الشمس اللاهبة، وتمعن أيضاً قميصه المزركش، فضحى في سره بسبب صور أشجار الغابة والورود التي تغطي القميص، وكذلك العبرة التي تتوسط الجهة العليا اليمنى منه، وكانت باللغة الانكليزية، والتي طرحت بخط ناعم أخضر، ولكنه واضح للعيان ( اغتصبني أيها الملعون).

- رفيق من أين لك هذا القميص الجميل؟

- رفيق من اللنگة.
  - وماذا تعني لنگه؟
  - يعني من محلات بيع الملابس المستعملة.
  - أرجو ألا ترتديه بعد الآن، فهو قميص لا يليق بشيوعي.
  - رفيق جماعتي بالسوگ كلهم متخلبين عليه.
  - رفيق هذا القميص في أوربا ترتديه بعض الفتيات المراهقات، استهزاءً وتحدياً لتقاليد مجتمعاتهن.
  - ليش أخنه مو ثوريين، هم أني أريد أتحدى مجتمعنا، وأكسر خشم تقاليده.
  - حسنا ولكن العبارة التي خطت على قميصك، مخجلة في مجتمعك.
  - وشنو هاي العبارة.. أشو هي باللغة الأجنبية.
  - نعم وحاملها يدعوا الآخرين لاغتصابه.
  - شنو.. أنه أخو جواد عفه، كول غيره رفيق... أشو صار شهر من لبسته ومحمد كاللي بهاي الحسبة.
  - مثلما أخبرتك.
- هرول عبيس خارج الغرفة وكأن عقرب لدغته، ثم عاد وهو يرتدي قميصاً أبيضاً وجلس في مقعده، يتلفت نحو وجوه الرفاق التي كانت جميعها تحمل ابتسamas خفية، شعر أن بعض منها كان شامتاً.

- رفيق تكلمت عن العمل.. نستطيع أن نعرف ما هو العمل؟

- رفاقي الطيبون.. العمل هو الأفق وهو الحياة، هو ما يبعث الأشياء ويطلقها من بين الأموات، والشغل فاعلية مرتبطة بماهية الإنسان، وهو مجهود جسدي و بواسطته ينمي الإنسان مواهبه و ملكاته وقدراته. و قيمة أية سلعة تظهر في السوق، يعبر عنها بعامل واحد، هو مقدار العمل الإنساني المبذول لإنتاجها، و قيمة السلعة تقايس بمقدار العمل الذي يقتضيه إنتاج السلعة، أي بعدد الساعات التي يستغرقها العمل في إنتاج تلك السلعة، و تقاس هذه القيمة بالزمن الاجتماعي لا بالزمن الحقيقي.

- رفيق يعني أم غانم هم شغلتة تتقاس بالزمن الاجتماعي مو بالساعة.

قال أحدهم ذلك فضجت الغرفة بالضحك واللغط، ووجهت للرفيق نظرات و عبارات اللوم والسخرية و ترددت جملة، عيب رفيق عيب، هذا مو سؤال، عيب رفيق مع قهقهه عالية.

- رفيق وما نوع العمل الذي تقوم به تلك المرأة؟

تساءل الرفيق ماركس

- أترك هذا رفيقنا العزيز.. الرفيق أراد تلطيف الجو فأطلق أملوحة.. أم غانم تشتعل والعياذ بالله.

وبعد موجة من الضحك طلب الرفاق استراحة قصيرة، جلب عبيس خالها كليجة وشاي، وتبادل الرفاق أحاديث جانبية كان أغلبها هامساً.

- رفيق أبو سناء، أكول منو يكول هذا هو صدگ کارل مارکس؟ هذوله أب أوربا نغولة يلعبون عليه لعب.. يجوز گالو خلي اندز لهذوله الزواج، واحد نسويله كفشه ولحية مثل کارل مارکس، وراح يحچيلهم شيريد ما يريد، ويترم برأسهم بصل، وهمه غشمه، وخيرهم ما يعرف شنو ما شنو المارکسية
- هاي شلاك بيها رفيق لعد هذا الحچي إلى حچاه هذا، منو يگدر يحچي غير مارکس.
- وهو أنته أفهمت منه فد شي.
- تريد الصحيح.. والله ما أفهمت منه غير جملة لو جملتين.
- ها أني چا أشكول..
- رفاق أعتقد من المناسب العودة لتناول الحديث مرة أخرى.
- كانت هذه جملة الرفيق جبار، التي نبههم بها، ودعاهم لمعاودة الاجتماع، فعاد الرفاق للجلوس في مقاعدهم.
- رفيق خصم الحچي إحنه شنسوي بهذا وضعنا. صحيح سأل رفيقي نفس السؤال قبل قليل.. ولكنني أريد الآن وقبل ما أشلع.. أريد جوابا حاسماً يشفى القلب.
- أطلق أبو رقية جملته وهو واقف ومتلهي وكأنه يريد إنتهاء الاجتماع والخروج دون انتظار جواب.
- مثلما قلت في ردي الأول.
- أعرف رفيق بس أكول ما ممكن في هذه المرحلة بناء

## الاشتراكية بقوة سواعد أبطالنا؟

- دون نضوج الظروف الموضوعية والذاتية، لا يمكن الوصول إلى تلك المرحلة. فالعراق يمر بفتره عصيبة، اقتصاده ريعي أحادي الجانب، خزينته تعتمد على مادة واحدة هي النفط، وعنه اقتصاد فلاحي متخلف ومجزأ، والبلد مختلف صناعياً، وهناك فائض كبير في الوظائف الحكومية، وليس هناك طبقة عاملة ناضجة تعي طبيعة وظيفتها التاريخية، وتعمل ككيان اجتماعي سياسي، واع لتميزه عن الطبقات الأخرى، وهذا هو المهم. فوق كل هذا وذاك، البلد تديره أحزاب إسلامية طائفية تراهن على تخلف المجتمع لتسويق برامجها، ومن هذا لا يمكن أن تنضج في هذه المرحلة مسالك حقيقية للديمقراطية، أو بناء يقترب من الاشتراكية حتى بنموذجها البسط.

- رفيق أنته أشو حيل مظلماها عليه.. ليس ما يمكن حرق المراحل؟

## عند تلك اللحظة وقف الرفيق جبار وصاح

- يعودين.. يا حرق مراحل يا بطيخ.. والله الجماعة عدهم استعداد يحرّكون الأخضر واليابس، لو واحد گالله شويه وخرو، لو تحرش بمصالحهم.. يصرخون ويگولون جئنا لنبقى وخلص، وما ننتيها لو يجي القبيس.. رفيق ماركس صار الحديث خارج نطاق التغطية... دعنا نذهب لنستريح بعض الوقت فينتظرنا سفر طويل لمدينة أخرى.

فض الجمع تجمهرهم، وذهب كل واحد لحال سبيله. وصعد الرفيق كارل ماركس والرفيق أبو نداء في سيارة الرفيق جبار، التي انطلقت نحو وسط المدينة حيث بيت أبو نداء.

- رفيق جبار ما تريد ت Shawf حي الزراب؟

- ليش أكرو بعد أكثر من هذا الزراب؟!



# هناك حيث زقورة أور

كانت السفرة القصيرة إلى مدينة أور، ممتعة جداً، غيرت المزاج المتعب الضجر الذي انتاب ماركس، عند نهاية اجتماع الظهيرة في بيت عبيس. المدينة الأثرية الممتدة في عمق برية واسعة، تجعل المرء يفكر بذلك الوجود المكين، لتلك الحضارة العميقه، التي قدمت للبشرية انجازات طبعت بصماتها ومازالت في حركة وحياة البشرية، إنها علاقة الإنسان بالإنسان، مثلما علاقته بالطبيعة. تلك الأحجار رغم صممها، فإنها تروي حضارة سادت وتسيدت، كان صراع الطبقات فيها متصاعداً ومستمراً. كان هناك فئات الناس من المنتجين، وهناك في مواجهتهم ملاك الأرض أو وسائل الإنتاج، كل هؤلاء تشي بوجودهم عظمة هذه الزقورة الرائعة الذاهبة بارتفاعها نحو السماء العليا، لتصنع لربها دينه، وتقدم له قرابينها عند مذبحها. لقد حول الإنسان الطبيعة، بجلالها وجمالها إلى رب حاكم مرهوب، رغم تغزله بها ومناجاته لها.

- رفيقنا ماركس ما الذي أوحى لك زيارتنا لزقورة أور؟

سأله الرفيق جبار عند مدخل بيت أبو نداء، وهو يتوجّل من السيارة بعد عودتهم لوسط المدينة.

- كنت في حلم من فنتازيا.. تخيلت سيرة حياة هؤلاء البشر، الذين أبدعوا وأعطوا كل ذاك الإرث المادي والمعنوي، دائماً وأبداً الإنسان يصنع التاريخ بحرفية عالية، يصوغ فصوله

المادية مثلما الروحية، إنه يشيد تأريخه وإنسانيته بحرفية مذهلة. هؤلاء قفزوا فوق منظومة المشاعة البدائية، ولكن العبودية كانت تطغى على روابط البشر وقتذاك. التاريخ البشري واحد تشارك فيه جميع الحضارات، ودائماً كان التطور الارتقاء، سمة لوجودها الفعلي. هناك دوائر حضارية لم تعرف العبودية. ولكن تلك الزقورة في مدينة أور توحى بذلك، مثلما الأهرامات في مصر وحضارة المايا في بيرو، فالبشر هناك في سعيهم الجمالي، استندوا على طابع التطور والتناقض، وأرى في ذلك علاقة بنمط الإنتاج المادي حينها.

- هاي شلون طرگاعة يالله؟! أنه أظل دوم مسطور وأثول، ومثل أطرش بالزفة؟

- هاي شبيك أبو راهي، أي هسه مو تونسنه وغينه بالسيارة، وأكلنه خبز عروگ من أيد أم نداء، شنو صار وياك؟  
تساءل الرفيق جبار وهو يسمع جملة التذمر والضيق التي أطلقها الرفيق أبو راهي، الذي رافقهم في زيارة مدينة أور التاريجية، وكفلهم شخصياً عند نقطة التفتيش العسكرية، حين ذهبهم إلى آثار مدينة أور، ومن ثم عودتهم إلى مدينة الناصرية.

- رفيق جبار، الحچي بيناته الموضوعة مو يم السفرة ولا يم خبز العروگ، ولا صوت عبيس من چان يغني مشيت ويا للمگير أو دعنه.. رفيق أني أنسطرت من جواب رفيقنا ماركس على سؤالك.. إيه هسه هاي السوالف منين يجيئه ما أدرى؟ الله يساعد مرته وجهاه عليه، إذا شهر أمشي ويا، راح أتسودن.

- رفيق هاي المتعبات؟ كلشي واضح وما يرادله تفسير..  
رفيقنا ماركس يگول الإنسان سوه العمايل، ولعب طوبه بالدنيا،  
وخلق ولايات وبنه بيوت، والرفيق متونس وفرحان بلي شافه  
هناك.

- هاي هي رفيق؟ جبته من الأخير.. چا شني روحية،  
وفصول مادية والمشاعة البدائية وطابع التطور الارتقاءي،  
وروح أبوك رفيق جبار، لو مو شويه واگفه، ويگولون سوه  
خرق بالرفاقية، وچان ما ملتزم بالسلسل الحزبي، چان گتاك  
والحمزة أبو حزامين، أنته هم مسطور مثلی ومضيع صول  
أجعابك.

أطلق الرفيق جبار ضحكة مجلجة وأحاط جسد الرفيق أبو  
راهي بيديه ولف معه بدورات كاملة، وراحا في موجة من  
ضحك صاحب. كان ماركس ينظر لهما مبتسمًا، ويحاول  
مبعدًا تجنب ارتطامهم به، والتفت نحو أبو نداء، وكأنه يحثه  
على إنهاء هذا الوضع، والسماح لهم بالدخول إلى البيت، بعد  
هبوط المساء ومشاعر التعب التي أحس بها، ورغبته في شيء  
من الراحة.

كان عبيس يتکي على حافة الباب يطالع رفيق جبار وأبو  
راهي بابتسمة رضية تستحسن مزاحهم تلك اللحظات. حين  
فاجأهم قائلا.

- من رخصتكم رفاق نص ساعة وأرجع.  
- وين رفيق عبيس وين رايح؟



يرتدي العقال والكوفية، علقت فوق الجدار المقابل للنافذة، التي تطل على باحة الدار الداخلية. جلس ماركس في الزاوية القريبة من النافذة وجلس الباقيون قبالتها. لم يمض من الزمن غير أقل من نصف ساعة، حين طرق باب الغرفة وسمع صوت امرأة تنادي على أبي نداء، الذي ذهب وعاد حاملاً صحنًا كبيراً من الرز، وضعه فوق المنضدة ثم كرر ذهابه لجلب باقي الطعام، بعدها جلس داعياً ضيوفه البدء بالأكل، عندها طلب الرفيق جبار الانتظار لحين عودة الرفيق عبيس، وسأل إن أمكن الاتصال به هاتفياً لمعرفة وضعه، بعدها أجابهم عبيس بأنه قريب من بيت أبي نداء. لم يستمر انتظارهم غير دقائق معدودات حين طرق عبيس الباب ودخل حاملاً بيده اليمنى حقيبة سوداء كبيرة ويحمل كيس آخر بيده اليسرى. جلس ووضع الحقيبة جانبًا، وأشار بإبهام يده نحو الأعلى علامة تحقيق النجاح. ناول الكيس لأبي نداء، منهاجاً باحتواه على سمكة مشوية ورأس خس، بعد ذلك فتح الحقيبة وأخرج كومة ملابس ثم لفافة من قميص غطى بها قنينة ويسكي، ثم أخرج قنينة أخرى، فضج الرفاق بالضحك والمديح للمحصول الوافر والجهود العظيمة والبطولة التي يبديها عبيس دائمًا، لأجل توفير السعادة لرفاقه.

- هاي شلون دبرته رفيق عبيس ثنين مو واحد وبوكت الممنوع؟!

- ليش رفيق مو أني عبيس لو غيره؟ رفيق ماركس خطارنا وتريدني أجيب واحد.. شني بويه تريده نتمضمض باستكانات

وأحنه خمسه.

- خوب مو مغشوش.

- هاي سوالفك أبو راهي، دائمًا عندك قاعدة إثارة الشكوك  
وصولاً للقناعة والاحتمالات.. ديكارتى مو بيدك، إنته دضوگه  
وبعدين قرر.<sup>(1)</sup>

- چا مو قبل شهر حصلت واحد وطلع مغشوش.

- أي نعم.. إنته تتعامل فيه صغار القوم.. أحنه نتعامل فيه  
رأس الأبي.. تعرف شنو ومنو رأس الأبي.

- لا والله عبیس.. منو هذا؟

- سيدنا ومولانا أبو حوراء.

- لا.. ابروح أبوك.. صدگ چذب.. أبو حوراء بنفسه.. مو  
سيد ابن رسول الله، وچماله خاليه مسؤول جبير، ويحكم بشرع  
الله بمنطقة السديناوية.

- بويه التجارة والفلوس تعمي العيون.. يا سيد يا حميد..  
وهسه إنته شعليك، إذا سقيت روحيتك العليلة، من إيد سيد لو  
من أيد عامي.. بالمرة الجايه أجبيلك بطل من وزير الحصة  
التمويلية.

كان رفيق ماركس يبدو غير معني بما يدور حوله من  
حديث، فال نقطية بدت فوق جبينه، وكان يسلط نظره على مائدة

<sup>1</sup>) الشك الديكارتي منهج للتوصل إلى اليقين، وهي فلسفة أبتدعها الفيلسوف الفرنسي  
رينيه ديكارت وسميت باسمه.

الطعام، ذاهباً بفكرة في أزقة لندن وعند عائلته التي شعر  
اللحظة باشتياق حاد لها، سيطر عليه بالكامل. رفع رأسه حين  
سمع نداء الرفيق جبار له.

- رفيق ماركس وين سرحت.. لنبدأ بالأكل.. ألا تشعر  
بالجوع؟

- نعم رفيق، ولكن قبل ذلك أحتج لكأس يعدل المزاج.  
عندما ضج الرفاق بحيوية وحبور بسبب طلب الرفيق  
ماركس هذا، وراح عبيس في موجة صياح وكلمات سريعة  
متتالية.

- حيهم بويه حيهم.. حيهم.. ألف رحمة على أبيهم.. هذولة  
العذبوني.. هذولة المرمروني وعلى جسر الهولندي عذبوني..  
دائما البدايات الثورية تخليني أروح بعيد، عاشت أيدك رفيق  
ماركس.. يابه وروحها العمتي أحله ماركس أنته.. ورده  
وروحها البببيتي ورده أنته.

- رفيق عبيس هاي شنو.. أرجو الالتزام..

قالها رفيق جبار وهو يرفع الكأس بصحة الجميع

استمر الحديث وتشعب وكان خليطاً من حديث شخصي  
وعام، تخللته نكات وغناء حسب الطلب، أداء عبيس بمزاج  
رائق جدا. كل ذلك بينما الرفيق ماركس كان يسرح بعيداً بين  
فيئة وأخرى، وكان يحاول اغتصاب ابتسامة يجامل بها ندامه.  
 فهو بعيد عن فهم ما يدور بينهم من أحاديث، لا بل لم يكن  
حديثهم في حقيقة الأمر ليستحوذ على اهتمامه، فهو يفكر في

ساحات قصية بعيدة جداً عن مكانه هذا. هناك في أوربا ومن ثم أسيباً ليعود بعدها ويحاول مقاربة ما يحدث هنا مع تلك العالم. منذ دخوله العراق لحد هذه اللحظة، وهو يدقق ما شاهده ويشاهده وسمعه وقرأه، وتلك الجلسات التي جمعته برفاق يطلقون شكوكهم وشوكوكهم بين جملة وأخرى. ينظر إلى وجوههم التي بان عليها التعب، وظهرت آثار الكدح والهموم عليها. هؤلاء الذين يحاولون دائماً أن يواعزوا، كل خلل وخيبات أحاطتهم، لجهات بعيدة عنهم، سلطت عليهم كل تلك العذابات. يرمون مشاكلهم ويبعدونها ليلاصقوها بعوامل بعيدة جداً عنهم، نافين أية تهمة توجه لذواتهم، إنه مرض الفضام الذي يقع داخل الإنسان المضطهد. حيث يسقط مسؤولية التقصير الذاتي على الآخرين، أي التخلص من كل ما هو سيء ومؤذ بمحاولة اتهام الغير به، وإبعاد البحث في الفعل الخاص والسلوكيات الفردية والعدوانية التي تحكم في أفعاله، لتكون في النهاية مقدمة للقناعة، بوجود حالة عامة من الرضا بما يقع، كونه مقدر ومكتوب. وتلك هي حالة المؤس المستعصية التي تحتاج لتجغير من الداخل وليس غير ذلك.

- رفاق أشعر بالحاجة للنوم.. ممكناً تناول كأس أخرى لأذهب بعدها إلى السرير.

هكذا بادر الرفيق ماركس منهياً تفكيره الذي شط بعيداً عن أجواء الصحابة والرفاقية، وذهب به بعيداً في محاولة لسفر غور الأزمة والأحداث، ولكنه لحد الآن لم ينزل جواباً مقنعاً يرضي النفس.

- تستطيع ذلك رفيقنا العزيز.. وربما أحاديث رفاقنا الخاصة  
وغير الذكية سببت لك بعض الإزعاج.

- كلا أيها الرفيق جبار فأناأشعر بالتعب بعض الشيء.

- لك ما تريد عزيزنا الرفيق كارل هاينريش ماركس..  
بحصتك يا أحلى رفيق.. إن ينصركم الله على أعداء الماركسيه  
من الرأسماليين والبرجوازية الكومبرادورية فلا مانع لدينا..  
تصبح على خير يا وردة الورود.

أبتسם ماركس بثاقل، وارتشف كأسه جرعة واحدة، وذهب  
خلف أبو نداء متوجهاً إلى غرفة نومه التي سوف يشاطره فيها  
النوم الرفيق جبار. جلس وحيداً يطالع الجدران مثل ليلة  
البارحة، فشعر بثقل الهواء وحرارة الغرفة الخانقة. مد جسده  
التقيل فوق الفراش، وراح يستمع لصخب الرفاق وضحكهم  
العالى، وجدالاتهم التي أقتنع بكونها عقيمة، وليس بذات  
جدوى، لم يطل به التفكير حين بدأ النوم يتسلل إلى عينيه  
فراح في سبات عميق.



# البصرة وجهتنا القادمة

أستيقظ الرفيق ماركس من نومه على صوت الرفيق جبار وهو ينبهه كون الساعة جاوزت التاسعة صباحاً، وعليهم تناول الفطور، والمعادرة نحو البصرة. دهش الرفيق ماركس من كلام الرفيق جبار، فهو لم يخبره البارحة بنية السفر إلى البصرة.

- رفيق لم تعلمني سلفاً بجهة سفري؟  
- رفيق مثلما أخبرتك سابقاً، فلنا أنا وأنت، جولات في المدن العراقية للالتقاء برفاق يودون اللقاء بك والتحدث إليك.

- حسناً ليكن ذلك.  
- رفيق أبو ستار الورد مناسبة حلوه أروح ويأكل للبصرة.  
قالها الرفيق عبيس باستحياء.  
- شراح تسوى هناك.. هم قيق لو ممنوعات.. ليش ما تبطل سوالفك الفاينات؟

- لا والله رفيق.. نشتري بضاعة بسعر مناسب.. يعني بزبز رفيق.

- قصدك بسنز تجاره.  
- بالضبط رفيق رحمة لهذاك الجد المات وماضايك البيسي.  
وأطلق ضحكة لم تزل استحسان رفيق جبار، فظهرت على محياه معالم غضب.

- رفيق عبيس أعرف حدودك.
- العفو رفيق حبيت أطف الجو..
- لطف الجو، بس أعرف حدودك إنته رفيق.. وأنني منو..  
هم رفيق.. مو گاعدين دنلوب دومنه.. صح لو مو صح؟؟
- والله صح رفيق.. اعتذر منك رفيقي.

كان الجو مغبراً حاراً رطباً، حين استقلوا السيارة وودعهم الرفيق أبو نداء عند الباب ومعه الرفيق أبو راهي. ثم خرجت السيدة أم نداء، التي توشت بعباءتها السوداء وكانت تمسكها من طرفيها، لتطبق بهما حول صدرها وتحت حنكها، وفي يدها الأخرى حملت أبيريقاً مملوءاً بالماء، سكته على الأرض، حين تحركت السيارة بعيداً نحو الشارع الرئيسي، المفضي إلى الطريق الذاهب نحو مدينة البصرة، وقالت بصوت مسموع محروسين بسور سليمان ابن داود رفاق.

داخل السيارة ساد صمت مطبق، لا يسمع خلاله غير صوت خفيف للmotor، وكان الهواء بارداً منعشأً داخلها. استرخي جسد عبيس. ودون مقدمات راح في إغفاءة مكينة، وكأنه في فراش وثير من ريش نعام. صوت جهاز التسجيل يبث أغنية طويلة لأم كلثوم، راح يذندن معها الرفيق جبار، ناظراً إلى الأمام في الأفق الواسع الممتد بعيداً، سارحاً في خياله، حين رن جرس الهاتف النقال، رفعه الرفيق جبار. كان أبو شمخى على الجانب الآخر.

- ها أبو شمخى.. شترىد، خوب ماكو شي؟

- هاي هم أجه عقید أبو رحمه، وهل مره يريد خسمیت  
ألف.

- شنو.. خسمیت ألف.. قدره عتیگة لتنطوا، گلوله من  
يرجع الرفیق جبار.

- رفیق جبار هذا معاند وراكب راسه.. یگول لو اليوم  
استلمهن لو أقفله للفندق.

- خوش.. بسرعه هسه ولا تتأخر، بلغ شمخي، گله یگول  
عمك جبار، مثل ما متفقين، تروح يم الربع بحي الدورة،  
ويگلهم التلثيميت ألف حاضره، وهمه يتکفلون بالباقي. افهمت  
لو هم مخک ثگیل مثل الباقين؟ خبر شمخي هسه خلي يروح  
للدوره بالعجل.. هو یعرف ویندل.. یا لله ابني السبع.

أغلق الهاتف ونظر نحو الرفیق کارل مارکس، الذي بدا  
وكان الصمت يجلله، فراح يضغط على أطراف أصابعه  
بحركات لا إرادية، وينظر نحو الصحراء الرملية الصهباء  
الممتدة في البعد. كان يشعر بشيء من الندم المخلوط بالضجر  
والملل، ويلوم نفسه بسبب انقياده، لقرارات الرفیق جبار، التي  
لم تكن في الكثير منها، مبعثاً للتفاؤل والراحة، ولم يحصل منها  
أو يستخلص، ولحد الآن، نتائج إيجابية تنفعه في دراسته، رغم  
أن مجئه إلى العراق كان قراراً طوعياً، ومن المفترض ومنذ  
البداية أن ي ملي شروطه، بما يحقق له ولحوته النجاح، ويمكنه  
الحصول على توثيق لتجربة يعرضها لرفاقه وجمهوره في  
لندن بعد العودة. ولكن جبار ورفاقه والوضع الهلامي غير  
المستقر دفعاه للانقياد والرضا، عن خطط هذا الرفیق الأناني

الغامض.

عند الاقتراب من مدينة البصرة، وعند تقاطع طريق محمد القاسم مع طريق المطار، أوقفتهم دورية عسكرية، كانت تقف ليس بالبعيد عنها دبابة أرامز وثلاث عجلات مدرعة.

- وين رايحين..؟

- للبصرة عزيزي أبو خليل الورد.

- يمودين يابصره هاي.. أرجعوا أحسن ألكم، تره ممنوع، الوضع خطير جداً، وهناك معركة أبين العشائر، ويستعملون بيهما كل الأسلحة وجميع الطرق إلى البصرة مقطوعة.

- هسه تفضل حتماً. الخيرين هو فيه و هسه يحلوها.

- يا خيرين يا ميرين. صار من أول البارحة العصر ولبيهه والهاونات رگع.

- لا بربك هاونات؟

- چا بويه ما تسمع الهد صوته يوصل لها.

استيقظ عبيس من غفوته وسائل عن الذي يحدث. وكان ماركس يحاول بدوره الإنصات ومعرفة ما يدور من حديث بين العسكري والرفيق جبار.

- ها رفيق جبار شنو ما شنو.. خوب ما صاير انقلاب لو تمرد.

- عبيس أشو ما تسكت خل نفتهم زين.. إيه أبو خليل، وال Herb هذا شنو سببها؟

- والله أبن عمي يكولون خروف طاب بمزرعة عشيرة أبو حميره وجهال العشيره لازمينه وذابحينه وصار ما صار. وهاي من أول البارحة ولحد اليوم تتفاوض الوادم.. والتمت الساده والحكومة عليهم، بس القتال ما وگ، وكل عشيرة راكبه راسها.

- اي هذوله مو تعاركو العام على تلث نخلات.. شنو بس يردولهم حجة حته يتکاتلون.. يبين عدهم سلاح هوایه.

- لوين وصل طيحان الحظ بهذي الناس. لو أبن صبحه المشعول بعده عايش چان عرفو شلون يتکاتلون.. چان هجم بيومتهم على روسهم، وخلاهم بيروسون أدیناته ورجليناته، ويرکضون حفای حتى يقبل منهم يتنازلون عن حقهم.

قال ذلك الرفيق عبيّس، وهز الرفيق جبار رأسه تأييداً لما قاله. ثم توجه الرفيق جبار إلى الرفيق ماركس شارحاً له الوضع والحادث، الذي يعترض ذهابهم إلى البصرة، وعليهم أن يغيروا خط سيرهم والاتجاه إلى مدينة العمارة بدلاً من العودة إلى الناصرية.

- هذا هو حال العراق عزيزنا الرفيق كارل ماركس فما نحن فاعلون.

هكذا قال الرفيق جبار بتذمر وضجر ظاهرين

- دائماً حين تهزل السلطة وتضعف مؤسسات الدولة وتزول الملاحقات القانونية، تتفجر مختلف النوازع الجرمية العدوانية، وتطفح نحو السطح مختلف أشكال العنف والاعتداءات وخرق

القانون، دون مراعاة لأي حقوق للإنسان، ومن ذلك حقه الطبيعي بالسلامة الشخصية والعيش الآمن. يحضرني الكاتب فرانز فانون<sup>(1)</sup> حين ذكر في كتابه مذهب الأرض، أن البشر الذين خضعوا للغة القسوة ولزمن طويل، لا يمكن لهم أن يفهموا غير لغة القسوة، ولذا عندما يريدون أن يحرموا أمرهم تراهم يعبرون عن أنفسهم بلغة القسوة، وهذا ما يفعله هؤلاء اليوم. وهذه الظواهر المختلفة في بلدكم اليوم هي نتاج القسوة التي مورست على الناس في مختلف الأزمانة. تبدو اليوم مستعصية، ولكن يجب أن تقاوم، ويكون هناك نضال شرس ضدّها، والعلاج يجب أن يكون شمولياً، ولا يقتصر عليها، بل يشمل جميع المفاسد والعادات الاجتماعية.

قال ماركس ذلك وهو ينظر بتوجس نحو الجنود الذين تجمعوا جوار الآليات العسكرية، الواقفة عند تقاطع الشوارع الذهابية إلى البصرة، لمنع الناس من الدخول إلى منطقة النزاع العشائري.

- هاي هم قسمة مو زينة، مثل ما يقول السيد فافون.. مراح نحصل شي.. بس هم بيـه صالح، إذا تروـون للعمارة أروح ويـاكم، أـبقالي يومين يـم عـمامـي.. رـفيـق جـبار رـاح نـروح للعمارة مو هـيـچـي؟

تساءل الرفيق عبيـس.

<sup>1</sup>) فرانز فانون طبيب نفسي وفيلسوف من مواليد جزر المارتينيك الفرنسية. أنظم كطبيب إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية وتوفي بمرض السرطان عن عمر 36 عام.

- خوش تعال ويانه نذبك هناك وبعدين نقرر شنو نسوي.  
إحنه هم عدنه چم رفيق بالعمارة يمكن أنشوفهم.

استدارت السيارة وأخذت الطريق الضيق الذاهب شمالاً نحو  
قضاء المدينة حيث يرتبط في النهاية بالطريق العام المؤدي إلى  
مدينة العماره.

- شوف رفيق شلون سوه بینا الاحتلال، وبين چانت كل هذه  
المعارك والخصومات.

قالها الرفيق جبار بحسرة وكان ينظر في المرأة الأمامية  
ليطالع الرفيق عبيس الذي بادله النظرة وهز رأسه موافقاً على  
ما ذكره.

- ولكن رفاقي، لا يمكن أن يعزى كل خلل وخطأ و فعل مؤذ  
للاحتلال، لابد من الابتعاد عن هذه الصورة المفرطة التبسيط،  
ورمي كومة الخيبات والجرائم على مفردة واحدة، صحيح أن  
الاحتلال مقيت، وأتى بالعديد من المساوى، ولكن الكثير مما  
حدث ويحدث لا علاقة له بمحتل، بقدر ما يتعلق بطبيعة ونمط  
التفكير الذاتي السبيء، وهذه الممارسات والنوازع الجرمية، لها  
أسبابها الذاتية المجتمعية وعلاجها يتطلب جهداً استثنائياً على  
المدى البعيد.

كان لقول ماركس هذا صدى غير حسن عند الرفيق جبار  
الذي زم شفتيه بتذمر بائن.

- ولكن رفيقنا العزيز لم يكن ليحدث هذا، قبل أن تدخل  
قوات الاحتلال الأمريكي.

- نعم لقد فكك المحتل مؤسسات الدولة، وبالذات منها المؤسسة العسكرية بمختلف صنوفها، أي هشم المحتل أجهزة القمع السلطوية، ولم تتكون بعد قوة بديلة تحل محلها. ونشأ نموذج جديد من تشكيلات اجتماعية سياسية، برزت في هياكلها وتشكيلاتها أنماط مستحدثة لسلطات وليس سلطة واحدة، وما فيات استغلت هذا الفراغ، لتبني عروشها، وهذا ما ينخر جسد الدولة العراقيةاليوم، ويطعن في وجودها و هويتها

- أیباه رفیق چنک بگلّبی.. والله قبل سنتین چنت اگول للرفاق مثل هذا الحچی بس میصدگونی.. یکولون عبیس یقره جراید ویگوم یمسلط ویژرم براسنه بصل.

- أنته كلشي وچنك تعرفه.. عبيس بطل سوالفك هاي، مو  
عليه تره حتى ثلح گلينه.

- جاهيه حزوره رفيق.. هاي السوادين الصابت كل هذى  
الوادم.. شنو چانت، أيره لو كبسوله انطاها إلهم الأمريكان،  
هيه هاي مو موپلاتنا لو غريبة عليه؟!

- خوش رفیق عبیس.. مو تنسه من ترجع عود خبر رفاقنا  
بلی صار.

- ليش ما تخبر إنته أبو نداء هسه وتشر حله، وهم بالمناسبة يخبر أمي يگله آنه راح أبات بالعماره عد عمامي.

- أی مو عندك تلفون ما تخبر إنته.

- رفيق جبار والحمزة ما عندي بي رصيد.

- عبيس.. يوميه تسلع من جيوب الناس الآلاف وهسه تجي وتكول ما عندي رصيد. أشو أطيني تلفونك.
- رفيق كون على ثقة.. ليش متصدگنی
- أصدگك رفيق.. ما بيـه شي أنطيني التلفون حتى أصدگك أكثر.
- ما چذب عليك.. والخوه الرصـيد مصفر.
- والله أنتـه أكبر چذاب وسختـجي.
- رفيق جبار شـني السـالفة.. تـشـاقـه لو صـدـك تحـچـي؟!
- لا ما أـشـاقـه.. آنه أـعـرفـك لـعـبي وـسـختـجي.
- هـسـه تـريـدـنـي گـدـام الـأـجـانـب أـفـضـحـك فـضـيـحة.. آـنه السـختـجي لو إـنـتـه.. كـافـي عـادـ!
- عـبيـس تـره إـتجـاـزـت حـدوـدـك.
- رـفـيق جـبار اـنـتـه الـبـدـيـتـها وـاعـتـدـيـتـ عـلـيـّ.
- شـوف عـبيـس لـوـمـا رـفـيق مـارـكـس وـيـانـه چـان رـاوـيـتـك اـنـتـه منـو..
- أـيـاه.. مو أـطـلع الـخـيـاس مـالـتـك كـلـه..
- يا خـيـاس وـلـكـ؟
- لا تـكـول وـلـكـ.. أـبـن الرـگـاعـ.
- لا يا نـغـل أـبـن الـحـفـافـةـ.
- حـفـافـةـ مو حـفـافـةـ أـشـرفـ منـ النـهـيـةـ.. مو رـفـيق جـبارـ،

أحچي منو النهيبة؟

- ولک أنته صدک مو آدمی وما بیک حظر.

فجأة ضغط الرفيق جبار على كابح السيارة وأوقفها في منتصف الطريق ثم جعلها تميل نحو الحافة الترابية للطريق وطلب من عبيس مغادرة السيارة. كانت حالة غضب وانفعال شديدين يسيطران على كليهما ولم يجد الرفيق ماركس ما يفعله معهما. فهو لم يكن ليعرف شيئاً عما دار بينهما بقدر ملاحظته لسورة الغضب التي انتابتهما، أما أسبابها فكانت بعيدة عن فهمه، فحوارهما باللغة الدارجة والسرعة بالكلام كانت تمنع عنه معرفة الأسباب.

فتح عبيس باب السيارة وترجل منها ونظرات الغضب تتطاير من عينيه كالشرار.

- شوف جبار ابن الرگاع.. خلي ابالك بعد ما ألك طبه للناصرية. والخاطر الرفيق ماركس الگاعد يمك راح اعوفك هسه. رفيق ماركس تره جبار أكبر لعي وحرامي.

- يله سد الباب أوولي..

صرخ الرفيق جبار بقوة وضغط على كفة الوقود لترتفع السيارة عن حافة الطريق وتسير بأقصى سرعتها، تاركاً الرفيق عبيس وحيداً في طريق شبه مهجور، تغطيه عاصفة ترابية خلفتها عجلات السيارة.

- ما الذي فعلته رفيق جبار، أوقف السيارة فلا يمكن تركه في هذا المكان الموحش، على أقل احتمال عليك مسؤولية

إيصاله إلى مدينة قريبة.. ربما يتعرض إلى خطر الحيوانات أو شيء آخر.

بادر الرفيق ماركس بالحديث بصوت غاضب متهدج، وكان قد استدار برأسه نحو الخلف ناظراً نحو الرفيق عبيس الذي بدأت صورته تبتعد كثيراً عن الرواية.

- أتركه إنه لا يستحق أن تهتم به فهو فوضوي وصيادي وخبيث ولن تجد فيه نفعاً.

- ولكن لا يمكن أن نتركه لوحده في طريق مهجور.

- الطريق ليس مهجوراً وسوف يجد من يقله معه.. رفيق لا تهتم بمثل هذا فهو حالة كذاب ومنافق لا بل تافه، وما أله أي علاقة بالشيوخية.

صمت الرفيق ماركس مع هذا العناد الذي أبداه الرفيق جبار. ولم يكن ليستطيع استيعاب انهيار تلك العلاقة الحميمة بتلك العجلة. ربما لهذا الموقف سوابق أو كوامن طفت فجأة، لتتحول إلى شر وسوء وإثم كبير اقترفه الرفيق جبار، وحتى إن كان للرفيق عبيس يد فيه. استنكر ماركس مع نفسه ردود الفعل المفرطة في شدتها، التي مارسها الرفيق جبار وجاءت بما لا يتاسب حسب ظنه، مع ما اقترفه عبيس من مخاشنة، وشعر لحظتها بتعاطف مع شخصية عبيس، هذا البرولتاري الرث الذي يمسك الدنيا من تلابيبها بقوة ويلوي ذراعها ويديجنها بنكاته ومرحه وروح الجماعة التي تتلبسها شخصيته، إنه لا يستحق ما فعله الرفيق جبار. والرفيق جبار بتصرفه هذا

يدل على امتلاكه طيش منفلت وروح عدوانية، فالخلاف اللفظي لا يستحق منه مثل هذا الانفجار العنفي، ومع من، مع رفيق مقرب منه. ومن الجائز أن هذا الموقف غير المنطقي والملتبس سوف يعتمل في نفس عبيس، فيجعله يرتد ويبعد عن رفاقه وحزبه.

- رفيق إني لا أجد في فعلتك شيئاً من الحكمة.

- اترك الأمر.. فأنا لا أرغب الحديث عنه.

- أعتقد أن عليك مراجعة نفسك، والعودة إلى حيث تركنا الرفيق عبيس.

- أعود لجلب عبيس!؟.. أعود بالله، هذا مستحيل.. لقد خرق جميع الأعراف الحزبية والاجتماعية.. شتمني وحاول الحط من قيمة عائلتي.. لقد تصرف بحق وعدوانية.

- كان من الممكن حسم الأمر بالسكتوت عن مناكنته، وعدم الحوار معه وتأجيل ذلك لوقت آخر، وأنت المسؤول الحزبي، ومن ثم، وهذا هو العقلاني في الأمر، إيصاله إلى أقرب مدينة من هنا، وليس تركه في منطقة نائية.

- رفيق ماركس أنت لا تعرف شنو صار. وبحدود فهمك الماركسي وليس الحزبي، وبسبب عدم ارتباطك بتنظيم حزبي، لا تعلم كيف استغل عبيس الوضع وخرق التعاليم والتراطبية الحزبية. أرجوك رفيق ماركس لا تتحدث بما ليس لك معرفة فيه.

لم يرغب الرفيق ماركس باستمرار النقاش على هذا

المنوال، وما عاد يحذى الحديث حول سلوك الرفيق جبار الجانح، وما عادت لديه بعد ما سمع جملة الرفيق جبار الأخيرة، الرغبة في استمرار الجدل حول هذا التصرف الذي عده غير سوي، فقرر الصمت وترك الرفيق جبار لتوتره وعدوانيته، فهو الآن في حالة تعبئة نفسية استعداداً للمواجهة أو الصراع، وربما أنفجر الموقف بينهما ومن ثم يصعب بعدها ضبطه وتهديته.

- رفيق جبار بعد الذي حدث، أرى من المناسب العودة مباشرة إلى بغداد.

- نعم رفيق ماركس، ولكن سوف نتوقف قليلاً لتناول الغداء في مدينة العمارة.

- لا أعتقد أننا بحاجة للغداء ونستطيع الذهاب فوراً إلى بغداد دون حاجة للتوقف.

- حسناً رفيق.. مثلكما تحب، وهناك أمامنا أيضاً مدينة الكوت ثم النعيمانية، ويمكننا تناول الطعام في إحداهن إن شعرنا بالجوع.

- لا.. لا أرغب في تناول الطعام لنذهب مباشرة إلى بغداد.

- مثلكما تحب رفيق..

حاول الرفيق ماركس بكل ما استطاع من قوة روحية أن يدع جسده يسترخي ويبيعد عن ذهنه تلك المشاجرة، وصورة الرفيق عبيّس وهو يقف في الطريق الموحش البعيد. طال عليه التفكير فأحس بالتعب والعطش، ولكنه صمم في قراره نفسه ألا

يتناول شيئاً لحين الوصول إلى بغداد، وهناك سوف يكون له حديث مع الرفيق جبار، ثم بعدها يجمع أغراضه، ويعود حفائمه اختصاراً للسفرة، واستعداداً للعودة إلى لندن. فضيق الأفق والعجالة والعصبية، يبدو أنها وضع مأزقي يعيشها الرفيق جبار، وهو لا يود الاستمرار معه، لكي يضمن عدم الاصطدام به، فربما وبعد وقت قصير سوف يعامله ذات المعاملة التي عامل بها رفيقه عبيس. في حواره الداخلي الذي استمر طويلاً، كان الضيق والكثير من الهم، يسيطران على روحه، خلال ذلك تسرب النعاس إلى عينيه فراح في إغفاءة عميقه.

- رفيق ماركس.. نعيماء.. لقد نمت طويلاً.

- شكر رفيقي.. أين نحن؟

- رفيق لقد اقتربنا من بغداد.. أنا أشعر بالجوع.. هل لديك رغبة بالطعام.. هناك مطعم جيد عند مدخل مدينة الصويرة نستطيع تناول الطعام فيه.

- ومتى نصل ببغداد؟

- ساعة أو أقل.. ليست بعيدة من هنا.

- ولماذا لا نذهب مباشرة إلى بغداد إذا كنا ليس ببعدين عنها. أفضل تناول الطعام في بغداد.

- مثلما ترغبه.. اعتقدت بأنك تشعر بالجوع مثلما أنا عليه.

- لا أشعر بالجوع.. يمكنك تناول الطعام حينما تشاء واتركني جالساً في السيارة.. فأنا أستطيع الانتظار.

- لا لن يكون هذا يا رفيقي.. لنذهب إلى بغداد مثلاً تر غب.

«AlYaa» يات «الآيات»

# الاختطاف

البساتين تبدو متراصة متداخلة، بكثافة نخيلها الممتد على جانبي الطريق. بقرة عجفاء تجتاز الطريق بتناقل، أجبرت الرفيق جبار على إبطاء سرعة السيارة. عربة خشبية يجرها حسان متهالك، وقف جانبًا، لوح سائقها بيده، في الوقت الذي كان يتحدث بهاتفه النقال. كان الرفيق جبار متلماً عادته حين يشعر بالتوتر، يأخذ بالعبث بمفتاح جهاز المذيع، ولا يستقر عند محطة بعينها. كان ذلك مبعث ضجر للرفيق كارل ماركس. عند انحاءة الطريق، وفي أرض مكشوفة، وقفت دورية عسكرية طلبت منهم التوقف، فتوقف الرفيق جبار وسلم عليهم. كانوا خمسة أشخاص أحاطوا بالسيارة شاهرين أسلحتهم الرشاشة. إقترب أحدهم ووجه كلامه بحدة إلى الرفيق جبار، وكان آخر قد جاء من جهة الرفيق كارل ماركس وفتح باب السيارة عنوة، صارخا بماركس، بأن يترجل من السيارة.

- بسرعة يله أنزلو من السيارة.. بسرعة.

- شنو.. شنو الصار.. يمودين.. هاي شكو.. قال الرفيق جبار؟

- انزل لك أثول مخربط.. انزل.

- لتغلط.. إي ليش تغلط..

فجأة بادره العسكري القريب منه بضربة قوية على وجهه،

ثم وضع فوهه الرشاش فوق صدغه، صارخاً عليه أن يترجل وينبطح أرضاً، دون كلام، ففعل الرفيق جبار مثلاً أمر به. أمر العسكري الآخر الرفيق ماركس بالانبطاح على الأرض فرفض، فبادره العسكري بضربة قوية بأخمص بندقيته على ظهره، جعلت ماركس يتربّح ثم يقع أرضاً، وشعر بألم شديد يجتاح جسده من أعلى الظهر حتى قدميه، وزاغ بصره وأحس بشيء من الغثيان. لم يكن يدرى ما يفعل، وتساءل مع نفسه لماذا يتعامل معهم هؤلاء الجنود وبهذا الشكل الفظ. راح العسكريون يعبثون في الصندوق الداخلي للسيارة، ثم سحب أحدهم محفظة الرفيق جبار وأخذ يفتش فيها. عثر على هوية ديوان رئاسة الجمهورية. وعثر في صندوق السيارة الداخلي على مسدس. فصاح بأعلى صوته منادياً على أحدهم الذي وقف بعيداً يراقب الوضع.

- عمي حجي أبو بشير.. حجي تعال هنا.. محصول دسم..  
سيارة وفلوس وعريس بس بقت العروس.

- يله لتطولوها.. لتسوولنا مشاكل.. صعدوهم بصندوق السيارة وجبيوهم.. خلونه نمشي بسرعة، قبل ما تجي الدوريات.

قيدوا يديه إلى الخلف بخرقة ملابس، وغطوا وجهه بكوفية فلم يعد يرى شيئاً. سحبوه بقوة ثم رفعوه من يديه، وحشروه في حوض السيارة الخلفي، جوار الرفيق جبار الذي لم تعد تصدر عنه كلمة واحدة، وبدا وكأنه جثة هامدة، بل كان صوت تنفسه مثل فحيح أفعى. انتابت ماركس حالة من غثيان، جراء رائحة

العطن التي تحملها الكوفية التي عصبوا بها عينيه، فشعر بحاجة للتقىؤ. كان جسداهما يرتفعان ويهبطان ويرتطمأن ببعضهما، مع اهتزاز السيارة التي شعرا بسرعة سيرها على طريق غير معبدة وملينة بالحفر. بعد مضي ما يقارب النصف ساعة توقفت السيارة فسمع ماركس ضحكات أطلقها من كان يجلس في مقاعد السيارة ودار حوار بينهم ورجال كانوا خارج السيارة.

- الله يساعدهم.
- هل بولد العمام.. هاي سيارة جديدة.
- اي والله اليوم الصبح اشتريناها من معارض البياع.
- عدكم ممنوعات؟ رافق السؤال قهقهة بصوت عال صدرت عن الجميع.
- يابه والله إنت سيطرة مضبوطه.. تريد تفتش السيارة، ننزل وفتتش ملابسه الداخلية.. حتى أسلوف العمي حجي رشيد، شلون السيطرة صارت تلعب بقلاقيلنا.
- لا عمي شراح يخلصنه من الحجي، مو هيج عمي أبو بشير.
- عفيه وليدي، والله ابن حموله وتعرف الأصول، بس عمي تگدر تقوم بواجبك الرسمي وتفتش السيارة.
- مو عيب عمي.. شنو إنكلبت الدنيه.. چلمتك كافية عمي الحجي.. الله ويأكم محروسين.

- شكرًا وليدي.

تحركت السيارة ببطء وبدأ الاهتزاز يزداد ويسبب الماء حاداً في مواضع كثيرة من الجسد. في هذه اللحظة أراد ماركس حصر تفكيره بما يدور حوله، في محاولة لمعرفة السبب الذي جعلهم يقعون بيد هؤلاء. تسأله، ياترى من هم هؤلاء؟ وإلى أين يأخذونهم؟ وإذا كانوا من العساكر الحكومية، فلماذا يعاملونهم بهذا الشكل السيئ. ما الذي جعل الرفيق جبار بهذه الحال، لماذا لم تصدر عنه أية كلمة. دفع بجسده بقوة نحو جسد الرفيق جبار ولكنه لم يجد منه ما يوحى بالاستجابة. وبصوت خافت سأله.

- رفيق جبار ما الذي حدث؟

لم يسمع جواباً من الرفيق جبار لذا راح ينادي صارخاً

- أين نحن.. ماذا تريدون منا؟.

فأجابه أحدهم بحدة.

- إنْچَب لَكَ أَثُولْ تِرْه أَجِيكْ وَأَطْشَرْ مَخْكَ..

عندما سمع صوت جبار الخافت يقول.

- عوف هذا الأمر، لا تتحدث هكذا معهم.. سوف يقتلوننا إن عاندتهم.

- ومن هم هؤلاء..؟

- عصابة خطف.. نحن اختطفنا.. اختطفونا وبعدين نعرف ما الذي يفعلونه بنا.. علينا الصبر لعلنا نجد مخرجاً أو حلاً

فريباً.

صمت ماركس وما عاد يفكّر بالألم الذي يولده اهتزاز السيارة وارتطام رأسه بسقف الصندوق. شعر بأن فكره أبتعد قليلاً، ولم يعد يكتثر لمكانه الضيق الذي حشر فيه مع جبار. فكر بالقدرة الغريبة للطبيعة البشرية على البقاء بلا مشاعر إنسانية، بلاوعي للألام التي يلحقونها بالأخرين. فهو يعرف الساعة بل هو على يقين بأن قول تيمون الأثيني<sup>(1)</sup> كان صواباً ويقيناً كاملاً، وهو بالتحديد يعني هؤلاء المصابين بلوثة المال، حين قال في المسرحية، إن العهر المشترك للجنس البشري هو المال، المال لعنة الإنسان التي لا تضاهيها لعنة، فهو الذي يدمر المدن ويعوي ويفسد أجمل ما في الروح من معانٍ، إنه طريق الفجور والعار، وهؤلاء سائرون في هذا الطريق. كان يعتقد مع مضي كل تلك العقود من السنين، التي دون فيها ما يكفي من خبرات ونظريات، وصنع ما استطاع تقديمها هدياً للبشرية، في طريق خلاصها من العبودية ربما كان كافياً، ولكنه أحس اللحظة، بأنه لازال بعيداً جداً عن الانتهاء من مهمته، فالحالات تظهر وتتوالد أمامه دون نهايات، ويجد نفسه يتقدم ببطء شديد نحو اكتشافها، وتنطلب منه مزيداً من الصبر والتفكير والبحث. فهذا الشعب العراقي منذ تأسيس سلطنته الوطنية عام واحد وعشرين في القرن الماضي ولحد الآن، تركت الأحداث فيه إن كانت صعوباً أو هبوطاً، نجاها أم

<sup>(1)</sup> تيمون الأثيني 1623 بالإنجليزية Timon of Athens هي مسرحية للأديب الكبير شيكسبير.

خيبة، آثارا هائلة طبعت تشكيلاته الاجتماعية بالكثير من السوء والشك والريبة والقسوة، ولم تمنحه ما يكفي لبناء طباع خيرة نقية متكاملة، ولذا لم يعد قادراً الاستقرار على حال واحدة، فمسيرته صعودا نراها تتعثر ثم تهوي، دون ظهور لمن يهتم برؤيه عميقه لمصالح الناس الحيوية ودواجهم المادية، ليلجم تلك الصراعات التي باتت تسحب الجميع نحو الفرقه، وتدفع بهم لتشكيل عوالمهم الخاصة المغلقة والقاسية والأنانية.

توقفت السيارة فسمع ماركس أحدهم ينادي من بعيد ويطلب جلبهم إلى البيت. إنفرج سقف صندوق السيارة، وامتدت أيادي لتسحبه والرفيق جبار خارج الصندوق، ثم رفع أحدهم الكوفية عن رأس ماركس وفعل هذا مع جبار. نظر ماركس نحو جبار فشاهد خطأ خفيفاً من الدم يهبط من أنفه نحو فمه. جال بنظره المكان، فوجد نفسه يقف أمام ساقية ماء وضع فوقها جسر خشبي صغير، وثمة بيت مشيد من الطابوق الأسمنتي يقع في الجانب الآخر من الساقية، تحيط به أشجار فواكه كثيفة، وثمة بستان نخيل يغطي المكان، ويمتد بعيدا خلف البيت وكذلك أمامه. وفي الخلف كان هناك الطريق الترابي المتعرج الذي اجتازته السيارة، يخترق بستاننا ظليلاً بنخله وأحراسه. كان المسلحون المدججون بالسلاح يحيطون بماركس وجبار، البعض الآخر ينتشر بعيداً قرب البيت. عدم كانوا سبعة مسلحين.

- ودي السيارة يم بستان حجي رشيد وسلمي عليه، وگله أبو بشير يگول خليها يمك أمانه فد چم يوم.

- صار حجي.

تحركت السيارة عائدة نحو الطريق الترابي، بينما سحب آخرون ماركس وجبار من فوق القنطرة الخشبية عبوراً إلى البيت، ثم أدخلوهم إحدى غرف البيت الضيقة الرطبة الخالية من الأثاث، بابها حديدي أصابه الصدا، يصدر صريراً قوياً عند فتحه، وأرضها رصفت ببلاط أسمنتي مترب. جلبوا لهم بطانيتين فرشوهما أرضاً ثم فكوا قيودهما وطلبوها منهمما الجلوس.

- هذا أبو كففة جوازه يگول الماني. زين وأنته الآخر عقيد جبار وبديوان الرئاسة، شنو علاقتكم أبعض؟

ثلاثة رجال يقفون شاهرين بنادقهم نحو الرفيق ماركس والرفيق جبار وراحوا يوجهون أسئلتهم ويرقبون ردود الفعل.

- اي لك عقيد جبار سولف.. منيلك هذا الطير المكلش.. هم عسكري مثلّاك.. لو جاسوس لو مدرب.. شنو يشتغل وياماكم بالقصر الجمهوري لو بغير مكان؟

- چنت عند أصدقائي بالناصرية، وكلفني أحدهم بنقل هذا الأخ الألماني إلى بغداد، وأحلف بالقرآن ما چانت عندي سابق معرفة بيـهـ. وهذه الهوية مالتـيـ مزورـةـ، أـنـيـ موـ عـقـيدـ ولاـ حـتـهـ جـنـدـيـ..ـ شـوـفـواـ هوـيـتـيـ الثـانـيـةـ شـتـقـرـهـ..ـ موـ موـظـفـ حـكـومـيـ.

هـكـذـاـ أـجـابـ جـبـارـ عـلـىـ السـؤـالـ.ـ وـكـانـ مـارـكـسـ صـامـتاـ يـنـظـرـ إـلـيـهـ بـتـعـاطـفـ،ـ فـهـوـ يـرـثـيـ لـحـالـهـ المـزـرـيـ وـيـرـىـ دـمـهـ النـازـفـ وـقـدـ لـوـثـتـ قـمـيـصـهـ بـعـضـ قـطـرـاتـ مـنـهـ،ـ وـفـكـرـ بـأـنـ جـبـارـ يـكـذـبـ الـآنـ

لبيعد عن نفسه شبهة ما، يظنها خطر عليه، ولكنه تسأله، لم يفعل هذا إن كان الأمر يتعلق بالنقود وليس شيئاً آخر، مثلاً أخبرني.

- لك قشمر.. هذي مو مشكلاته.. صديقاك.. تعرفه ما تعرفه ما يهمنه.. إنت هسه أطينه تلفون رئاسة الجمهورية، لو رقم تلفون نتصل بيه وأحنه نعرف شلون ندبرها وياهم.. خوش.

- وخير البر عاجله.. نريد منك توعلنه على أوراق بيع وتحويل ملكية السيارة، وراح نشوفلنه صرفه بصاحبك الألماني لأن شغله دسمه باليورو مو بالدولار..

- يابه والله العظيم أني مو عقيد، وهاي الهوية مزورة والسيارة مو باسمي.. وهي منيفست.. تقدرون تأخذوها، وفكوني خلوني أروح الأهلي.

- خوش هم زين گلته راح نسويلها أوراق جديدة.. أگالك قشمر.. شنو يابه فكوني أروح الأهلي.. ليش شنو گالولك عدنه مدارس، ومن تصير الحلة تروح الطلاب لبيوتها. شوف إذا ما تتعاون إنت وأهلك، تره البستان جبير ويوصل لحد نهر دجله وهناك راح أتسيس جتنك.

- زين إنت مو أخذتوا السيارة... فلوسها ما تكفي.

- إنت مو تگول السيارة مو أبسمك.. إيه شعليك بيها.. هي حصة غيرنها.

فجأة صرخ رجل آخر هازئاً.

- لك هاي شنو اللغة.. إنت هذا الحلو المريش هيج رخيص

تتقيم بفلوس سيارة.. والله عيب عليك، ما تستحي طول بعرض وجهامه، هسه لو مريه چان گلنہ مخالف.. گصہ بگصہ نأخذ السيارة ونرجعك الأهلک.

أطلق المسلحون ضحكات هازئة وقدم أحدهم هاتف جبار النقال إليه، طالبا منه إظهار رقم هاتف أحد ما، يستطيعون الاتصال به. فعل جبار متلماً طلب منه وأعاده لهم.

- هذا تلفون أخيه رضا.

- أوكى الحجي هو اللي راح يقرر شنسوي وياكم.. وهذا الألماني عندك معرفة بتلفون جماعته.

- لا ما عندي.. ومثل ما گلتلكم، صدفة كلفني صديق بالناصرية لنقله إلى بغداد.

- لكم إنتم تدرؤن.. هذا بس لحيته تسوه مليون يورو.. وراح نطلب من السيدة أنجيلا ميركل ادزلنه فصلية خمس نسوان مجگنمات مسنعات ألمانيات مو بشكل الخشبة العندي... يايممممه... فدوه للنبي.

- ولک های منین أنجیلا میرکل؟

- حبیبی أبو رزوق ما عليك بهذه السوالف.

- لا بروح الوالدة های منو أنجیلا میرکل.

- ولک های رئیسہ ألمانيا وبیدها کلشی وام الكل.. ومن تحچی تغرد.. تقره و تكتب... وأندير دولة جبيرة مو مثل جماعته مخربيين ما يعرفون غير طیحان الحظ.

- صدك لو گال عنك عمي الحجي.. لعبي وبراسك ألف شيطان.

- دمشي أمشي بس هاي تعرفه.. أکو واحد ما يعرف ميركل  
- لوتی.. انته أسم ببیتاك ما حافظه.. أنوب ميركل.

خرج المسلحون من الغرفة يتضاحكون وأغلقوا الباب  
وراءهم ووضعوا سلسلة حديدية ربطت دفتيه بإحكام من أعلى.  
Sad صمت بين الرجلين، ولم تكن هناك رغبة ملحة لدى  
ماركس للحديث مع الرفيق جبار، الذي مد جسده فوق البطانية  
وراح يطالع سقف الغرفة. كان ماركس يريد إدخال شيء من  
الطمأنينة إلى نفسه ففكر بحصانته الشخصية كونه أجنبي وليس  
عرأقياً، وهذا يكفي لجعل هؤلاء يذرون التعامل معه بقسوة  
ورعنونة أو إذلال. ولكنه وكمن يبحث عن ملاذ أو ملجاً ليجد  
نفسه في نهاية المطاف واقفاً في فضاء مفتوح مكشوف دون  
سقف يحميه، وقد جرب ذلك حين عومل منذ البداية بابتذال  
وقسوة، لم تكن لتهتم بكونه أجنبياً غريباً، ولذا عليه إعادة  
حساباته وعدم الاطمئنان. فربما تكون أجنبيته وبالاً عليه،  
ودافعاً حقيقياً لهم، ليهملوها وضعه ثم يفكروا بالتخلص منه.

نظر نحو جبار وقال.

- لماذا كذبت عليهم.. ما الذي دفعك لهذا الفعل؟

فأجابه جبار هاماً.

- نعم ما عندي معرفة بك.. فقط كلفوني بنقلك لبغداد. أنت ما  
تعرف شلون يفكرون هذوله.. علينا أن لا نظهر لهم علاقتنا

الشخصية والرفاقية، فذلك حتماً راح يكون دافع رئيسي لظهور أحدهم وتسرعه بقتلنا. فأغلب هؤلاء عندهم عداء مستحكم للشيوخية، فكيف بهم لو عرفوا منو أنت وما علاقتك بي. ليذكر كل منا بوضعه الخاص دون خلط الأمور. أرجو أن تتفهم هذا.

- حسنا ربما تكون على حق... وما الذي جعلنا نصمت حين وصلنا السيطرة العسكرية.

- حسنا فعلنا.. هذولة ما چانوا يتورعون حين يكتشف أمرهم، بقتل الجنود وقتلنا أيضاً.

لم تمض غير ساعة واحدة حين تحركت السلسلة الحديدية، لينفرج بعدها الباب ويدخل الرجال المسلحون ذاتهم. كان المساء يهبط رويداً فبدا الظلام يحيط بالمكان، لذا حمل أحد المسلحين مصباحاً يدوياً سلط ضوءه عليهم، ثم رکزه على وجه الرفيق جبار قائلاً.

- راح أسلمك التلفون حتى تتحقق ويه أخوك رضا.. إذا گتله شي عن المكان، لو شنو صار ويأكم، اعتبر نفسك ميت.. خوش.. گله أني زين وخلي يطي المطلوب منه حتى نطلق سراحك.. أوكي ابن عمي..

- مخالف.

أجاب جبار ورفع يده ليأخذ جهاز الهاتف، فكان صوت أخيه المضطرب على الجانب الآخر. لم يظهر له مخاوفه، وتجنب الإفصاح عن مشاعره الحقيقية، وطلب من أخيه التماسك وتلبية ما يطلب منه، وأن يطمئن العائلة، ويبعد عنهم مشاعر الخوف

- حبيبي رضا لا تهتم.. الأخوة ديعاملونه بشكل زين..  
شوف شيريدون ونفذ طلباتهم. لتخلي العائلة بقلق، طمأنهم  
وكلهم أنساء الله قريباً أكون بيناتكم.

فجأة سحب أحد الرجال الهاتف النقال من يد جبار وأسرع  
بغلقه، ووجه ضربة خفيفة من كفه لرأس جبار.

- هذا أخوك أغبر وقشر.. صارله ساعتين يماطل  
ويتعنت.. ويُسأل هوالية.. تره إذا ما ينفذ طلبنا راح انطڭاك  
بالدهن.

- ليش إنتم شنو طلبتم منه؟

- عشرة دفاتر.

- عشرة دفاتر ! هاي منين راح يجيبوها..

- ليش ما عدكم بيت.. گاع.. معارف.. تره أحنه مو  
قليل.. باچر راح نعرف عنك كلاشي.. وعشـر دفاتـر ما تسوـه  
شي.. خوش.. راح باچـر أخـلـيـك تـتـكـلـمـ وـيـهـ أـخـوـكـ مـرـةـ لـخـ.

خرج المسلحون وأوصدوا الباب وراءهم فخيم الظلام على  
الغرفة. تلمس ماركس مكانه ثم اتكأ على الحائط، وشعر بثقل  
يرزح فوق صدره العليل. أحس بدبيب حشرة فوق ساقه  
فقصعها بإصبعه، دون أن يعرف نوعها. وبدأ طنين  
وصرصرة الحشرات يملأ الغرفة، ونقيق الضفادع في الساقية  
القريبة يتعالى وكأنه ضجيج لبدء معركة طاحنة. تسربت إلى  
أنفه رائحة شواء فتقاسـتـ معـدـتهـ جـرـاءـ الجـوعـ الذـيـ بدـأـ يـعـتـصـرـ  
أمعـاءـهـ. أـثـارـتـهـ تـلـكـ الرـائـحةـ وـتـمـنـىـ اللـحـظـةـ لوـ أنهـ فيـ بـيـتـ أبوـ

نداء، يتناول الرز واللبن، وهذا ما يكفي الآن، لا بل يغنى عن جميع أنواع الأطعمة التي تناولها في حياته.

- رفيق جبار هل تعرف أين نحن الآن؟

- مو بال تماماً رفيق، ولكن أعتقد إنه كنا قريبين جداً من منطقة الصويره. ويمكن إنه في أحد بساتينها. وهي ليست بالبعيدة عن بغداد.

- أتعرف أن مثل هؤلاء لا يفاجئونني بأفعالهم، صحيح أنك تكتشف لديهم شيئاً من أفعال غرائبية، ولكنهم مثلاً في باقي الشعوب، وفي مراحل عديدة وفي فترات شروع العلاقات الاضطهادية، يتضح للناس المقهورة أن العنف المسلح هو السبيل للتعبير عن النفس، والحصول على الحقوق والمنافع، ولا تنسي أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام.

- رفيق هاي وين وذيج وين.. رفيق ماركس هذوله عصابات جريمة، قطاع طرق سراق، وهم جزء من القوة المتسلطة والمنتفذة في المجتمع اليوم.

- ربما مثلاً تقول، ولكنهم اختاروا هذا الطريق كرد فعل لمعاناتهم من البطالة أو الأقصاء، ورب ما يفعلونه جزء من خيار ضد الفناء الاقتصادي والمعنوي، وطالما ظهر أمامهم باب للنجاة من الفاقة، فهو يقصي عن تفكيرهم كل ما يوجه لأفعالهم من تهم وتشنيع، وأيضاً يتحول ضعفهم الذاتي إلى شعور بالقوة، ويتخذ السلاح دلالة سحرية بما يملكه من قدرة على الجسم وجلب الغنائم.

- لا غرابة في ذلك رفيقي العزيز.. فالفوضى والعشوائية والمحاولات غير المدركة للمهام، دائماً ما تميز البشر حين يصابون باضطراب مناهج التفكير، وسوء الفهم في محاولاتهم

لاكتشاف الواقع أو سبر أغواره، وهكذا بدلاً من العمل على تنظيم الواقع وتسوييرها بالسيطرة عليها، نرى البشر ينجرفون نحو حلول غير منطقية، وهذه الحالة ليست خاصية للطبقات المسحوقة أو الأمية، بل تظهر بين أوساط المتعلمين ومن يطلق عليهم بصناع القرار، فالعقل كان دائماً موجوداً ولكن ليس دائماً في شكل متزن.

فجأة سُحبَت السُّلْسُلَةُ الْحَدِيدِيَّةُ وَفَتَحَ الْبَابُ وَدَخَلَ رَجُلٌ قَصِيرُ  
القَامَةِ بِرَأْسٍ ضَخْمٍ يَحْمِلُ مَصْبَاحًا يَدُوِيَا. تَقْدِمُ وَبِيَدِهِ طَبَقٌ  
وَضَعُتُ فِيهِ قَطْعَتَا رَغِيفٍ وَبَعْضُ خَضْرُواْتٍ وَصَحْنٌ كَبِيرٌ مِّن  
اللَّبَنِ.

- هذا عشاقكم.. أعدرونه الباجة بعدها ما مستويه، والبزونه باگت السمجه.. أكلو وتریعوا.. وبعد چم يوم هم راح تگولون،  
ما احترمونا، وموتونا جوع وأضطهدونه.

- لا عمي.. خلفه عليكم وكثير الله خيركم.

هكذا أجاب الرفيق جبار ومد يده وتناول رغيفا راح يلوكه  
بعجاله.

- أگول.. أني چنت وره الباب أتنصل على حچيكم، هاي  
شنو جنتوا ترطنون.. أشو جبتوها خبط ولبط ولغوه ما بيها  
معنى.. ذكرتوني بمعلم الحياة من چنه بالمتوسطة، يلغى  
وينبغى ويدرم ساعنة ساعتين، وأحنه محد مفتهم منه شي..  
وكلنه بالأخير رسينا وجلقونه من المدرسة.. شوفو تره هذى  
اللغوه ما تنفعكم، أولاً أزقنبو.. ولمن أتعلمون بعد ما يدفعون

ربعكم المقسم.. هناك عد أهلكم آخر طو شَكْد ما بيكم خريط ولغوه.

أدار ظهره لهم وذهب وأوصد الباب خلفه لتعم الظلمة الغرفة، فراحت أياديهم تتخبط لتخطف ما تصل إليه من محتويات الطبق.

## ليلة الاختطاف الأولى

شعر كارل ماركس بأنه وضع وسط حديقة حيوانات، لما كان يسمعه من أصوات. لم تغمض له عين. فمع خفق اجنحة الحشرات في الظلام، يشعر وكأنها تحيط به من كل جانب. دنونة البعض لم تفارق أذنيه، ولسعها أخذ منه ما أخذ، ولكن ما كان يستفزه في هذا الظلام الدامس شيئاً، صرير الجنادب، وشخير الرفيق جبار. كان طيلة الوقت يهشّ الحشرات عن وجهه ويديه، ويدفع دببها بعيداً عن قدميه. وبين فينة وأخرى يضغط على كتف الرفيق جبار ل يجعله يكف عن الشخير، ولكن جبار يعاود الكرة بأقوى من السابق. سمع حديثاً هازلاً ترافقه ضحكات متقطعة لمجموعة رجال، تأتي أصواتهم من بعيد، ولكن شخير الرفيق جبار كان يطغى على جميع الأصوات.

في هذه الأيام القليلة التي قضاها في العراق، لم يستطع أن يجد تقييماً حقيقياً لما آل إليه الوضع، فالمفاجآت دائماً ما كانت تعترض لا بل تتسلم محاولة التقييم. في هذه الساعة وهذا الظلام، ورائحة روث البهائم التي تملأ الغرفة. تذكر كيف ألح عليه رفيقه فرديريك أنجلز وبعض الأصدقاء من الأطباء بالذهاب إلى الجزائر. كان سفره يتعلق بحالته المرضية قبل أي شيء آخر، فهو يشكو دائماً علة في الصدر. في الجزائر، وبعد التقائه

بذلك الطبيب الفرنسي، حاول أن يدرس الملكية المشاعية عند العرب. كانت محاولة لا طائل منها، بل عدتها تضليلًا لا يمكن الخروج منه بنتائج تستحق الاحتفاظ بها، فليس للعرب ملكية مشاعية، وفي نفس الوقت لهم منها الكثير، حينها شعر بالتناقض العجيب والغرائبية في المزاج العام والطبع المتنافضة. فكلما توغل المرء في تلك العوالم المتضادة، يجد في التوريات عالماً خاصاً للفرد ومثله للمجتمع. وفي العموم فقد كان منهاجاً غالباً لدى هؤلاء. فالعربي يضمّر الكثير قبل أن يفصح عما يريد. ينافق نفسه بنفسه، وفي ذات الوقت يوافقها ويرضيها، ازدواجية ليست بعيدة ولا غريبة عن ثقافة عامة، دجنت دينياً ومجتمعياً، فعاف الجزائر وعاد إلى لندن دون أن ينال فائدة تذكر، غير ذلك الانطباع السيئ جداً. وهو اليوم وفي هذه الغرفة المظلمة، ومع مزيج من النباح وطنين الذباب وأمامأة وثغاء الخراف وخوار البقر ونهيق الحمير، لم يصل لأية محصلة يستطيع من خلالها الحصول على ما يسعفه، للتعرف على طبيعة المجتمع العراقي، والقوانين والأخلاقيات الناظمة التي تحكم في مسيرته. ولذا يأسف أن تتخلل سفرته هذه ولقاءاته بلا جدوى، ليعود بذات الحصيلة التي غنمها في الجزائر، وهي الحيرة قبل أي شيء آخر، ومن الممكن أن يسمى فشلاً. ففي هذه الحيوانات الغريبة وانصهار البشر فيها، تراهم يتوحدون معها، ولن يجدوا أنفسهم دونها أو بعيداً عنها، عالم متتصارع، متناقض، ولكنه متواافق، ومتواائم مع كينونتهم، ولذا لن يزهر بينهم غير المؤس، ودائماً ما تهرب عنهم السعادة ويتوطّن لهم الضياع.

دفع الرفيق جبار شخرة قوية اختلطت بحسرة أفرغها صدره، وكأنها كانت حبيسة سنوات. ثم استيقظ واستدار واعضاً يده تحت خده الأيسر.

- رفيق ماركس.. هل انت مستيقظ؟

- لم أستطع النوم فالسرير لم يكن يوائم جسدي، والوسائل ريشها ناعم جداً.

- كنت في حلم مزعج جداً..

- أحسدك على قدرة النوم والشخير والاحلام.

- لقد أخذوني نحو النهر وهناك قيدوني وأحاطوا جسدي بالحبال، وعلقوا بجسدي صخرة كبيرة وثقيلة، وهموا بإلقاء في النهر. كنت أنت واقفاً تنظر نحو بيرود، لا بل ترسم على شفتيك ابتسامة ماكرة. والغريب أن هيئتك كانت غريبة جداً، فرأسك حليق بالموسى، ووجهك دون لحية، وشاربك الكث فقط هو الباقي. سألتكم رفيق ما الذي حدث لك، من الذي حلق لك شعرك، فأجبتني بضحكه قوية قائلاً، لا عليك.. لا تهتم للأمر، اذهب وارم نفسك في النهر، ولا تدعهم يفعلون ذلك بدلاً عنك. قلت لك.. رفيقي ألا تستطيع إنقاذي، فأنا سوف أموت؟ فأجبتني بحدة.. يضررك قزولقورت.. فسحبوني نحو النهر فشعرت بالاختناق وصحوت.

- هذا كابوس وليس بحلم.. أعتقد أنه جراء الوضع الذي نحن فيه. فقط أتساءل عن معنى يضررك قزو وهكذا..

- قزولقورت.

- نعم هذه الكلمة....

- الكلمة تعني أنني غير معني بما يصيبيك.

- رغم كونه حلم، ولكن لا أعتقد بأنني سوف أقف معك مثل ذلك الموقف السخيف.. وهل رميتك نفسك في النهر؟

- لم أكمل ذلك.. لقد استيقظت قبل أن يحدث الأمر. فلن أدعهم يفعلون بي ما يتمنونه لذا استيقظت.

بدأ صباح مجموعة من الديكة يترنم على التوالي بتسليسل متناغم، مع نباح جوقة من كلاب. وعند أول معالم الفجر التي ظهرت شم الرفيقان رائحة الخبز المخلوط بالدخان تتسرّب إلى الغرفة فراح يحلمان بفطور قادم.

bzg نور الصباح فامتلأت الغرفة بالضوء. فطالع الرفيقان بعضهما بعضاً. فجأة وبصحبة ضحكة مكتومة ودهشة ظاهرة، راح الرفيق جبار يطالع وجه كارل ماركس

- ما الذي حدث لك رفيق ماركس، لقد تحول وجهك إلى خارطة عجيبة.

- حتماً فقد بت ليلاً في صراع مع البعوض.

- رفيقي.. البعوض في العراق يعشق لحم الأجانب.

- ربما سحب مني قنينتي دم في هذه الليلة المشؤومة.

- البعوض العراقي يحب الدم الأجنبي، ولكن المصيبة أنه يتلذذ أيضاً ويعشق دم أبناء العراق، وتراه يمتصه بصمت وهدوء دون إثارة، وهو في عمله هذا لم يعد ورفيقه الذباب

يحسبان لنوع دمنا حساب، إن كان شيعياً أو سنياً أم كردياً. ورغم ما ينقلانه من أمراض، فقد توطنا فينا ومعنا، وهما مصيبة صغيرة جداً من مصائبنا. ألم أقل لك إن الجميع يلعب بنا شاطئي باطي.

أطلق كارل ماركس ضحكة خافتة، سرعان ما كتمها بيده. عند تلك اللحظة، انزلقت السلسلة الحديدية عن إطار فتحة الباب، مصدرة أصوات صرير مزعج. انفرجت فتحة الباب، فدخل أحدهم وطلب من الرفيقين النهوض، ثم أصطحبهما خارج الغرفة وأشار عليهما بالجلوس عند تخت متهالك وضع قرب الباب.

أمامهما يمتد بالعمق البعيد بستان نخيل كثيف، وثمة امرأة في الجانب الأيسر من الساقية الصغيرة، تقف خلف تدور وقربها يقف رجل يلتهم رغيف خبز، وينظر نحوهما بتركيز بائن، وكأنما ينبههم لوجوده كمراقب. وثمة ثلاثة كلاب نائمة عند حافة الساقية، يبدو أنها في إغفاءة، بعد أن كانت تصول وتتجول وتتباح طوال الليل. تحرك ماركس محاولاً لملمة جسده، فقد شعر بلسعة برد الصباح، رغم أن الموسم كان صيفاً، ثم همس لرفيقه جبار.

- أليس باستطاعتنا الهروب الآن..؟

- وإلى أين نتجه رفيق ماركس.. هل تستطيع أن تدلنا على طريق.

- إلى أي مكان يمكننا الإعتماد به من هؤلاء الأوباش.

- إنهم سلسلة من عصابات خطف، تمتد أذرعهم بين أبناء جلدتهم في هذه المناطق، التي هي مجموعة كبيرة من بساتين. وإن كنا اليوم بيد هؤلاء، فربما يضعنا هرولنا بيد أو باش أشد قسوة منهم.

- وَهُلْ نَسْتَلِمْ؟

- وهل لديك طريقة للخلاص..رفيقك إن أردت الهروب  
فيضر بك قزولقورت، وأنا باق هنا لحين ما يجد أهلي مخرجا.

- عدنا لهذه الكلمة قزوغرق..

- نعم قزولقورت وتعني أني غير معني بما يصيبك إن هربت.

- أشعر أن معناها ليس يمثل ما تدعيه

فضحك الرفيق جبار ضحكة تتبه لها الرجل الواقف جوار التنور، فتحرك رافعا طبقاً معدنياً كبيراً وضع فيه صحن يحتوي على لبن رائب وقطعة زبد وأربع أرغفة خبز، ثم تقدم نحو ماركس وجبار، ووضع الطبق بينهما، وانسل بعيداً ليشعل سيجارة راح ينفث دخانها بكثافة، ويراقب كيف كانا ينهشان الخبز ويأكلان بهم.

- گلی رحمة الوالديك .. يمته يجي الحجى أبو بشير؟

سأله الرفيق جبار الرجل الذي يقف بعيداً وهو يطالعهم.

لیش، شتر ید منه؟

- مو جماعتى البارحة گالۇ.. هو راح يقرر شيسوی ويانه.

- إيه هوه يقرر..
- زين وهو يمنه يجي...؟
- إيه هسه أنت ليش مستعجل.. هيه شكتين لو طريقين مو غيرهن..
- شنو طريقين الخاطر الله.
- شوف أنت وصاحبك هذا أبو كففة الأجنبي.. لو تسيسون بالنهر وهاي طريقة.. لو أطلعون سلامات بعد ما يدفعون ربكم المقسم.
- إيه غير يجي الحجي حتى يحچي فيه أخيه.. أني مو أنطيتكم التلفون.
- عمي لتدوخني.. الحجي أبو بشير اليوم من الفجر راح للجامع وما راح يرجع إلا بعد صلاة الظهر. إيه هسه أكلوا أو وصوصو، وبعدين فكرروا شراح نسوبي بيكم.. ترى التفكير الهواي يأثر بالأعصاب.
- إيه ماكو غير أبو بشير يقرر.
- حجي أبو بشير وما كوا غيره.. كافي عاد لتدوخني.

\* \* \*

مضت ساعات ثقال قضياها في النظر لما يدور حولهما. تلك الحياة الفلاحية البسيطة الخشنة، تخفي خلف ستائرها من الخضراء الثقيلة الكثيفة، عالماً غريباً متواحاً تنفلت أطرافه

بتناfair عجيب، ولم يشهد بعد إنتاج قيم ثابتة، يرتكن لها على مدى عقود طويلة، لا بل العكس، فقد سحبته أقداره نحو أنماط غريبة من علاقات مشوهة، أربكت الأرواح وجعلتها تتخطى في دوامة لا نتائج يرجى منها. فكل شيء في هذا المجتمع متصل وهزيل ومحطم، والهويات تتغير، بل تُركب بفعل الخوف المجتمعي أو السياسي، ويتقدم عليهما اليوم الخوف الطائفي. قفزة أو خطوة نحو التمدن والحضارة، أعقبتها ارتкаسات بقفزات واسعة نحو التخلف. تراني لم أجد الوقت، أو لم أبذل جهداً كافياً في البحث داخل الطبقات الاجتماعية بتشكيلاتها وانحدارات فئاتها البدائية، واعتقد أنني لم أبذل جهداً طيباً، في تفكير خاصية الوعي المحلي الديني والطائفي، الراسخ في طبقات المجتمع الدنيا، وبالذات العمال والفلاحين منهم، وهل تراني غفلت عنه ولم التفت بعناية لخصوصيات المجتمعات المركبة المتعددة الديانات والطوائف والمتناحرة، رغم كونها من عرق واحد، وتعيش في رقعة جغرافية جامعة مثلما أراه الآن. هل كان هناك قصور في جدلية المادية التاريخية، وإنها لم تستطع بشكل كامل وناجز، اكتشاف الأسس الموضوعية المادية الناظمة لمجمل الحياة الاجتماعية، ولم تصل بعد لقدرة إيضاح جوهر وقوانين المجتمعات البشرية المتعددة والمتنوعة. أم ترى هؤلاء الذين أعيش بينهم اليوم، من طينة أخرى غير التي عرفتها؟

هكذا فكر ماركس، وهو يتبع دبيب طابور نمل يسير برتابة ودقة قرب حذائه، ليختفي في جحرة الصغير داخل جدار الغرفة. لم يرغب في تحريك قدمه خوفاً من أن يؤثر في

مسيرة هذا الطابور، ويشتت نسقه الجميل. سمع صوت سيارة قادمة توقفت في الجانب الآخر خلف الساقية التي مروا فوقها بالأمس. جاء الحاج أبو بشير برفقة ثلاثة رجال، لم يكن بينهم من يحمل سلاحاً. ساروا نحو البيت المجاور وسمع ماركس ورفيقه جبار جلبة ثم ضجيج أصوات، أعقبه ضحك عال، خرج معه الحاج أبو بشير ورجاله وجاء ليقف أمامهم قائلا.

- جبار هاي تكول ما عندي، وشدعوه، وأني خطيبة كاسب فقير... أشو طلع عندك فندق، ومحل بيع عطور، ومحل لاخ بيع تلفونات وكارتات، والله يعلم شنو بعد. شوف أني حچيت اليوم ويه أخوك.. إذا ما يدفع باخر عشر دفاتر راح يلگيك مسيس بالماي. وأنت گله وشجه على الدفع، لأن هاي المصلحتاك. هاك التلفون وأحچي وياه.

أخذ جبار الهاتف وراح يضغط ببطء على أزرار رقم أخيه، سمع صوت أخيه وكان الارتكاك ظاهرا على صوته.

- منو؟

- أني جبار.. يابه يمعود شيردون أدفع لهم بس خلصني تره هذوله ناوين على شر.

- زين اني گلتلهم أنطيمكم ست دفاتر بس ميرضون..

- يمعود أنطيمهم شنو يردون.

- خوش.. صار.. معليك أني أدبرها وياهم... أنته اشويه أصمد والله كريم.

- شنو أصمد.. يمعود مو محل إعناد أني أگلاك أطيهم.

- أَيْ مُو گَتَّالَكَ صَار..

سحب أحد رجال الحاج أبو بشير جهاز الهاتف النقال من يد  
الرفيق جبار وسلمه للحاج أبو بشير الذي قال مهاتفا.

- ها سمعت أخوك.. أنت تريده مسيس بالشط لو يمك  
بالبيت.

- يمعود الخاطر الكعبة بروح النبي عوفوه.. أني محضر لك  
ست دفاتر.. هاي الگدرت أجمعهن، يا به وربك المعبد ما  
گدرت أجمع غيرهن.

- الظاهر أنته مو أدمي.. وأنت تريد أخوك يموت حتى  
تحوش على كلشي.

وفجأة أغلق الهاتف وضغط زر الإطفاء.. فسأله جبار أن  
يفتح جهاز الهاتف، لعل أخيه يعاود الاتصال فقال الحاج أبو  
بشير

- هذا مو شغلك.. إحنه نتصل إذا ردنه..

أنسحب ابو بشير ورجاله تاركاً كارل ماركس والرفيق جبار  
مكاهما وكان المساء قد بدأ بالهبوط ومعالم الغسق تضرب  
حرمتها فوق هامات النخيل، وضج المكان بنباح الكلاب وثغاء  
ومأمأة الخراف ونهيق الحمير.

\* \* \*

فدندن ماركس مع نفسه.

- ليلة أخرى في السيرك.

- ماذا قلت رفيق؟

- لا شيء.. هذا لا يعنيك ويضربني قزوذوق.

ضحك الرفيق جبار لما بدر عن الرفيق كارل ماركس، ولكنه تسمم فجأة وهو ينظر نحو رجال الحاج يتقدموه نحوهم شاهرين أسلحتهم. تقدم أحدهم وسحب رفيق جبار من يده وطرحه أرضاً، ثم جاء آخر وشده من قميصه رافعاً إياه ثم سحبه معه. عند تلك اللحظة تثبت ماركس بجسد الرفيق جبار، وطلب من الرجل المسلح أن يتركه لحاله، ولا يأخذه أو يؤذيه، ولكن رجل مسلح آخر استدار وضرب ماركس بقوة بأخص البنادقية فوق ذراعه الأيسر. شعر ماركس بشدة الضربة، فمال جانباً وسقط فوق التخت، فرفعه أحدهم ودفعه داخل الغرفة. سار الرجل ساحباً الرفيق جبار باتجاه الغرفة المجاورة حيث يجلس الحاج أبو بشير. وقفوا عند مدخل الغرفة بانتظار أن ينهي الحاج أبو بشير صلاته ويرفع راسه. بعد عدة دقائق أنهى الحاج صلاته وسلم على ملائكة الرحمة القاعدين عند كتفيه.

- اتقبل الله حجي.. قالها الرجال المسلدون

- شكرنا ولدي.. ها جبار شدگول؟ قبل شويه چنت أحچي  
ويه أخوك، هذا راكب راسه.

- حجي... شگول هي الدنيا وحياتي صارت بيديك.. بس  
بجاه الله إلي صليتله أنته قبل شويه.. أني صاحب جهال  
وعائلتي جبيره.. بجاه هاي المسيه عليك وإن شاء الله يتقبل

صلاتك وأعمالك.

- ليش إحنه ما عدنه عوائل.. بس أنتم.. تقبل إحنه نموت من الجوع وأنتم تتونسون بالولاية.. تقبل أنتم تلبسون قوط وتركبون سيارات وإحنه حسرة علينا المي الصافي. تقبل أنتم تنامون جوه المبردات وأحنه كاتلنه الحر.

- اي حجي قابل أني سببه..

- شمعرفي منو سببه.. گله الأخىك الجماعة يقبلون بثمن دفاتر، والباقر إذا ما وافق فأحنه ما نتحمل، وذنبك وخطيتك برگبة أخوك هو اللي سبب موتك.

- حجي هاي مثل سالفة مقتل عمار ابن ياسر... أندبت براس الفئة البااغية، بس منهى الفئة البااغية هاي حزوره؟

- أنچب لك لتنفس، وتصير براينا مطي روزخون.. إنته وعمار شنو.. راح أطيك التلفون وإحچي ويه أخوك.. گله الجماعة يگولون ثمن دفاتر بال تمام والكمال، لو أنطگك بالدهن.. وهذا آخر إنذار.. خوش.

تحدث جبار مع أخيه وكان الأخ يصر على الستة دفاتر وجبار يتسلل به أن يجعلها ثمانية، وبعد نقاش ليس بالقصير، أخذ حجي أبو بشير التلفون وراح يتحدث مع أخي الرفيق جبار، وطال بينهما الحديث ثم أغلق الحجي التلفون قائلاً.

- هذا شلون حقنه.. زمال يابس مثل سير النعال.. ما قبل وعاند.. بس مخالف اتفقت ويه هذا الطايج حظ على سبعة دفاتر.. وباقر راح انشوف شلون نتفاصل وياه على التسلوم.

أعاد الرجال المسلحون الرفيق جبار إلى الغرفة لياتحق بالرفيق كارل ماركس ثم رجعوا إلى غرفة الحاج أبو بشير.

- حجي من نستلم الفلوس نسلمه ألهم مطبوخ لو مسلوك..

ضحك الحاج ضحكة قوية.

- ولك راضي شكد إنت أتحب الكتل.. ما شبعت.. إيه دعوف هاذى السالفة.. نأخذ حاجاتنا وياخذون رجالهم.. خلي شويه رحمة الله بـكـلـكـ.

- حجي مو شافنه ويمكن عرف المكان.

- خلي يروح وين ما يريد يشتكي.. اشو عنده هوایة بالحكومة ربع.. بعدين إذا أشتكي أخلي يزوع فلوس وره فلوس، فصل عشائر وره فصل.. أنه منو ولك؟ نسيت سالفه المقاول أبو غانم.. مو خليناه ليهسه يدفع عيديات وهو الممنون.

- حجي والنعيم والثلاث أنعام عمي أبو بشير.. أني گلت گص راس موت خبر.

- لا.. مو بكل الحالات.. إذا نريد نوعع، لو من تعصه، هذاك الوكت مخالف.

عاد الرفيق جبار وجلس جوار الرفيق ماركس، وكان شبح ابتسامة يرتسم على محياه. دفع بظهره ليلتصق بالحائط ومدد قدميه وأرخي جسده. فكر بالذي حدث وشعر ببعض الراحة، ولكنه لم يكن مطمئناً لما سيؤول له الأمر. فمن الساعة حتى الغد هناك الكثير من التقلبات. فقد كانت بادية على وجوههم علامات الشر، وعباراتهم متعصبة وسمجة، لا بل كانت

جارحة، تصدر عن شراذم لا صلة لهم بالبشر. أما ما سمعه من إتفاق مع أخيه، ما كان حتى هذه اللحظة ليتوافق وحديث هؤلاء، المفرط بالقذارة وال بشاعة واحتقار الناس. لم ولن يكون مطمئناً حتى يرى الشوارع، ويعود حراً منطلاقاً يسير فيها، وليجد في أحضان أهله دفء الحرية، التي يشعر الآن أنها بعيدة جداً عنه.

- ما الذي حدث رفيقي جبار؟
- إتفق رئيسهم مع أخي.
- لماذا إتفق؟
- أن يعطيمهم سبعتعالاف دولار مقابل إطلاق سراحه.
- جيد.. وأنا ماذا سيكون مصيري؟
- والله رفيق ما أعرف شنو أجوابك.. هذوله يتعاملون بالفلوس.
- ومن يملك النقود ليفتديني بها..
- راح أخبرهم بضرورة الاتصال بالسفارة الألمانية.. عسى ولعل يستطيعون المساومة معهم على حياتك.
- السفاراة الالمانية كيف تفكرون بذلك؟
- قالها ماركس وانفرجت أساريره عن ضحكة شاحبة ارتسمت فوق وجهه الشاحب المطرز بالعديد من لسعات البعض. ولكن جبار بادر قائلاً.
- نقول عسى ولعل... وأنا تلمست عند هؤلاء الأوبرايش

وجود شيء ولو ضئيل من ارتخاء، أعتقد.. المبلغ سوف يجعلهم يتخلون عن قتلنا.

- وهل أنت متأكد من ذلك؟

- لا.. ما متأكد بس نگول عسى ولعل.. لنرى ما يفعلونه غداً.

كم من يريد أن يبعد عن ذهنه ذلك الغم الذي خيم على صدره بثقل غير عادي، دس أصابعه في جيب سرواله وأخرج طرف رغيف لين احتفظ به منذ الظهر. راح يكوره بين أصابعه، ويصنع منه كرات صغيرة، ثم يعيد تشكيلها إلى مكعبات ثم يعيد تركيبها على شكل مربعات، ولكن مثل تلك اللعبة الصغيرة لم تكن لتجعله يبتعد بتفكيره عن هذا المكان الموحش الضاج بالحشرات والروائح العطنة، ولم يدع تفكيره يسرح بعيداً عن يوم غد، الذي يتقرر فيه مصير الرفيق جبار، وربما يكون هناك حل لوضعه هو أيضاً. هل تراه ينجو من الموت أم سيكون قدرأً مكتوباً عليه. ترى كيف يكون وضع الغد معه بالذات. ما الذي يفعله هؤلاء الأوباش ليňهوا حياة نضال كرسها لأمثالهم، واحتضن قضيتهم وعاف كل شيء ليجلify لهم معالم طريق. ياترى أعلى هذا سوف يعاقبونه؟ يجر جرونـه نحو النهر ثم يفرغون فيه ثلاثة طلقات أو أكثر ويرموـنه في نهرـهم القذر. إنه ثمن بخـس لتلك الحياة التي كرسـها وجهـه فيها ليصنع للناس غداً مـشرقاً أـفضل. لقد جـبل قـلبه وقدـ من قـرمـيد، لـذا فهو لا يهـابـهم، سوف يـقف قـبـالتـهم ليـلقـنـهم درـساً بـقيـمـ النـبالـةـ والـشـرفـ. ولكن مـثـلـماـ قالـ الرـفـيقـ جـبارـ هـؤـلـاءـ منـ طـيـنـةـ أـخـرـىـ،ـ غـيرـ طـيـنـةـ

البشر التي يعرفها، لا يدرى إن كان هذا ينفع معهم، أم إن الدم المراق كان بالنسبة لهم مثل الجاذبية الأرضية لا فكاك منها. هؤلاء مثلاً بحث اليهودي عن قدر اللحم الفرعوني هرباً من تعاليم موسى، فهو لاءٌ يسرقون وينهبون ويقتلون ويغلوون في فواحشهم ولوثاتهم، لكي يهربوا من دونيتهم وذلهم، الذي ينكشف ويتعري أمام الآخرين، ليجدوا في الجريمة ما يشفى غليلهم، ويعطى لهم الثروة، وفي الوقت ذاته يشعرون بعدم الحاجة لمفاهيم النبلة وقيم الشرف.

كانت الحجج والأفكار عن الاعتقاد والممكن، ومثلهما الطموح والأمال تهبط عليه مثل قطرات مطر ثقيل، يقرع رأسه دون فكاك. الساعة تحضره زوجته بيرتا. فقد كانت محبوبته والنموذج المميز في حياته، فهي الوحيدة التي كانت تعلم مسبقاً بأنه شخص غير عادي، وسوف يكون بسبب أفكاره مضطهدًا مطارداً، وكانت شاهداً على كونه مطارداً من السلطات، ولكنها لم تعافه أبداً. ولكن لم يخطر في بالها على الإطلاق أن يكون حبيساً لدى لصوص قتله يتاجرون بحياة البشر، مثلاً هو عليه اليوم.

Herb إلى باريس ثم طرد منها، فانتقل إلى لندن فكانت رفقتها مفعمة بالحب الصلد الموثوق. عندما توفيت ذهب برفقة أولاده الستة يحملون جنازتها، كان منكوباً يعتصر الألم قلبه وتمزق صدره اللوعة. عند قبرها تعثر ووقع في حفرة، فأصيب برضوض في أجزاء مختلفة من جسده، بقي طريح الفراش لفترة طويلة، ذلك اليوم شعر بتصدع في روحه، إذ فقد

بيرتا حبيبته وسنته، وشعر مثلاً الآن، بأنه فقد منبع سعادته ومصدر قوته، وهو بحاجة إليها الساعة بكمال جوارحه، لتدعه وترافقه في هذا الطريق الوعر. ذكرى بيرتا لا يمكن أن تفلت من ذهنه وقبل ذلك من قلبه.

إنه يعرف جيداً أن هؤلاء اللصوص الذين يختطفونه والرفيق جبار، مثلاً غالبية القراء في العالم، هم نتيجة الطبيعة اللا إنسانية للاستغلال من قبل رأس المال، وبدلاً من أن يكون نشاطهم الاجتماعي والاقتصادي بناءً وفي خدمة المجتمع، يخلق الرأسماليون في سعيهم وراء الربح مثل هذه النماذج، التي تمارس الصراع وتفرضه فيما بينها وكذاك بين القراء. ولكنه حتى وهو يبحث ويفكر في هذا، تراه الآن يشعر بالحيرة أمام سؤال كبير واجهه في العراق منذ اليوم الأول لوصوله، يا ترى هل هناك رأسمالية ورأسماليون في العراق؟ وأين الطبقة العاملة من كل ذلك؟ ويا ترى ما طبيعة التركيبات الطبقية؟ وأين يكمن أو ينفجر الصراع الطبقي؟

كان كارل ماركس يتنقل بفكرة من محطة إلى أخرى دون رحمة بنفسه، كان يريد أن يستحضر شريط حياته، ليجد في هذا وداعاً أخيراً لمسيرة ما شعر بغير حرارتها وعنوانها والتي تلبسته وما زالت.

طلع الفجر وارتقت بعده الشمس عالياً وتسرب ضوؤها الساطع خلال شقوق الجدار وفتحة الباب.

كان جبار مازال يعزف نشيد الإنشاراد في عزف منفرد على الشخير، الذي ما انقطع طوال الليل. ولم يكن لنعماته القدرة

على قطع سلسلة أفكار الرفيق ماركس ولكن سطوع الشمس  
أجبر جبار على الاستيقاظ.

كان وجهه مجعداً مثل أرض بوار قطع عنها الماء فعاشت  
بياساً. كانت عيناه مسبلتان لا تریدان ترك النعاس. لقد أعطوا  
أخاه الحق في اختيار مصيره، بين أن يموت أو يطلق سراحه،  
كان فرحاً بعد أن اتفق اللصوص على قبول الفدية، فراح في  
نوم عميق. استيقظ الآن ويود أن ينفذ الاتفاق دون أبطاء. ولعل  
ما يحز في نفسه أنه خيب آمال ذلك الرجل الذي جاء صادقاً  
يحمل نوايا طيبة ليشاطرهم آلامهم وأحلامهم ويضع لهم حلولاً  
لمحتفهم وعثراتهم، ولكن القدر دفع به إلى أحضان عتاة  
المجرمين.

سحبت السلسلة الحديدية ثم فتحت الباب ودخل رجلان يحملان  
أحدهما رغيفي خبز وضع فيما قطعنا جبن سلمتا إلى الرفيق  
ماركس والرفيق جبار.

لم يكونا في عجلة من أمرهما، فليس هناك ما يفتح  
الشهية، لذا تبست أصابعهما وهما يمسكان بقطعتي الرغيف.

- أتزقنو.. جبار أنته بعد شويه تجي ويانيه أنسلمك الأخوك..  
بس إذا لعب بذيله لو الفلوس مو جاهزة، خلي صاحبك هذا أبو  
كشفه يقره الفاتحة عليك بالإنگليزي لا، لا بالالماني أحسن.

- لا إن شاء الله أخيه دبرها... خلي نروح هسه.. ما أريد  
أكل..

- بكيفك.. خاف الشغله أطول وتموت من الجوع.

- مخالف بس رجعني الألهي.

- زين گوم.. توکل على الله ..

سلم جبار رغيف الخبز لکارل مارکس وعائقه وأطال  
عائقه.. تسللت دمعة حری من عینیه وانسابت

لتسقط على كتف الرفيق مارکس.. شد بساعدیه وطوق رقبة  
مارکس وهمس في أذنه..

- أذرني رفيقي العزيز.

«AlYaa» مجلہ رات «الیا» بیان

# الشعب الألماني يتحمل خطيبتك

شعر كارل ماركس بحزن ثقيل خيم على قلبه، وانتابته مشاعر النأي عما يحيط به، غريب عن عالمه، بعيد عن واقعه، وبمرور الوقت كان هذا الشعور يوسع شقة التباعد فتزداد معه العزلة، ورويداً رويداً، باتت هناك فجوة نفسية تبعده عن الواقع، فيعيش هذا التلازم بالوحدة والتغرب. التغرب النفسي يجعله يركز في عزلته هذه، على التمايز بين الوجود والجوهر، وهو هو الوجود يلتبس لديه، فيشعر بالحاجة للنأي عن مثل هذا الموقف، ولكن كيف وهو وحيد معزول في هذه الغرفة الرطبة العطنة المظلمة، لم يعد تفكيره قادرًا على استيعاب سبب وجوده فيها، أو الأحرى ما هو مستقبل وجوده. الاغتراب ليس مجرد مفهوم أكاديمي وللدراسة فقط، بقدر ما هو مشاعر تتلبس الإنسان، ويمكن ملاحظته في كل جوانب الحياة اليومية. لقد عافه الرفيق جبار في هذا المكان الموحش دون إكمال شوط الرفقة. ورغم مساوى الرفيق جبار الكثيرة فقد كان وجوده ضروريًا جدًا، لا بل كان يحمل الكثير من المعاني. على الأقل مع حضوره، لم يكن ماركس ليشعر بوجود فجوة نفسية كبيرة تبعده عما يحيطه، وكان يجاهد، وأيضاً بسبب وجود جبار، ليكون قريباً من الآخرين، ولم يفتقد بالكامل روح تقبلاهم على علاتهم، وكان ممكناً له من خلال الرفيق جبار التقرب من شبكة العلاقات الاجتماعية العراقية،

وتوطيد الصلات مع أصدقاء ورفاق عديدين، باستطاعتهم أن يألفوه، حتى يحبوه مثلاً يحاول بدوره أن يفعل ذلك. ولكن الآن بعد أن انفرد بنفسه، وشعر بالفراغ المكين الذي يحيطه، لم يعد يستطيع التفكير بالذى سوف يحدث له في قادم الأيام، وهو الغريب البعيد عن وطنه، ولم يعد له من يتواصل معه.

الأجنبي أبو كفشه هذا ما يطلقه عليه هؤلاء المجرمون. ربما أن أسهل الطرق لديهم ولابعاد أي شعور بالضجر أو التردد، أو افتضاح أمر أفعالهم، لهذا سوف ينجزون مهمتهم برミه جثة مقيدة هامدة في النهر القريب، الذي ودعوا به الرفيق جبار قبل الآن. هؤلاء اللئام الأراذل، لن يشعروا للحظة واحدة بتأنيب ضمير، فهم يرتكبون جرائمهم وينامون ملء جفونهم، بينما ضحاياهم يرتدون خوفاً في انتظار المجهول.

ها هو اليوم الأول مضى برتابة ثقيلة ومؤلمة، شعر فيه ماركس بقدرة الوحدة على الضغط وتفكيك مقاومة الروح ووضعها في حالة قاتلة ومدمرة من الرثاثة والهشاشة. مضى اليوم ولم تحصل فيه أحداث استثنائية، وبنفس الرتابة كان ضجيج أصوات الحيوانات، وتناول رغيف الخبز أو صحن الرز مع اللبن أو الخضرة وشيء من زبد. إبعاد الذباب وباقى الحشرات أفعال روتينية مرت دون أن يشعر بقيمتها أو حتى تأثيرها، وكل ذلك دون وجود الرفيق جبار الذي كان يتتسابق معه لإشباع البطن.

يا ترى هل هم فقراء إلى هذه الحدود، مما يجعلهم يمتنعون ولو لمرة واحدة عن جلب وجبة دسمة من غداء أو عشاء؟.

بخلاء رغم تعاملهم بآلاف الدولارات التي تدرها عليهم جرائم الاختطاف والسرقات، أم تراهم يفتعلون هذه الحالة فقط مع ضحاياهم، وفي نفس الوقت يتناولون طيب الطعام في غرفهم القريبة من مكانه.

- أنت من يا بلد؟

- أنا من المانيا.

- ألمانيا وين تصير؟

- بأوربا.

- أها.. هاي كلش بعيده.. وانت شتسوي جاي للعراق؟

- أني خبير بالآثار وذهبت إلى الناصرية للاطلاع على الآثار السومرية.

- شنو أدور عظام الميتيين؟ هاي غير شغله فاگسه.

- لا أبحث عن آثار أيضاً.

- وشنو راح تستفيد من الآثار؟

- حتى نعرف التاريخ.

- هسه متگلي شنو مستفيدين إحنه من هذا الوگت حتى تجي أنته أدور لنا بالتاريخ.

- معرفة التاريخ مهم للعالم مثلما مهم للعراق.

- والله أبو كففة وروح بيبيتك، وداععت هاي اللحية المعثگة،  
محمد سلگ أبو العراق غير التبuous بالتأريخ المصخم.

- لا أعرف عن ماذا تتحدث. ولكنني أعتقد أن هذه ليست مشكلاتكم الوحيدة.

- عمي عوفنه من الحچي هذا.. باچر راح أبو بشير يطلب فلوس من السفاره الالمانيه حتى نطلعك ونرتاح.

- وما مقدار المبلغ الذي تطلبوه؟

- هذا شغل عمي حجي أبو بشير.

- وإذا لم تقبل السفاره دفع المبلغ؟

- طبيعي أنطڭڭ بالدهن.

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني تسليس بالشط.

- لا أعرف ماذا تقصد من كلامك هذا.

- شوف أبو كفشه.. مخلص الحچي إذا السفاره ما تدفع يعني أنت تموت.

هكذا كان يدور الحوار بين كارل ماركس وأحد المسلمين الذي جلب له صحن الطعام مساءً، حين انفرج باب الغرفة ليدخل ثلاثة من المسلمين، طلبوا من كارل ماركس الوقوف ثم اقتادوه إلى الغرفة الأخرى.

كانت غرفة مؤثثة جيداً، وهناك منضدة خلفها كرسي وعند زاويتها اليمنى تلفزيون كبير، وثمة مكتبة تحتل جدار الغرفة عند المدخل، وفي جهة اليسار من المنضدة تقف ثلاجة كبيرة بلون رمادي باهت. لوحة لريف أخضر النخيل تمتد خضرتها

في عمق غابة بعيد، علقت خلف أبو بشير الذي جلس وراء المنضدة بثوب أبيض وغطاء رأس أبيض مرقط بمربعات حمراء صغيرة.

- أرسلنا إلى السفاره الألمانية نسخة من جوازك وصورة ألك وأنت عدنا هنا بالغرفة، وياهها معلومات عن وضعك، وضعها أحد أصدقائنا في صندوق بريدهم، وبلغناهم بأننا راح نتصل بيهم بوگت لاخ، بعد أن يشوفو صورتك وجواز سفرك وطلباتنا التي سجلناها إلهم.

- وما الذي طلبتموه منهم؟

- قيمتك كبيرة حجي كارل ماركس.. بس الكفشه تسوه مليونين.. أنت جاسوس إسرائيلي ومسوي نفسك خبير آثار.

- جاسوس إسرائيلي؟!

- نعم جاسوس يهودي صهيوني، أنتم أعداء الدين الإسلامي الحنيف، خنازير.

- وعلى ماذا أتجسس وكل شيء مكتشوف في العراق، وفيه جواسيس كبار وكثار فما نفعي أنا؟

- هاي مو شغلتك وباجر راح كلشي يبيين.. أني سأتصل بالسفارة الألمانية ونشوف شگد سعرك.

- لا تتعبوا أنفسكم.. فلن تحصلوا منهم على شيء يذكر..

- شنو قصدك؟

- لن يبادلوني ولو بدولار واحد.. فهم يعدوني عدواً لهم..

- شوف لك أنتم كلكم فرود وخنازير، ما ينعرف منكم الصدگ من الچذب.. كفرة ملحدين.. إذا چيك هذا طلع صدگ فراح أتعل سلفه سلفاك.. أسلگاك سلگ، أنتف لحيتك وأهلس كفشتاك، وچماله متريد تكول شنو أسباب جيتك للعراق؟

- إذا كنت تريدين قودا بديلا عنى فلماذا تسأل عن مهنتي؟

- لتعيق شنو اسألك تجاوب.

- سبق وأن أخبرتكم، أنا عالم آثار..

- علينا.. على أساس لوتي وما ينحرر.. يوم يومين وراح نعرف كلشي.

- مازا تريدين أن تعرف؟

- أنت منو وليش ولمذا أنت في العراق؟

- أنا عالم آثار..

- أخذوا رجعوا لمكانه.. هذا ما منه فايده.. هو وحظه باصر..

- أليس بالإمكان أن أبقى هنا قليلاً وأن نناقش سبب اختطافي؟

- لك صدک أنته قشمر.. ليهسه ما تعرف ليش خطفناك.. ليش أحنه دنلوب وما عدنـه شغل، ولأنـ أنته عندك كفشه وأبيضاني وعيونك صفر، وعلى مودـ هذا خطفناك.. مو صاحبكـ هـهـ گـاـعـدـ يـمـ أـهـلـهـ بـعـدـ ما دـفـعـ سـبـعـتـالـافـ دـولـارـ.. سـفـارـتـاكـ تـدـفعـ نـطـلـعـكـ.. ما تـدـفعـ الشـعـبـ الـأـلـمـانـيـ يـتـحـمـلـ خـطـيـتـاكـ.. يـلـهـ أـخـذـواـ.

- صدقني لن تحصل منهم على دولار واحد... لو أنكم تتصلون بجبار فربما يساعد في حل مشكلتي.

- سوف نرى وإحنه من يقرر ذلك وليس أنت.. لكم أنتم مد تفهمون مو دا أكول أخذوا.

عند تلك اللحظة سحب مسدسا وألقمه رصاصه ورفع يده وسده نحو كارل ماركس. تقدم أحد الرجال وسحب ماركس من يده ثم دفعه نحو الباب.

«AlYaa» مجلہ رات «الیا» بیان

## ضيوفجدد

رغم أن ماركس قد اعتاد خلال الليالي الثلاث الماضيات، على لسع الحشرات والرائحة القبيحة وأصوات الحيوانات، ولكن هذه الليلة لم تغمض له عين، فقد أبىت أفكاره أن تتوقف عند محطة واحدة. راح يتساءل، يبحث ويذكر بعض محطات من حياته، داهمه هاجس غريب، جعله يتساءل عن الذي سوف يرثيه، أو الأحرى من الذي يمشي في جنازته، إن استطاعوا استرداد جسده، الذي من الجائز أن يكون عن قريب، وليمة طازجة لأسماك النهر، الذي يهدده هؤلاء به كل يوم. تسييس بالشط، حاول تهجيها بشكل صحيح، بعد أن أخبروه عن معناها اللئيم البشع، ولكنه لم يستطع تلفظها متلماً وردت على ألسنتهم. أبناء العاهرات يستسهلون كل شيء.. تسييس بالشط.. يا لها من ميّة بشعة وجريمة قذرة.. الغريب أن مسؤولهم يتحدث عن دين وطهارة، وخير في مواجهة الشر، والكفر والإلحاد والجواسيس وقرود وخنازير، وهو أقدر وأعن من براز بهيمة. فئران البيت الذي أسكنه في منطقة تشووكفارم الفقيرة شمال لندن، أ nobel وأظهر من هؤلاء القتلة السراق. ما أعرفه هو أن غضب الفقراء ضد الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج، يتحول عملياً إلى الإطاحة بالقوانين الجائرة، وفي نفس الوقت يهمش الدين، فالدين عملية سحرية لتنويم الفقراء والعبيد. أما هؤلاء الذي يواجههم اليوم، فهم لا يملكون جوع الفقراء ولا غضبهم،

وبقناعة هازلة، يوظفون الدين كغطاء لعوراتهم، وإقناع أنفسهم والآخرين بحقهم على اقتراف الجرائم بدعوى غريبة. الشخص الخبيث الفاسد، يعتبر جميع الصفات البشرية خبيثة وفاسدة، وهؤلاء من تلك العينات المتلبسة بذلك اللوثة. معادلة منصفة لهؤلاء، فكما يكون الإنسان في الدين محكوماً من قبل نتاج دماغه المعقد المختلف، كذلك تتحكم فيه وسائل الإنتاج وهي نتاج يديه. ولكن شتان بين وعي هؤلاء، وذلك الآخر الباущ للفطنة والمرضى على الخلاص والدافع للارتفاع، ولذا فإن الدافع الأساس للثقافة والوعي ليس الإيمان، بل المنفعة المادية المباشرة أي العملية الاقتصادية. وأرى أن هؤلاء القوم توطنوا الجريمة دون سواها، فأصبحت متن ثقافتهم وطريقهم للمنفعة المادية.

كأنه يمسك النجوم بيديه ويرجها. يتذكر الآن هذا الوصف الذي أطلقه عليه صاحبه أنجلز. وصف أطربه حين سمعه، وربما جعله ذلك يتمسك بهذا الصديق حد التشابك الفكري والأخلاقي، رغم تباينهما ووضعهما الطبقي. أن يأتي المديح من أحد الصناعيين الذين اسلخوا عن طبقتهم ليقترب من الطبقة العاملة، ويبحث عن حلول لأجل تحررها ونيل حقوقها. كان يقول، إن هذا الرجل حين يرفع ذراعيه أراه وكأنه يمسك النجوم بيديه ويرجها. هل ما قاله رفيقي أنجلز عنِّي، كان حقيقة أم ترى نهايتي قد عقدت في هذه الغرفة دون أن أمسك نجماً واحداً.

وهو في هذه الظلمة ووسط الروائح الكريهة والحشرات

تطن في أذنيه، تخطر على باله رسالة والده التي بعثها له، حين كان يدرس في بون، قال له، يا ولدي أشعر وكأن مارداً يسكن داخلك، لا أعرف هويته، هل هو ملاك أم تراه من ذلك النوع الذي تحدث عنه غونه في فاوست. بين مدح صاحبه ومقدمة أبيه، وبعد كل ذلك الزمن الذي أشتغل وكد فيه، دفاعاً عن القراء والطبقة العاملة، يجد نفسه اليوم في هذه الغرفة الملعونة، مقيداً وسجيناً بيد أوغاد، وقد ترنح فكريأً واهتزت لديه قناعاته، فبات يحمل ذات التساؤل الذي طرحة أبوه. ما طبيعة المارد الذي يسكن داخله؟

حالجته فكرة أن يطلب من سجانيه، وليقـل خاطـفيه وهو التوصيف الأفضل والأدق، يطلب منهم حقيـته الجـلـدية، فـفيـها بعض الأوراق والأقلام، فـربـما يـجدـ فيـ مـمارـسـتـهـ الـكتـابـةـ شـيـئـاـ من سـلوـىـ أوـ تـزـجيـهـ وقتـ، أوـ حتـىـ تـدوـينـ بعضـ الأـفـكارـ الجـديـرةـ بـالـتـدوـينـ، بـعـدـ هـذـهـ التـجـرـبـةـ. لمـ لاـ أـكـتـبـ رسـائـلـ لـمـ لـهـ مـكـانـةـ فـيـ قـلـبيـ، بـعـضـ مـنـ كـانـواـ مـعـيـ فـيـ نـادـيـ الشـعـرـ، أوـ منـ جـمـاعـةـ نـادـيـ حـانـةـ تـرـيرـ لـمـشـرـوبـ، أوـ حتـىـ مـنـ الـهـيـغـلـيـنـ الشـبـابـ، وـبـالـذـاتـ صـاحـبـيـ أـدـولـفـ روـتـنـبرـغـ، وـلـمـ لاـ أـرـاسـلـ رـفـيـقـيـ أـنـجـلـزـ، وـلـكـنـ قـبـلـ كـلـ هـؤـلـاءـ زـوـجـتـيـ بـيرـتـاـ، حـبـيـتـيـ بـيرـتـاـ. رسـالتـيـ لـهـ تـجـعـلـنـيـ عـلـىـ قـنـاعـةـ بـأـنـ يـوـمـ خـلـاصـيـ سـوـفـ يـكـونـ قـرـيـباـ. فـقـبـلـ وـفـاتـهـ كـانـتـ تـقـولـ دـائـماـ، إـنـهـ تـؤـمـنـ بـيـ فـكـراـ، وـإـنـيـ لـقـادـرـ عـلـىـ تـجاـوزـ الـمـحـنـ وـالـمـصـائبـ، وـكـنـتـ أـجـدـ فـيـ قولـهـ ذـلـكـ وـنـظـرـاتـهـ مـاـ يـطـمـئـنـ قـلـبـيـ وـيـجـعـلـهـ يـسـتـكـينـ وـيـرـتـاحـ، أـنـظـرـ فـيـ عـيـنـيـهاـ لـأـسـتـمـدـ قـوـتـيـ، فـلـمـ لـأـحـاورـهـ وـأـسـمـعـهـ وـجـعـيـ، أـبـعـثـ لـهـ رـسـالـةـ، حـتـمـاـ سـوـفـ تـصـلـ لـرـوـحـهـ، وـهـيـ فـيـ رـقـدـتـهـ الـأـبـدـيـةـ

داخل قبرها البارد، سوف أكتب لها وأبثها أشواقي ولو عتي.

يا حبيبة قلبي، ها أنا أكتب إليك ثانية، لأنني وحيد ولأنني لا يخجلني الآن أن أحاورك في الخيال، دون أن تعرفي أو تسمعي شيئاً ما، سوف أحاورك، أعرف أنك لا تستطعين الرد علىّ. ولكنني أراك أمامي الآن، أراك رغم عتمة المساء في هذه الغرفة الرطبة الموحشة، وحيد تناهبني الأفكار، وتحيط بي كومة ذئاب تتربص لقتلي. بيرتا الحبيبة، أحملك الآن فوق يدي، وأقبلك من الرأس حتى القدمين، وأركع أمامك، وأنهد.. مادمت أحبك.. إنني في الحقيقة أحبك أكثر من حب الجنون عظيل رجل البندقية اللعين. حبيبتي تذكرين كل تلك الأحداث التي عشناها سوية. مشوهو سمعتي وأعدائي ذوو السنة الثعابين، قد اتهموني مرة باني مؤهل لأن أؤدي دور العاشق الأول في مسرح من الدرجة الثانية؟ ولكن هذا هو الواقع، ولو كان عند هؤلاء الأوغاد ذرة من مزاج المزاح لرسموا "علاقات الإنتاج والتبادل" في جانب، وفي الجانب الآخر رسموني وأنا عند قدميك، وكتبوا على قصاصة ورق، انظروا إلى هذه الصورة، ثم إلى الصورة الأخرى، غير أنهم أوغاد أغبياء، وسيظلون أغبياء أبد الآبدين، لكونهم لايملكون في قلوبهم طراوة الحب وشجونه، وقلوبهم قدت من صخر، هؤلاء الرأسماليون المرتعدون دوماً.

الفارق الذي جيد للتمييز بين الأشياء التي تتشابه أثناء الحضور الزهيد واليومي، ويأخذ بالتنامي عند مراقبتها، عن كثب. وهكذا الأمر مع العواطف، فالعواطف الكبيرة التي تأخذ

عند قربها شكل عادات صغيرة، تنمو وتأخذ حجمها الطبيعي ثانية بتأثير سحر الفراق، وهكذا هو حالي حبيبي، يكفي أن تتبعدي فقط في المكان، فأعلم أن الزمن قد خدمه، مثلاً تخدم الشمس والمطر النبات، أي للنمو. إن حبي إليك يبدو، على حقيقته، عملاً ترکزت فيه كل طاقات فكري، وكل خواص قلبي، وإنني لأحس ثانية بأنني رجل، لأنني أحس بالعواطف الكبيرة. سوف تبتسمين يا قلبي الحلو، وتتساءلين من أين لي فجأة كل هذه الفصاحة؟ ولكنني لو استطعت أن أضم قلبك الناصع الحلو إلى قلبي، لصمتُ وما تفوهت بكلمة، ولما كنت أستطيع أن أقبلك.. ولكن.

عند تلك الكلمة توقف وارتباك ذهنه، وسالت دموعه رقراقة فوق شيبة لحيته، فمسد بيده مرتعشة شعرها المجد الكثيف.

درج الصبح متسللاً عبر ثقوب الجدار ونافذة الباب العلوي الصغيرة. سمع ماركس ضجة خلف الباب رافقها نباح ملحاً لجودة كلاب قرب جدار الغرفة الخارجي، ثم سحب السلسلة الحديدية وفتحت الباب على مصراعيها، ليدخل منه جسد بقرة ضخم ثم تبعته بقرة أخرى، اندفعتا بهياجاً وارتباكاً باتجاه زاوية الغرفة البعيدة. تحامل ماركس على نفسه ودفع جسده، ووقف محدقاً في هذا المنظر الغريب. كانت البقرتان تخوران وتلتقطان بعض، وكأنهما مرعوبتان تتوقعان اقتراب ساعة الذبح. دخل المسلحان يتضاحكون ويلوحون بأسلحتهم نحو الأعلى.

- ها يوين.. جبالك خطار حتى لتضوّج.

لم يجدهم وإنما راح يرقب الحركات المرتبكة للبقرات. كانت واحدة منهن عجفاء ضامرة الجسد، ترتسם عظامها تحت جلد يابس مجعد، والأخرى سميكة بعض الشيء وأكبر حجماً.

- الهايشتين راح أنته ترعاهن بالأكل والماي وحتى مايسون وكاحة.

- ماذلا أعرف ما الذي تتحدث عنه؟

- شوف لك لتبيع كلاوات عليه، وتسوي نفسك ما تفتهن عراقي.. أنتم إدزون واحد جاسوس لبلادنا بالخالي بلاش.. إذا مو يحچي عراقي مضبوط وبكل اللهجات.

- ثق بائي لا أفهم كلامكم.

- هادتين البقرتين أنت مسؤول عنهم، ولازمون توكلهمن يومياً وتشربهمن المايا.

راح جمع المسلمين في موجة من الضحك الهستيري.

- لك هاي شنو.. أيه بلجي تعиде مرة لخ.. فدوه داد أبو نهلة أعد رجاءً.. هذا منو معلمك، صدقه أندار لهذا اللسان الذرب.. لازمون توكلهمن. وينه عمي أبو بشير حتى يشبعك نعل.. لازمون.. خوش عليك لازمون.

استمرت موجة الضحك والسخرية ولم تتوقف حتى عندما سأله ماركس عن طبيعة الطعام وعدم وجود جردن للماء. وفجأة صرخ أحدهم بسخرية

- شنو يابه شنو.. جردن النوب شنو.. خوش عليك جردن..

هذا شنو ينوكل گلي لو شوي..

- يعني سطل للماي. أجاب أحدهم على تسائل زميله.

- لك داد اليوم أنته أتبدع.. لعد يحظى ليش جريست بسدس ابتدائي صباحي ومسائي.

- ليش چان بيدي.. إذا دائمًا أسئلة الانكليزي تجي شبحية..

- إشتغل التمضرط والتمسلط... شبحية.. وطنطليه.. ما يگول آني دجه دبنك.. شبحية؟

طلب أحدهم، ويظهر أنه يترأس المجموعة، بجلب كومة حشائش وكيس من الخبز اليابس، فجيء بما طلب ووضع جوار كارل ماركس.

- هاي للهوش، ولتطيهن كل العلف، شويه شويه.. زين، وهو تشاركهن بأكل الخبز.

صمت ماركس وطالع وجوه هؤلاء متأنلاً سخناتهم الداكنة التي لوحتها الشمس وأيديهم المعروقة الحسنة. أجسادهم توحى بالصلابة والقوة وحيوية الشباب.

- أديكم غير هذا العمل؟

- شنو تقصد؟

- أعني ألا تعملون في أعمال غير السرقات وخطف الناس والتهديد بالسلاح أو القتل؟

- لا بابا هاي شغلته مال الخطاف هوائية.. فقط للونسه مو شغل.. نتونس بيک وبأمثالک.. إحنه عدنه أشغال رسمية قبل كل

شي.

- ألا تخجلون من أنفسكم.. من عوائلكم.. ألا تملكون ضميرأً  
يؤنّبكم؟

- إنّجِب لَك ترَه أُترس حلَّگ دخان وَأَنْعَلْ أَبُوك لَابُوك كل  
الألمان لَا بُو حَتَه مِيرَكَل وَهَتَلَر. هَسَه أَسوِيك منَخَل.

وهو يصرخ بوجه ماركس اتخذ وضع التهيه، وسحب أقسام  
بنديقته، ووجهها نحو ماركس، ولكن مسؤولهم أزاح فوهه  
البنديقية جانبًا وقال له بصوت ناهٍ.

- يمُود لتسوييلنه مشاكل ويه أبو بشير.. تره وربك  
إيادينا.. أبو بشير متأمل خوش حصة من هذا الأرول.. جييوله  
سلطه الماي وخلبي نطلع.. يالله يالربع.. كلكم بره. أبو بشير  
على جيه بلجي عنده أخبار زينه عن هذا الأرول أبو كفشه.

## هل كان غسل ذنوب

قبل أن يحل المساء ويرخي سدوله، ولم تغب بعد حمرة الشمس من فوق تيجان النخيل، دفع الباب الحديدي بقوة وظهر أبو بشير ومجموعة من رجاله ليتوسط الغرفة صارخاً.

- قشمر حقير عميل، والله لأراويك اليوم نجوم الظهر..  
تُذهب على أبو بشير.. انت تعرف منو أبو بشير.. أني خبلت الأمريكان ودورياتهم، وما خليةهم يُقدرون يوصلون للمنطقة..  
تؤويتهم توبي، وهسه الحكومة تتسلل بيها.. أنه أبو بشير، ما يتحرك نفر بالديره، إذا ما أعرف وبين رايح ومنين جاي.. شدو بالحال زين لهذا الاطئع العميل.

- ما الذي حدث.. أليس من حقي أن أعرف..

- قشمر شنو حفتك ليش أنته كأعد بالبرلمان لو بالگھوة..  
شوف حقير.. اتصلت بالسفارة الألمانية جاوبني على التلفون واحد، كلمته عنك، وعن العرض إلي أخبرناهم بيها حتى نبادلك ويأهلاهم، فراح يضحك ويستهزئ مني، وأغلق التلفون بوجهه.  
اتصلت مرة لخ فرد علي نفس الشخص، ولمن سألته عن موضوعتك ضحك وكال بالحرف الواحد، صحيح هذا صاحب الصورة الماني الجنسية، بس هذا إلي تحتجزوه يضحك عليكم،

و مزور الجواز الذي بحوزته.. فالرجال الحقيقي صاحب الصوره بهذا الجواز المزور، مات بلندن عام 1883 ودفنو هناك. أفتهمت شنو صار؟ إنته مو نفس الموجود بالجواز، جاي تزيد تلعب على العراقيين، وهسه إنت هل مره جاي تلعب علينا وعلى الحكومة العراقية بحجة عالم آثار.. وبهای السنة راح تكشف للعالم شلون السومريين فتحو شط الناصرية وسورو البرلمان بالشطرة.. وآشور بانيبال چان يأكل تبسي دجاج.. ومركبات الفضاء اطير من مطار أور.. اليوم راح أراويك شلون تتعرف على نفسك، وأطلعك صحيح جاي من الآثار، چنك نبوخذ نصر لو ما أدرى منو، اليوم راح أعرفك صدگ، على هذا صاحبك ماركس الميت وإلي إنت مربى لحيه بشكله، وبايك صورته ولاطشها على جواز مزور. جيبو صوندة ومگص جز الصوف ومکينة الحلاقة.. بسرعة يله.. شاكر إنته وقام اربطوا هذا بالحبال زين وشدو ويه الهايشه الجبيرة.. يله..

تقدم المسلحان وأخذوا الحبل وقيدا ماركس، وأحاطا وسطه بالحبال أيضاً، وسحباه بالقرب من البقرات، ثم ربطا الحبل الملتف حول جسده بخطم أحدى البقرات. تقدم أبو بشير وبيده عصا خيزران وراح يسوط بها ماركس بكل ما أوتي من قوة، يتلوى ماركس أثراها من الألم، ثم أشار أبو بشير لأحد المسلمين وناوله العصا، فانهال هذا بعصاه بضربات سريعة وقوية جعلت جسد ماركس يتلوى ويلتف على نفسه ثم ينتفض من شدة الألم. تقدم أبو بشير وأخذ العصا من فتاه وراح يضرب بشدة ظهر وعجيبة البقرة، فاندفعت راكضة نحو الزاوية

الأخرى يلاحقها أبو بشير بعصاه. أخذت تدور في الغرفة وتسحب وراءها جسد ماركس ممرغة إياه بالروث والتراب. كان أبو بشير يمعن في إيجاعها بضرباته، فتهرب وتخور في مساحة الغرفة. تفجر الغضب عند كارل ماركس فراح في موجة من شتائم تختلط بها العربية والإنكليزية والألمانية وبكل ما استطاع من ألفاظ، كي يوصلها لأسماع هؤلاء. ولكن أبو بشير كان يوغل في تعذيبه، يضرب البقرة لتهرب منه ثم يوجه ضربات أخرى لماركس.

رغم هذا الألم المضني دار لحظتها في خلد ماركس ما يحاول فيه تفسير ما يجري له. لم يكن يحمل من الذنوب الكثير ليغسلها على طريقة السيد المسيح بتحمل هذا العذاب والألم، ربما العلاج الوحيد للمعاناة النفسية هو الألم الجسي، ولكن لم وعن أي معاناة، فها هو بعد أن أمضى 47 عاماً مناضلاً لأجل الطبقات المسحوقة والفقراء تراه يرزح اليوم لتعذيب همجي من قبل شذاذ الآفاق، دون أن يعرف سبباً مقنعاً أو مبرراً لذلك. ما نوع الحقد الذي يحمله هؤلاء، كيف انحدر عقلهم لمثل تلك البشاعة، ما العمق الروحي لهؤلاء؟ لماذا يمارسون الإذلال لغيرهم من البشر؟ لا شيء لهم في هذا العالم غير الشقاء وعبدية الجريمة. هذه العقوبة التي يتلظى بها الآن يجعله يصر على أن الدافع المادي والمنافع المادية هي عقدة البشر المستحكمة في خيرها وشرها، وهي بالذات من يستعبدون ويتحكمون في صيرورتهم.

حين توقفت البقرة شعر ماركس وكأن جميع عظامه قد

هرست وتفكك جسده، ولم يعد يشعر بالقدرة على تحريك أي من أعضائه، وانتابته حالة من الغثيان وأحس بالحاجة للتقىء، كتم أنفاسه ولكنه لم يتحمل كل ذلك الدوار والغثيان، فاندفع فجأة وبقوة سائل أصفر من فمه وأنفه.

- شنو هذا أتكول شارب عرگ ومطوخ فد نوب.

- يا عرگ هذا مو أنخبطت مصارينه فوك تحت.

- عمي هاي غير شغله العرگ، أنت متدربي هذولة الكفرة يشربون بطلين وما يبين عليهم.. الله حله عليهم وحرمه عليه.. هم هاي قسمة وعدالة.. ليش ربى ليش؟

- اي مو تريدها تصير سفتح، حتى النسوان والرياجيل بالعراق يگومون يلعبون شناو بالشوارع.. متخليةا مستوره وجوه رحمة ربک.

- عن يا عرگ تحچون، عمي هذا أبو أشتعل.. إنخدت معدته وترىده ما يزوع.

صرخ أبو بشير بوجه الجميع موبخاً

- كافي عاد.. كافي لغوة.. جيبوه... جيبوه يمي.. آني أعرف دواه لهذا الارول القذر.

سحب جسد ماركس وقد تلطخت ملابسه ووجهه بالقيء والتراب، وتمزق قميصه وما عاد هناك لون لملابسها، غير لون التراب المخلوط بروث البقر. كان جسده مطوقاً بالكامل بالحبل الذي التف حول خصره ويديه، فلم يعد يستطيع تحريكهما. أجلسوه أمام أبو بشير، وكان يشعر بدوران يلف

رأسه، ولم يعد يقوى على رؤية ما حوله بوضوح، فكان يتربّح بجلساته إلى الخلف ثم الأمام. قبض أبو بشير على خصلة شعر من رأس ماركس الكثيف وراح يجزها بالمقص، انتزع كومة الشعر من الخلف وصولاً إلى باقي الأماكن، فظهرت خارطة مشوهة من بقع للشعر مبثوثة بعشوانية في رأسه، بعد ذلك أخذ أبو بشير ماكينة حلاقة صغيرة ليكمّل الشوط ويقضي كلياً على شعر الرأس، فظهر رأس ماركس خالياً من الشعر سوى بقع متّاثرة هنا وهناك. نادى بعدها على أحد مساعديه وطلب منه حلاقة لحية ماركس. قفز الشاب من مكانه فرحاً، ثم بدأ يمارس عمله في غاية الخفة ولكن بمحاولات خبيثة لإيذاء ماركس، فأخذ وجه ماركس ينز دماً من بعض الأماكن. استمر الشاب في عمله دون مبالاة لتوجع وأنين ماركس، وحين انتهى قفز وكأنه نال جائزة عن عمله، وراح في موجة ضحك هستيري وهو يومي على ماركس، شاركه الآخرون الضحك. طلب أبو بشير أن يأتي أحدهم بقدر ماء ويسبّبه على رأس ماركس، فجيء بالقدر من ماء الساقية القرية. بدأ أحدهم يصب الماء بيّطء شديد، فأخذ ماركس يهز رأسه في محاولة لجعل الماء يصل إلى جميع أماكن رأسه، ورغم أوجاعه شعر ببعض من راحته. بطلب من أبو بشير تقدم أحد الرجال ليريحه الحال عن جسد ماركس، عندها لم يكن ماركس قادر على تحريك جسده، رغم تحرره من القيود، فمال عفويًا ومد جسده على الأرض محاولاً السيطرة على أعصابه ولیأخذ حالة من الاسترخاء. نظر إلى سقف الغرفة وأغمض عينيه من شدة الإجهاد الذي أنهكه.

- عمي أبو بشير هذا شلونه.. طلع چنه عتوبي مهلوس.
- گبل چان أحله.. چان يبین أكابر وهيبة، هسه صار مهلوس چنه دیچ هراتي، الأجانب ولد المدس تگول أبد ما شایفين تعب.
- لا يابه هذا إيبين عليه ترف ابن نعمه.. أمه ما چانت تخلي پشتغل.. قابل بشكل حظي الأغبر، عمرى عشر سنين وأبويه سوالى چمبر جگاير وعلچ.. ويوميه قبل لا أطلع عيشه وكفة، ومن أرجع الحساب بالدفرات.
- شعبالكم.. هذولة الأجانب عدمهم سبع أشكال..
- ليش همه بزازين..
- ها شلونك عمي ماركس.. هذا التمرин الأول.. بعد كل يوم راح تأخذ تمرينين، واحد الصبح والثاني بالليل إلى أن تستوي وبعدين نگطفاك للچلاب.
- قاطع أبو بشير موجة الاستهزاء والضحك التي كان عليها مجموعة رجاله وصرخ بهم
- دفكو ياخه من هذي اللغوه هسه، خلصونه، وخلي نشوف دربنه وييه ذيچ السالفة مال الليـلـ. خوب ما نسيـتوـ؟
- لا عمي أبو بشير.. شلون نـسـهـ.. يـلهـ بـيـنهـ، يـلهـ.

لم يجد ماركس ما ينفع لو تحدث مع هؤلاء، لذا فضل الصمت، رغم ما كان يعتمل في صدره من غضب وحزين شتائم، أراد أن يوجهها لهؤلاء القراء، ولكنه فكر بقدرتهم على

الإيذاء وطبيعتهم الوحشية. أحس بتعب شديد سلب منه كامل قواه، وما عاد يشعر بالقدرة على الجلوس، والبعض من أعضائه ما عادت تقوى على الحركة. سمع السلسلة الحديدية وهي تسحب لتغلق الباب خلف هؤلاء ذوي السحنات القمينة.

فكرة ماركس في صورته الجديدة وكيف يكون عليه مظهره بعد الذي حدث، ليته يقف الآن أمام المرأة ليشاهد ما فعله هؤلاء السفلة بتلك اللحية والشعر، اللذان حافظ عليهما منذ أكثر من أربعين عاماً. معهما كان يحلو له أن يكون متميزاً، معروفاً أمام الناس، محبيه، مناصريه، السائرين في طريق أفكاره، ليس سوى تلك اللحية والشعر غير علامة فارقة، يجعلهم يعرفون أي طريق يختارونه ويواطرون السير عليه، تذكر ذلك البرجوازي المعتوه الذي عرض عليه مبلغاً كبيراً لغرض حلاقتهما، وكان يطلق عليه تسمية رجل الغابة المتوحش، ترى ما مقدار الفرح والغبطة التي يصاب بها حين يراه على هذه الحالة.

راح في تفكير عميق وكأنه في غيبة أو يمارس ضرباً من الطقس الصوفي، فقد بدت عيناه تدوران بسرعة في مأقيهما، وكور جسده من شدة الألم. حاول أن يلملم دقائق ما حدث وما يترقب حدوثه، يا ترى هل يتحمل جسده التعذيب مرة أخرى. ليتهم يتخلون في قراراتهم، ويأخذونه جهة النهر وتنتهي هناك تلك المشاهد، لتختم الرصاصة القاتلة حياته، ومعها الرغبات السادية لهؤلاء. هل إن وحشيتهم متأتية من بدائية نفسية؟ هل تتلبسهم في الكثير من الأوقات روح رجل الغاب البدائي؟ أم

ترى أن ممارساتهم وليدة وضع مأزقي سببه بنية القهر التي يعيشونها، لذا فهم عدوانيون متواترون يفتقرن للعقلانية، ولا يرغبون في الحوار المنطقي. ليس لهم رغبة بحوار إن لم يجعلهم وفي جميع الاحتمالات منتصرين وسادة الموقف، فهم دائماً يشعرون بالإحباط والإهمال، يصنعون لهم عالماً متفرداً غير قابل للتلهشيم حسب ما يعتقدون، وفي هذا الجو الملتبس تنشأ المصالح المشتركة بين أفراد يجدون في الاحتيال والعنف ما يضمن لهم حقهم أمام الآخرين. عالمهم أشبه ما يكون عالم حيوانات الغابة. الآخر عندهم مهما كانت طبيعته، فهو الخصم الذي يهدد المصير ويريد الاستيلاء على الحقوق حتى وإن لم يبدر منه شيء من العدوانية.

أحس ماركس بعد هذا الجهد الجسدي والفكري بالنعاس يتسلل لعينيه فراح في نوم عميق.

## الخلاص من قبضة أبو بشير

نهض كارل ماركس من نومه فرعاً. أصوات إطلاق نار كثيف دون توقف، وانفجارات قوية وقريبة من الدار، وكان هناك اقتتال دام بين جبهتي خصوم. كان صدى الإطلاقات والقذائف يتعدد وسط الغرفة، تكتمه جدرانها الكونكريتية، فيضغط تردد صدى أصواتها على أذني ماركس فتؤذهما. كانت الظلمة حالكة، لم يستطع معها أن يميز شيئاً من حوله، فجأة شعر باقتراب جسد إحدى البقرات منه، وكأنها تلوذ به وتطلب حمايتها من هجوم يستهدفها. اشتدت أصوات إطلاق الرصاص والانفجارات، وأقتربت من جدران الغرفة واختلطت مع أصوات أخرى، بعضها يصرخ بحدة، شتائم وسباب ونداءات وتهديد. لم يستطع ماركس أن يميز كل ذلك، ولم يكن ليعلم شيئاً مما يحدث في الجوار. خمن وهو في عزلته الداكنة السواد، بأن ما يحدث هو اقتتال شرس بين فريقين. قد يكون اقتتال بين هؤلاء الأوغاد ذاتهم، فالسلوك الجانح والعدوانية وبدائية التفكير والتناقض الظاهر في شخصياتهم ورغباتهم، كل ذلك يرجح اقتتالهم الداخلي. حالة التوتر الوجودي واضحة لديهم جميعاً. علاقاتهم مع أبو بشير وأيضاً فيما بينهم تبدو علاقات اضطهادية، ودائماً تراهم في حالة نفسية تظهر على تصرفاتهم وفي عيونهم القلقة، وكأنهم على استعداد لخلق

## صراع أو معركة مع الآخر.

اشتدت وطأة الاقتتال وأصوات إطلاقات الرصاص والانفجارات والضجيج والصرارخ المبهم. فجأة شعر كارل ماركس بقوة اهتزاز باب الغرفة الحديدية. كانت هناك محاولات لفتحه عنوة أو خلعه دون جدوى. ثم فجأة دوى صوت رشقة رصاص باتجاه السلسلة الحديدية ليفتح الباب. سطعت حزمة أنوار سقطت عند جدار الغرفة المواجه للباب، بعد ذلك راحت أضواء مصابيح تترافق داخل الغرفة، رافقتها إطلاقات اخترقت الظلام فنثر اصطدامها شظايا من حجر الجدران والسقف وقع بعض منه فوق رأس وقرب جسد ماركس. دخل رجال مدججون بالسلاح شاهرين أسلحتهم ووقفوا جوار ماركس وكان أحدهم يصرخ بصوت عال.

- أبق مكانك لا تتحرك.. إرفع أيديك.

رفع ماركس يديه المكبلتين وأشار بهما نحو الرجال.

- منو أنت وشتسوي هنا.. ومنو چتفا؟

- أنا مخطوف منذ أسبوع..

- لا تتحرك من مكانك.

- ولكن من أنت؟

- أحنه من الجيش العراقي ونبث عن عصابات الخطف والجريمة في هذه المنطقة. حتماً تعرف واحد منهم؟

- لا علم لي. أنا لست عراقياً أنا ألماني.
- ألماني...؟
- نعم ألماني الجنسية.
- شنو أسمك؟
- كارل هاينريش ماركس.
- عندك أوراق ثبوتية؟
- إنها في حقيبتي التي أخذها مني أبو بشير مع جهاز الكمبيوتر النقال.
- منو هذا أبو بشير؟
- هو رأس المجموعة التي خطفتني. وهو من يمتلك هذا البيت ويدير مجموعة الشباب التي ترتكب الجرائم.
- وبأي شركة أو مؤسسة ألمانية چنت تعمل.. وكيف اخطفت؟
- أنا عالم آثار وأعمل لحسابي الخاص؟
- بيا منطقة خطفوك؟
- لا أعرف المنطقة.. كنت مع شخص آخر أسمه جبار، خرجنا من الناصرية باتجاه بغداد حين اعترضتنا سيطرة عسكرية وهم من اخطفنا.
- وين هذا جبار؟
- ملازم سامي، هذا مو وقت تحقيق.. لازم هناك أشخاص

غير هذا راح نعثر عليهم داخل هذه المناطق من البساتين.

- أوكى سيدى..شباب.. أخذوه لسيارة الطوارئ، لا تفكوا قيوده وخلوه تحت المراقبة لحين تسليمه إلى الشرطة الاتحادية، خلي نايب ضابط طارق يدرج المعلومات عنه في تقرير نهاية المعركة مع باقي الموجودات.

لم يكن كارل ماركس مصدقاً ما حدث، فجأة تغير كل شيء وبدت الأمور تأخذ منحى آخر.

قبل دخوله جوف العربة، برجاء وتودد طلب من الضابط أن يجلبوا له حقيبته الجلدية الموجودة في غرفة أبو بشير، وكذلك جهاز الكمبيوتر النقال العائد له، كونهما يحتويان جميع وثائقه وجوائز سفره وما يثبت شخصيته والعديد من الوثائق الفيلمية. دفع العسكري جسد ماركس داخل السيارة. بعد ذلك أشار الضابط لأحد العساكر بالذهب إلى الغرفة والبحث عن الحقيبة وجهاز الكمبيوتر، بعد دقائق قليلة عاد العسكري بحقيقة صغيرة كالحة السواد وجهاز كومبيوتر نقال.

- هاي هيه جنطتك؟

- نعم هذه.

تحت نور المصباح اليدوي فتحها الضابط بحذر ومد يده وأخرج بضعة أوراق كتب فيها بخط مرتبك وبلغة أجنبية.

- هذه الأوراق كل محتويات الحقيقة... ماكو شي لاخ.

- جواز سفري، هوياتي التعريفية؟

- ما كو أي شي.

- وهل هذا هو الكمبيوتر مالتك؟

- كلا..ليس هذا.. أسمى محفور فوق سطح جهازي،  
وخطاؤه بلون أسود..أرجوك لعلهم وضعوهن في مكان ما من  
الغرفة أو داخل المنضدة؟

- أوكـي.. عـريف جـواد روـح دور بالـغرفة زـين لتـخلـي مـكان  
ماـندور بيـ.

لم تقطع لعنة الرصاص والانفلات وضجيج الأصوات والنداءات، ولكنها ابتعدت في عمق البستان المجاور. كان ماركس يطالع المكان وكأنه يراه للمرة الأولى. ليس مثل المرات السابقة، فقد حاول هذه المرة التعرف على المكان بدقة فراح يجول بناطريه ما يحيط بالمكان. رغم ضوء القمر الشحيح يبدو منظر البستان القريب جميل. نخيل وأشجار وبيت بعده غرف، كانت الغرفة التي وضعوه فيها تأخذ الطرف الخافي منه. أمام البيت ساقية ماء صغيرة تلتقي إلى ما خلف الدار، يعلوها جسر خشبي صغير، وهناك طريق ترابي يذهب بعيدا نحو عمق البستان. لم يكن ضوء القمر بكاف لرؤيه الكتل الصغيرة المرمية هنا وهناك، ولكن فضوله كان يدفعه للتمعن بدقة بما حوله.

- سيدـي ما لـگـيت كلـشي.

- بكلـ مكان؟ بالـ جـرارـات بـغـيرـه؟

- والله سـيدـي بـحوـشت كلـشي.

تبه كارل ماركس لكلام العسكري فطلب معرفة ما دار بينهم، فأخبره الضابط بأن العريف لم يجد أي متعلقات عائد له في الغرفة قائلاً.

- يمكن أخذوها وياهم لو تلقوها.

- لقد أخبروني بأنهم أرسلوا صورة من جوازي إلى السفارة الألمانية لطلب الفدية.

- كلش زين تستطيع مراجعة السفارة الألمانية وتحصل على نسخة جديدة.

- نعم.. عسى أن ينفع ذلك.. هذا يحتاج إلى جهد ومتابر وضربة حظ سحرية.

- ماذا؟

- لا شيء.. متى نذهب؟

- نشوف ننتظر تنتهي العملية ويرجع الجميع، بعدها نحصي الموجود والنتائج.. أعتقد هذا ما يطول وقت طويل.. يمكن بعد چم ساعة.

في هذا الموقف الذي وقع فيه ماركس، وبعد أن شعر بالحرج والضيق والخيبة من الذي حدث لأوراقه الثبوتية، وجد أن ليس أمامه غير خيار التوازن، التوازن بين الانفعال والعاطفة، بين المنطق والعقل، فرغم القلق ومشاعر انعدام الأمان، فإن المرء يحتاج الركون إلى العقلانية في التعامل مع الواقع رغم الخسارة، فالإفراط بالانفعال وتأجيج العواطف في مثل هذه المواقف لن يجدي نفعا، وحتما سوف يؤدي إلى إنهيار

القدرة على التركيز، عندها يخسر الإنسان الكثير من القوة والحقائق.

بعد أن انتهت جميع الإجراءات، تنبه ماركس لحركة السيارة البطيئة ووجود العسكري الجالس بجانبه، الذي كان يدخن سيجارته بشرابة، دون أن يلاحظ عليه أي اهتمام لوجودهم جوار بعض، فالعسكري يبدو مثلما يراه ماركس في عالم آخر، بعيداً عن هذا المكان، بل بعيد كلياً حتى عن سلاحه وبدلته الخاكيّة المرقطة، وهذا ما يظهر عليه من خلال استنشاقه ونفثه لدخان سيجارته.

كم من يريد أن يعب من الدخان أكثر مما تستطيع أن تمنحه تلك السيجارة الصغيرة الضائعة بين أصابع كفه الغليظة الخشنة، كان يحاول إبقاء الدخان في صدره أطول وقت ممكن، ثم ينفثه بحدة، يصاحبها صوت صفير غريب يأتي من صدر موجوع منخور.

- كم من الزمن وأنت في الخدمة العسكرية؟

تنبه العسكري واستدار لرؤيه وجه ماركس القريب، فالضوء الشحيح في حوض السيارة لا يساعد على وضوح الصورة.

- وأنت شيخص؟

- مجرد سؤال.. أراك ضجرا.

- قبل تلث تيام كملت عامي الخامس. وليش تسأل مثل هذا السؤال؟

- شيء من الفضول، فأنا أراك فلقا مكتباً وربما أنت بعيد عن طبيعة مهنتك أو تعاني من مشاكل عائلية، هل تحصل على راتب جيد؟

- الحمد لله، أطياك هوبي حتى ترتاح.

- هل أزعجك بأسئلتي.. أريد فقط أن نقضي الوقت وأنت شاب عراقي وأنا مهمتم بأوضاع الشباب.

- وحضرتك تريد أتّكري وقتكم براسي مو... صحيح أنت إلماني؟

- نعم إلماني.

- لعد يحظى شبابك لهذا المهجوم؟

- ماذا تقصد؟

- يعني لماذا جئت إلى العراق؟

- أردت دراسة الآثار والأحداث.

- وبدل ما تدرس آثارنا خطفوك مو؟ يجوز چانو عصابة تبيع آثار ورادو يستفيدون من خدماتك.

- نعم... ماذا تقول؟

- ما كوشي.. وشنو راح تسوّي بعد ذلك؟

- سوف أحاول العودة إلى بلادي.

- إيه نعم هذا المنطق الصحيح.. مو جاي تضيع وقتكم وعمركم ويأنه... گلي هذا منو زينك؟

- ماذا تقول؟

- منو حلق لك شعرك؟.. أملحك تملح.

- أبو بشير وعصابته هم من فعل ذلك.

- الله يطيح حظهم على هذى الدكة العوجة.

- هل لديك تحصيل دراسي؟

- أنا خريج جامعة.

- خريج جامعة !

- نعم خريج كلية الإداره واقتصاد.

- وهل من الموجب على خريجي الكليات الخدمة في الجيش؟

- هذا چان گبل على عهد صدام.. هسه الان هذا تغير.. لا تكليف، وأنه تطوعت للخدمة في الجيش.

- ولم لم تعمل باختصاصك؟

- حاولت ألف مرة ودورت على وظيفة ودفعت فلوس، ومگدرت.. أو وصلتني محاولاتي لحالة من اليأس حتى همين حاولت الانتحار من قهري.

- الانتحار؟!

- نعم، كلش أستفلست، ما بقت عندي فلوس وبعد ما گدرت على العيشه.. بعدين أداينت وأنطيت فلوس يابو فلوس حتى أصير عسكري.. وهسه أني بهذا الحال.

سحب سيجارة أخرى وأشعلها من بقايا الأولى، وراح ينفث الدخان بعجاله وظهر عليه الحنق والضيق فاستدار معطياً ظهره لماركس.

- متخليني بقهري.. هسه أنته متتكلّي منين الله جابك عليه؟ من أحترّغ أبو الخلفني على هذى القسمة الكشرة بهذى الليلة السودة.. أني هم صوچي، ياهو اليجي أحچيله قصتي... قشمر مو بيدي قشمر.

شعر ماركس بالضيق وفضل الحوار الداخلي دون استمرار الحديث مع هذا الشاب المسكين، فالجائز أن وضعه النفسي متوتر جداً، ومشاكله لا حدود لها. فكر ماركس بأن من المناسب ألا يشغل ذهنه بعيداً عما هو فيه الآن، فربما أن هؤلاء عصابة أخرى اختطفته من جماعة أبو بشير، والآن هو بضاعة متداولة بين أبوаш لا أخلاق و لاضمائر لديهم.

كان ماركس في وضع مربك وصعب جداً، شعر معه وكأن حبالاً غليظة تحيط به وتطوّقه وتدفعه نحو بئر عميق. فها هو وبعد أن تخلص من وضع الاختطاف عند مجموعة أبو بشير، لم يجد في ذلك مخرجاً لحالة الحزن التي خيمت على قلبه وكيانه، وكانت في حقيقتها امتداد لسلسلة من أحداث، ربما يستطيع وضعها في إطارها العام ومسبباتها، فقد سيطرت عليه منذ تلك الساعة، عندما كانوا يهمنون الدخول إلى مدينة الناصرية، وعند بوابتها الخارجية، حين اكتشف وضع رفيق جبار المخادع. كانت الصور والأفكار تترى في خاطره مثل ومضات عجولة. فليس هو الشخص الذي يستطيع بعد كل تلك

الهزات والمصائب التخلص من التوتر. ربما كان ذلك يحدث معه سابقا، أما الآن فذلك يبدو عصيا عليه. لا يستطيع إسقاط المسببات على الآخرين، أو رميها على القدر ليتم تصريف انفعالاته وتشنجه، وما محاولته الفاشلة للحديث مع هذا الجندي غير واحدة منها. فقد حاول تشتيت توتره وانفعالاته، رغبة في تمضية الوقت وبعثرة مشاعر القلق والتوتر. يتذكر الآن وهو يحاول جسديا التماسك في مقعده مع الارتجاجات المؤذية للسيارة. دائمًا ما كان يضع لنفسه خطة تقف في وجه طغيان الانفعالات لكي لا يلغى الواقع، ومن ثم تنحسر لديه رؤية آفاق المستقبل وهذا ما يرفضه بشكل قاطع. ما صادفه مع الرفيق جبار وصحبه وكذلك عند عصابة أبو بشير، لم يكن غير مأزرق في عقلانية الحياة، وما شاهده وتلمسه، كان عطلا في ممكناً المنطق السوي، وضربا من الواقع المأزوم، حيث بدت الخيارات الإنسانية فيه خرافية وغبية حد اللعنة، حتى مع هذا العسكري المتظير المتشنج الجالس هنا، ولكن روحه ذاهبة بعيدا، فالواقع لا يمكن أن يكون عقلانيا. ترى لماذا تجشم هذا العسكري عناء الدراسة كل تلك السنين، وأجتهد وخرج ثم رمي هو ومستقبله مثل تلك الرمية الغبية، بعيدا كل البعد عن خياراته و اختصاصه العلمي. ليس هناك تبرير عقلاني لهذا الذي حصل، وإن بحثنا عن مسببات هذه الواقع غير المنطقية سوف نصطدم بقيم وأعراف كثيرة ومؤذية، وأولى تلك الملامة هو التخلف الذهني السائد والنكوص المجتمعي المسبب لكل تلك الإخفاقات، أيضا أيد آخر تلعب أدوارا فاعلة في هذا المضمار، منها قهر السلطة والعشيرة والعائلة والأعراف

والتقاليد وغيرها، جميعها تقف كموانع أمام أي رغبة في التغيير أو محاولات وضع الأمور في نصابها الصحيح. ومن نتائج ذلك زعزعة القيم والأخلاق والسلوك العام لتنعدم معها الحلول الإيجابية، فيلجا المرء إلى الخيارات غير المرغوبة لديه، أو حتى المفروضة عليه، ليواصل التزامه بوجوده الإنساني، وهذا ما فعله هذا الجندي البائس في خيار انتماه للسلك العسكري. ولكن هذا المنحى وكحدث جماعي يدفع للتغرب والانسلاخ والخيالية، والسير في طرق وعرة وتسيد اللاقعانية، عندها تظهر سوءة هذا في دورة الإنتاج المجتمعية ليعدم نضجها وتكاملها، ومن ثم يفضي لطغيان طابع إنتاج محدد مقصياً قطاعات الإنتاج الأخرى، عندها لن نجد غير اقتصاديات زائفة لا تجلب الرخاء للبلد وأهله، ولا تستطيع تقديم إصلاحاً أو رقياً وهذا ما يحدث في العراق اليوم.

- هسه وصلنا حضر نفسك للنزول.

قالها العسكري منبها ماركس الذي كان سارحا في البعيد  
يحدث نفسه.

- ألا تفك قيودي؟

- ما أكدر.. واجبي أبقيك بهذا الشكل لمن يتم تسليمك لمركز الشرطة.

- وأين مركز الشرطة هذا؟

- أحنه گدامه الآن... هسه يجي الضابط وهو يأخذك.

لم يكن في حوض السيارة غير نور خافت يضيء المكان،

ولكن فتحة شباك صغيرة أعلى الباب الخلفي كان يخترقها الضياء، عرف ماركس من خلالها انبلاج نور الصباح. نهض من مكانه ولكن العسكري صرخ به أن لا يتحرك لحين مجيء الضابط. مضت دقائق ثقيلة من زمن لم يعد هناك من يستطيع حسابه، فبوصلته أصواتها ماركس منذ لحظة دخوله مطار العاصمة العراقية بغداد، وما كان ليعنيه أن يكون هدفاً لتوقيات فرضت أو لم تفرض عليه، فقد بات يتوجب فكراً مراقبة الوقت، فليس ثمة اجتماع أو موعد مستعجل أو حاجة ملحة في هذا الزمن والمكان العجائب غير المنضبط. ما الذي يمكن أن يفعله بعد أن اقترفت بحقه كل تلك القسوة؟.

بشفاه يابسة تبسم ثم زمها وهز رأسه. كان حارساً لبقرتين كانتا ترتجفان رعايا حتى من نباح الكلاب، تأكد أنهما كانتا مسروقتين. حلم مرة بأنه أقتادهما نحو حقل واسع وتركهما ترعيان هناك، وجلس هو عند جذع شجرة يرقبهما، ثم أخذته غفوة، فمضت البقرتان بعيداً دون أن يلحظ ذلك، فكان عقابه على غفلته تلك حفلة تعذيب بالعصي الموجعة، رافقتها بهجة وفرح غامر من أبو بشير ومرتزقته الحقراء الموبوئين، وكان ذلك يمنحهم انتعاشًا غريباً بعد غنيمة دسمة، فأستيقظ فزعاً من حلمه. هذه اللحظة تذكر عصي أبو بشير فأقشعر بدنـه وبغفـوية صدر عنه صوت توجـع.

- دفـتوـنـ الـبـابـ نـعـلهـ عـلـىـ خـيـرـكـمـ.

صرخ العسكري وهو يسحب رشبة قوية من سيجارته، فقد شعر بأن الوقت قد طال عليهم ولم يعد يتحمل الانتظار. وأبواب

حوض السيارة مغلقة من الخارج وهنا تكمن المشكلة، ثم راح يتمتم بصوت خافت.

- حتما الضابط أبن المشعول تلگاه گاعد هسه داخل مركز الشرطة يكمي أوراق التسلم والاستلام، بس برهاوته گاعد يشرب استگان چاي، ويمكن يتريگ مع ضابط المركز وعلى كيفه ويه المعاملة، وأنعل أبو الموجود بالسيارة ويضربهم طحيل.. شنو والله ضابط بالجيش العراقي يعني ملك أبن ابن المهدوس.

- ما الذي تقوله؟

- متعوفني أنته بقهرى.. تره والله أگوم وأبيس بيک وأطلع كل حر البگلبي.

- مادا؟

صمت العسكري وراح في حواره مع سجائره التي يجد فيها خير رفيق ينقذه مما هو فيه.

مضت أكثر من نصف ساعة حين شعر ماركس بحركة مغلق الباب الخارجي للسيارة، أعقبه فتح الباب وبزوغ نور نهار يحمل نسائم صباح مشرق. فتساءل ماركس هل حقيقة أنه قد تحرر أم تراها مرحلة أخرى من المرارة والعذاب سوف يواجهها هنا من جماعة أخرى أشد قسوة وعنفاً.

نظر إلى مجموعة العسكر الذين تجمعوا أمام باب حوض السيارة وشعر بالتوjis والخوف وهو يراقب نظراتهم القاسية. وأحس بالإرباك وهو يسمع قهقهات يطلقها البعض منهم.

- لك هذا شنو الطويرني المهلوس؟

- خطية هذا شصاير بيه !!

- لا ياظلام..شلا عبين بالرجال لعب.

- تعال خالي..تعال إنزل.

رفع ماركس عجيزته بتناقل فبدا وكأنه غير راغب بترك مكانه، فقد توجس شرًّا من هؤلاء، ووجد في طريقة استقبالهم له ما يوحي بكونهم من ذات طينة مجموعة أبو بشير، وتوقع مستقبلاً زاخراً بحفلات تعذيب لا نهاية لها.

- تعال خالي لتخاف، تعال.

تقدم ماركس إلى الأمام فتلاقفته يد ساعدته على الهبوط من حوض السيارة، وبعد وقوفه بين مجموعة العسكر التي أحاطته، راح يتفحص وجوههم وفي داخله قرار بأن لا يستسلم هذه المرة بسهولة، حتى لوكفه الأمر حياته، وعليه أن يرد لهم الصاع صاعين إن فكروا بإيذائه. تقدم أحدهم وأخذ بإزالة الحبل الذي كان يحيط بمعصمي ماركس. ثم سمعهم يتداولون جمل التحايا والتوديع بعد أن أخذه أحدهم وأدخله بناء مركز الشرطة.

- تعال خالي يم العقید..أنت صدگ ألماني.. صحيح شويه بيک حمار بس ما مبين عليك من ذيج الديره.

صمت ماركس وكأنه لم يكن يسمع الحديث وتقدم برفقة الشرطي ليجتازوا الممر الطويل، ثم توقفوا عند باب خشبي مطلٍّ بلون رمادي مائل للزرقة وقد جاورته في الأعلى قطعة

خشب صغيرة خط عليها باللون الأبيض دلالة تعريفية، مدير المركز. طرق الشرطي الباب فسمع صوتا من الداخل يأمره بالدخول. دفع الشرطي ماركس من كتفه وأدخله الغرفة. دوى صوت قوي جراء ارتطام حذاء العسكري ببلاط الأرض وهو يؤدي التحية للعقيد الجالس خلف المنضدة، أرتعب إثرها ماركس واهتز جسده لسماع تلك القرقة المدوية والمفاجئة.

كانت الغرفة ضيقة بعض الشيء مع كثرة الأثاث، منضدة عريضة وبضع كراسي وسرير نوم بعثرت فوقه كومة ملابس وغطاء غير مرتب، وجواره على الأرض وضع قدح ماء ونعلان ومجلة وصحن فيه بقايا من طعام.

- لك هاي شنو.. خطية هذوله شمسيين بيتك. بابا ليش انت بهذا الوضع.. چانو يعذبوك.

- نعم أستاذ كانوا يتلذذون في ذلك.

- لعنة الله عليهم.. هذولة مو بشر؟ شوف أبني، أنت صدگ إلماني؟

- نعم..

بدا ماركس في هذه اللحظة وكأنه أخذ يعتاد اللغة الدارجة لل العراقيين ويستطيع فك رموز أغلب ما يسمعه.

- عدك ما يثبت هذا؟

- كانت لدي وثائق في حقيتي الصغيرة التي أمامك، ولكن الظاهر أن أبو بشير وجماعته قد أتلفوها أو وضعوها في مكان ما.

- وكيف تستطيع أثبات ذلك؟

- لا أدرى.

- أبني عريف أحمد.. دخذه هسه وعدل حاله.. خطيه ساوي له شعره و خلي يغسل.. ريحته تكمل.. وبلكي تنطوا ملابس بدل هاي ملابسه المزگه والمطينه.. وأنطوا أكل و خلي بيات عدنه چم ليلة، و گول للضابط أبو تغريد خلي يسويله محضر تحقيق ويقدمه إلي باصر بخارتي.. حتى بعدين نشوفله صرفه وأنسفره.. إبني أن شاء الله فرجت كلشي يتعدل لتخاف.. أنت صرت بيد الشرطة العراقية وبعد لتخاف.. دتفتهمني لو لا.

- أفهم أغلب الحديث.. شكرًا لك أستاذ.

- شنو أستاذ.. گول سيدي قشمر.

- عريف أحمد على كيفك.. هسه مو وكته خل شيكول يگول.. هو مدني، ويجوز صدك الماني وتزعل علينا خالتنه ميركل حفظها الله ورعاها.

قالها العقيد ضاحكا وأشار لعريف أحمد بالانسحاب فدفع العريف بدوره ماركس وسحبه خارج الغرفة.

«AlYaa» نشرت «النحو بين

## في الحبس

مسد ماركس فروة رأسه، فشعر ببعض راحة، فقد باتت خالية من الشعر، لا بل ملساء تماماً كراحة اليد، بعد أن ساواها موس الحلاق ببراعة، دون أية قطرة دم سالت مثلاً فعل به أبو بشير ورجاله. فتح صنبور الماء، وراح يسكب المياه فوق رأسه ووجهه ويتنفسه بنشوة رغم حرارته، التي تسببها شمس الصيف اللاهبة. ولعدم وجود رتاج لم يستطع إغلاق باب غرفة الحمام الصغيرة ذات النور الكابي. تلفت قليلاً ثم راح يخلع ملابسه قطعة بعد أخرى، ولم يبق على جسده ما يستر حتى العورة. حاول أن يقف تحت الدوش ولكنه وجد الماء لا يصعد إلى أعلى. تحت صنبور الماء صفيحة كبيرة كانت سابقاً حافظة لدهن طعام، هذا ما كتب على جدارها، وهناك قدح بلاستيك كبير يسبح وسطها. راح ماركس يراقب الماء وهو يملأ الصفيحة أنتظراً قليلاً ولكنه لم يتحمل المطاولة مع الماء الجاري بشيء من البطء فأخذ قدح البلاستيك وبدأ يهيل الماء على جسده. شعر بنشوة غريبة، وبانت على شفتيه ابتسامة رضا أفقدتها طويلاً، راح يتلذذ بسكب الماء فوق رأسه وأخذ يداعبه وهو ينساب فوق شفتيه فيصدر صوت فرقات خفيفة استطابها، فاستمر يمارس هذا الطقس بفرح طفولي. فجأة دفع الباب ودخل أحدهم دون سابق تنبيه.

- لك هاي شنو شدتسوبي.. ليش مصلخ ربى كما خلقتني

وبحمام مركز الشرطة..أنت مو الألماني لو أني متوه؟

نعم أنا الألماني..

- أڭول.. لعد منهیچ يگولون الأجانب ما عدھم مستھم.. يله  
دكمel حتى آنى أغسل وراك.

- عريف احمد قال بأنه سوف يجلب لي ملابس أخرى.

- أوكـي.. لـعـد رـاح أـروح أـخـبرـه، وـأـنـي أـرجـع بـعـد شـوـيه أـريد  
أـغـسل لـتـتأـخر..

عاد كارل ماركس لlagتسال، حاول بقوة وإلاج إخراج رغوة من الصابونة الصغيرة دون جدوى، ففكر بأن السبب ممكأن يكون عسر المياه، ولكونه خبر ماء لندن فقد أستبعد هذا عن الماء الذي يسبح فيه الآن بعد أن تذوقه. كانت الفترة الطويلة التي قضتها دون اغتسال قد كونت فوق جلده طبقة من الدهون تمنع الصابون من إخراج رغوته، هكذا شعر ماركس مع استمرار محاولاته لدعى الصابونة بالجلد. أصر أن يزيل عن جسده تلك الطبقة من الأوساخ، فراح يفرك جلده بصبر وأناه. بعد عملية طويلة أحس ماركس بأنه أنجز الكثير في هذا الأمر، لذا أSEND ظهره إلى الحائط وراح يسكب الماء على رأسه وجسده متلذذا بسماع صوت ارتطامه برأسه ثم جريانه على صدره وجسده، وكان وكأنه في حفل موسيقى يستمع للсимфонية الأربعين لفولفغانغ موتسارت، فأغمض عينيه وراح بعيدا في عالم مريح يسترخي فيه ولو للحظات دون خوف أو وجع. فجأة سمع صوت إقتراب أقدام فنهض من مكانه. كور

ماركس جسده أول الأمر ثم وقف وغطى عورته وذهب ليقف  
خلف الباب

دفع عريف أحمد الباب ودخل.

- ها يول بشر إغسلت زين..؟

لم يشاهد ماركس قرب حنفيه الماء فصاح.

- هاي وينك؟

- هل جلبت لي الملابس؟

- هاي إنت خاتل وره الباب.. هاك هاي دشداشة وستره  
ولباس طويل.. همزين الشرطي محمد بن خيرية هذني الهدوم  
زایدات عنده.. يله إلسنهن بسرعة وتعال.

بعجالة أكمل ماركس ارتداء الملابس وخرج من غرفة  
الحمام يتعرّث وهو يسير بالثوب الفضفاض.

- لك هاي شنو طلعت چنك راعي غنم.. وچماله يمشي چنه  
مطهر.

قال ذلك عريف أحمد وهو يطلق ضحكة تنبه لها جميع  
رجال الشرطة في الممر الطويل. ثم طلب من ماركس أن  
يسير أمامه، حتى وصلوا إلى غرفة الموقف ذات الباب  
الحديدية المغلقة الكالحة اللون الصدئة، تتوسطها فتحة كبيرة  
تعلو من منتصفها، يظهر من خلالها جوف غرفة واسع يجلس  
فيه مجموعة سجناء. أدار عريف أحمد المفتاح في قفل الباب  
الخارجي ودخل مع كارل ماركس. طالع ماركس وجوه الأنفار

التسعة الذي سيكون بعد قليل شريكهم في هذا المكان، وابتسم ابتسامة بلهاء وهو يوزع نظره في محيط الغرفة ووجوه السجناء، بعدها لم يجد بدأً من أن يحييهم بابتسامة اغتصبها من خوف. ولكن لم يجد ردة فعل من أي واحد منهم، سوى نظراتهم المستفسرة والباحثة في نوع هذا الجديد الذي جاء به العريف.

- أبو جعفر أنطبي بطانية من يطغاك، هذا خطار عدكم يوم يومين.. خطية چان مخطوف وهو تعبان.

- تدلل أبو شهاب ويدلل خطارنا، تعال عمي تعال هنا يمي، هاك هاي البطانية أفرشها.

قال السجين أبو جعفر ذلك ورفع الغطاء الصوفي وفرشه جواره فتقديم ماركس وجلس هناك.

- إبني شنو أسمك؟

- ماركس.. كارل ماركس؟

- هاي شنو أسمك أجنبي؟

- نعم أنا ألماني.

- على الخير والبركة.. چا هيء بقت عليك؟ ذاكاليه چان خطارنا تركي أيگول هو أبن عم أردوغان، تالي طلع حشاش مضبوط معطب من گاعه.

قال آخر بنبرة استفزازية عدوانية، اعتاد استخدامها مع أي قادم جديد للسجن.

- هسه أنته لابس دشداشه وستره وأكْرَع وشويه ابيضاني  
وهمزين ألماني مو گرایب عزت الدوري وتشتغل عليك  
القنادر..

- أشوفك تعان وراح الأيام اتطول عليك مثل حالي،  
صارلي تسع شهر خايس هنا ويگولون أوراق التحقيق بعد ما  
رجعت من المحكمة..تگدر تنام وترتاح بعدين نسولف، كل  
الليل عشه وسواالف.

هكذا بادر أبو جعفر طالبا هذا من ماركس. وأعقبه أحدهم  
 قائلا :

- خالي أبو جعفر هذولي يسون هيج ويخيسونك بالسجن  
حتى يخلوك تستوي على صفحتين لا ثالث ألهن، لو تطلع  
وتصير أرهابي، لو تخن وتبلغ الوجع وترکع ألهم.

- عفه أنه أبو جعفر أركع الواحد..بس الله الواحد القهار اطخ  
راسي إله هو العمر واحد لو أکو غيره؟ عمي ماركر انته  
تعبان..نام خالي نام.

- شكرًا استاذ أبو جعفر.

- استاذ، أنه؟!

مدد ماركس جسده المتعب فوق الفراش الصوفي، ووضع  
كافيه تحت رأسه، وسرح بعيدا متذكرا وضعه في زريبة بيت  
أبو بشير، وكيف كانت توجه له التهديدات اليومية بالقتل  
والمعاملة القاسية، التي كان آخرها حفلة التعذيب التي شاركت  
فيها البقرة. لقد كان قاب قوسين وأدنى من الموت. ليس أمامه

من مخرج بعد كل ذلك العذاب غير البحث عن الذي يخلصه من ورطته ويرجعه إلى بيته في لندن. لم تعد له حاجة بالمعرفة عن وضع العراق الاقتصادي والسياسي، بعد أن تيقن بشكل كامل بأن ليس هناك نظرية يمكن لها أن تتعرف على طبيعة وصيروحة هذا المجتمع ومسيره وما لاته. وهو لم يعد يملك أوراقا ثبوتيةً ليقدمها كدليل على مواطنите الألمانية وسكنه الإنكليزي، وتلك تكفي لوضعه في مأزق خانق لا يستطيع الخلاص منه، والطامة الأخرى أن ملامحه قد تغيرت كلها، كذلك لا يعرف بالضبط مكان الرفيق جبار وفي أي ناحية من نواحي بغداد يقع الفندق الذي يملكه، ويا ترى كيف يصل إليه؟، وقبل كل ذلك أين هو الآن بالضبط؟ وهل حقيقة أنه في أمان في هذا المكان؟

بدا النعاس يطرق عينيه ولكن الأحاديث المختلطة بين السجناء ومثلها ما يسمعه من أصوات عالية تأتي من خارج غرفة السجن، كانت تضفي صعوبة على محاولاته.

## ليس من السهولة نسيان القسوة

مثل المرات السابقة دخل حانة ترير للمشروبات. كان يتأبّط مجموعة أوراق وضعها داخل كراس بغلاف اخضر داكن. كان على موعد مع إحدى صديقاته الجديدات. أيضاً كان يشعر بشيء من المسؤولية تجاه هذا النادي، بعد أن أصبح رئيساً مشاركاً فيه، ولم يكن فقط حبه للشراب الدافع الأوحد لوجوده ومشاركته في النادي، وإنما الألفة وروح الشباب والنقاشات المستفيضة، في شتى مجالات الحياة وبالذات الفلسفية منها. هبط السلم محاذراً، يتکئ بيده على الجدار المطلني بلون قهوائي غامق. درجات السلم دائماً ما كان يحاذرها، وكانت مصدراً لقلقها وخوفه من السقوط حين تهبط أقدامه عليها أو حين يتسلقها، صغيرة ضيقة تربك الأقدام. وصل عند الباب الداخلي للحانة ودخل وسط الصالة. دخان السجائر يغطي الكثير من ملامح المكان، ولم تكن الأنوار تكفي لتبيان ما يحويه الحان. عند الزاوية البعيدة جلست مجموعة. كان يكبرهم جميعاً ببعض سنين، ومن بينهم من هو ناضج وعقلاني، ويقدم الكثير من الرؤى والشرح الفلسفي بسلامة ومقدرة يحسد عليها، ومنهم من يمتلك أيضاً ملكرة شعر حقيقة. اليوم جميعهم ينتظرون منه أن يقرأ لهم قصة قد أكملها حديثاً، سبق ووعدهم بذلك. حيالهم

فتهلت أسارير الجميع. جلس وسطهم وطالع الوجوه النظرة وهي تحدق به. كانت فتاته مثلما اعتاد عليه، تنظر نحوه خلسة بين فينة وأخرى، ود لحظتها أن تلتقي عيناهما ليدعوها للأقتراب والجلوس جواره، ولكن الحياة كان يسيطر عليها. كان صاحبه أدولف روتبرغ يراقب حديث العيون هذا، وتعلو وجهه ابتسامة رضا، ثم غمز عينيه لصاحبها وأحنى رأسه إلى الأمام.

فتح كارل ماركس كراسته قائلاً، سوف أقرأ لكم قصتي الجديدة التي عنونتها العقرب وفيليكس. ران على الجميع الصمت، ويحال وكأن الدخان قد توقف أيضاً عن الحركة في انتظار قراءته للقصة. لم يطلق بعد جملته الأولى حين ضج المكان بأصوات غريبة وصراخ لم يفقه ماركس منه على ما يدل أو على من تنادي تلك الأصوات. كانت هناك قامات رجال ترتدي ملابس سوداء وأقنعة، تتسلل من الباب لتنتشر في أنحاء الحانة. كانوا يحملون أسلحة رشاشة وسيوفاً، دون مقدمات راحوا يطلقون الرصاص على الجميع. رائحة الدخان والموت بدأت تطغى على المكان. أصبح كل شيء أسود كالحـا لا يرى فيه غير ومض إطلاقات الرصاص، لحظتها كان أبو بشير يقف عند نهاية السلم يتکي على إطار الباب ويوجه رجاله ويحضهم على قتل الجميع.

سلط أبو بشير نظره عليه، ثم سحب مسدسه وسدد نحوه مباشرة، سمع صوت الإطلاق، ولاحقت عيناه مسارها، فصرخ بأعلى صوته، ولكنه شعر وكأن حنجرته قد تبيست مثل

أرض بور عطشى، أراد التحرك تحاشياً لمسار الرصاصة،  
ولكنه لم يستطع الابتعاد، وبقي مسماً مكانه وكأنه قد قبل  
بسلاسلة حديد ثقيلة.

- يمعود.. هاي شبيك.. أكعد.. أكعد مو خباتنا.. هسه إحنه  
أطباقات وهمرة أجيست أنت... أكعد!

كان أبو جعفر يهز جسد كارل ماركس بقوة، ويطلب منه  
الاستيقاظ، ولكن ماركس لم يكن يشعر بما يدور حوله، وقد نز  
العرق غزيراً من جبهته. فتح عينيه ليرى وجه أبو جعفر قريباً  
منه وهو يناشدته أن يستيقظ.

- هاي أنت بأول يوم وبديت تتخبل بنومك، لعد من يمر  
عليك چ شهر شلون... ميه بالمية تلحگ ويطگن عدك كومة  
فيوزات.. أكعد عمي أكعد وسمي باسم الرحمن.

- كان حلماً مزعجاً.. إلى هناك لحق بي أبو بشير وعصابته.

- هذا غير حلم أنگطع بي نفسك، ما تگلي منو هذا أبو  
بشير؟

- هذا هو وجماعته.. من اختطفنا.

- بيا منطقة؟

- لا أدرى فأنا لا أعرف المناطق.

- وما لزموه الشرطة؟

- لا أدرى؟

- أشو أني ما أصدگ أنته الماني.

- لماذا لا تصدق؟ أقسم لك أني ألماني.
- شكلك وحتى من تحلم چنك مثلنـه أحـنه العراقيـن.. تخـلـ وـنـرـ عـصـ منـ نـحـلـمـ وـعـيـاطـنـهـ يـوـصلـ الذـاكـ الصـوبـ.
- لا يختلف البشر بطبيعة أحـلامـهمـ، وبـشـكـلـ وأـخـرـ هـمـ حـالـمـونـ فيـ صـحـوـتـهـمـ وـنـوـمـهـ.
- عمـيـ إـحـنهـ العـراـقـيـنـ منـ الـگـماـطـ وـالـکـواـبـیـسـ تـنـامـ عـلـىـ گـلـوـبـنـاـ.. جـعـفـرـ أـبـنـيـ بـسـاعـةـ ماـ جـابـتـهـ أـمـهـ، تـگـولـ چـنـهـ ذـيلـ أـبـوـ بـرـیـصـ مـنـ يـنـگـطـعـ.. مـرـعـوـصـ وـيـخـضـ بـرـوـحـهـ وـعـشـرـ دـقـایـقـ مـاـ يـثـبـتـ. عـوـفـنـاـ مـنـ هـذـاـ.. گـلـیـ أـنـتـهـ مـتـزـوجـ؟
- نـعـمـ مـتـزـوجـ وـعـنـدـيـ أـبـنـاءـ وـلـكـنـ زـوـجـتـيـ مـتـوـفـيـةـ.
- وأـهـلـكـ هـسـهـ وـيـنـ عـاـيـشـيـنـ؟
- فـيـ لـندـنـ.
- صاحب أحد السجناء الجالس في الزاوية البعيدة، وكان يراقب ويستمع لحديث أبو جعفر مع ماركس.
- حلو طلع كرخي وساكن بالرصافة... وبعد شويه راح يگول عندي عماتي ساكنات بفرنسا.. هاي شلون دبرها الأخ.. يابه وروحه الخالي إذا هذا ما طلع طاك عده فد چم کوبل، أني مو ابن أبويه، دشوف شلون بياوع وشلون يحچي.. چان بالحلم يرفس رفس، أني گلت راح تطلع روحه. همزين أنت أبو جعفر لحگت عليه.
- أبو خيون عليه بتاليها، وخلوه خطيه يجوز صدگ متذهب

والخوف بعده بـ كلبه.

- زين الشرطة خوب ما ضربوك لو هانوك.. تره أخونه أبو معتر مجربهم هو ايه.

وأشار بأصبعه نحو رجل يرتدي كنزة صوفية وقميص أبيض وبنطال رمادي ويجلس القرفصاء جوار باب الغرفة.

- أخونه أستاذ أبو معتر ميهم بالحر، لأنه يشتغل بحقوق الإنسان، وصارله تسع شهر معتقل، ويوميه يأكل فلقة من الشرطة لأن يتعيقل بروسمهم ويتوعدهم بعقوبات شديدة، يكول راح تجيهم من منظمة العفو الدولية، شنو يابه، لأن همه ديخرون حقوقه الإنسانية، وچماله ليهسه أهله ما يدرؤن وين هو مسجون، ومحد سأل عليه.. هاي شلون واحد يشتغل بحقوق الإنسان، وينشمر مثل هذي الشمرة.. وخطيه بعده مصدگ أنو المنظمات الدولية راح أداعي بي. وبس لا تكون أنته بشكله وتنتظر منظمات حقوق الإنسان بألمانيا أداعي بي.

- عيوني حجينا أبو جفر هاي المنظمات عدها هو ايه مشاغل.. فد يوم تشوفني بالتلفزيون وراح أجيب طاريك، وأعرض مشكلاتك ومشكلة كل المساجين ألي بالعراق.. تره داعيك مو هين وهذوله الشرطة راح فد يوم اراويم منو أبو معتر واردلهم الصاع صاعين.

هكذا أجاب أبو معتر، وهو يعتدل بجلسته ويتناول كتابا من تحت وسادته.

- عمي هسه أنته دير بالك على روحك.. وتعرف تره هذوله

الشرطة هم مساكين.. مأمورين مو بيدهم.. شتگول أخونا  
مارکز؟

- حول ماذا؟

- عن هذولة الشرطة تره هم مساكين.

- نعم.. جهاز الشرطة اخترعه السلطات البرجوازية، ليس ردًا على تفشي الجريمة بقدر إدراكتها لتزايد الحشود الجماهيرية السياسية، وبالذات المؤازرة للطبقة العاملة التي باتت تهدد مصالحها الاقتصادية. سلطة البرجوازية في مساعها هذا تضع نصب أعينها، مهمة مراقبة الطبقة العاملة والتدخل في صلب إدارتها، مثلاً اخترع التعليم لتبنيت من خلاله مفاهيمها وقيمها وسط المجتمع، وهناك الكثير مما تقدمه الرأسمالية لقولبة المجتمع، ووضعه على خطى خياراتها.. ولكن الحتمية التاريخية تقول إن للطبقة العاملة كلمة ومفاهيم أخرى، وهي التي تنتصر في نهاية المطاف.

- يمعود على كيفك وين رحت، وين وديتنه، إحنه تره ما عدنه شغله بهاي السوالف.. دور وجهك ونام وأچفينه شرك.. عمي هسه محبوس على سالفة قچق يم الحاكم هيئه.. داعملك واحد تدبر يم القاضي، وبواسطة العشيرة تفض بچم دفتر.. عركة وبيها مغاريج ومفاسيخ.. دفتر دفترين نطلع بعدهن ونشتم هوه ربك.. سوالف السياسة ما تجيب غير الفاينات وگطuan الأرزاق.. وتعال وأثبتت كون أنت ما عندك شغل بيـه.. تره الخوف بعده بگلوبنا من ذيـج الأيام ليهـسه.. نام خالي نام.. أني گلات هذا الصماخ بي بلوـه.. طلع شايل بلاـوي.

- حجي أبو جعفر وروح الوالدة العزيزة تره هذا فيوزاته طاگات ومشخوط بالكامل.. عوفه لتبلي.. تره هسه يگوم يغرس بعد أكثر... وتصير بينه دگة ما تتحچي، بشكل ذاك العهد، نطلع كلنه مشتركين لأن إحنه چنه نستمع إله، وما خبرناهم عليه وتعال هلمره خلص روحك.

- لا عمي راح ذاك الوگت بس مثل هذي السالفة لا گفه طين.. وإحنه ما عدنه خلگه.. شنو برتواجية شنو طبقة عاملة.. أشو العراق من شماله الجنوبيه كل الناس بيده فد سوه.. كلها تركض والعشه خباز.. وتتسعة وتسعين بالمية من العراقيين ييجون ويلطمون من الصبح لليل وأمورهم لاگفة هوه، ليش هو أکو برتواجية لو ما أدری شنو.

- هذا ليس حقيقياً.

- شنو قصدك.. شنو المقصود؟

- قولك بأن الجميع سواسية وليس هناك فرق بين الطبقات.

- عمي إنت ليش متنام وتعوفنـه.. اي هسه أنت منين الله جابك؟

- عزيزي أو الأحرى أعزائي جميعاً.. إن تاريخ أي مجتمع حتى هذه اللحظة، ليس سوى صراعات طبقية.. حر وعبد، نبيل وعامي، بارون وقن، معلم وصانع، وبكلمة مختصرة ظالمون ومظلومون، وهم في تعارض دائم، خاضوا ويخوضون حرباً متواصلة، تارة معلنة وطوراً مستترة، حرباً كانت تنتهي في كل مرة إما بتحول ثوري للمجتمع كله، أو

هلاك كلتا الطبقتين.

- يا يابه.. يا بويه.. يمودين رحمه لأجدادكم تعالوا طلعوا  
الهاده قبل ما يخبلنه.. صارلي سنة ونص بالتوقيف وراسي  
يوميه يريد ينفجر من طنين الذبان وهوسة المركز، هلمرا  
جبتونه واحد مخبـل ومستوي.. ويحـي سوالف ما نفهمـه.

صرخ أحد السجناء بعد أن استمع لما تفوـه به كارل ماركس،  
وراح ينادي على الحرس الواقـف جوار الباب أن يأتي ويأخذ  
مارـكس بعيداً عن غرفة الـبس.

- هـاي شـبيـكم يـمـودـين تـرهـ بـيـبـين عـلـيـهـ حـبـابـ وـيـرـيدـ يـسـولـفـ..  
ما بـيهـ شـيـ.. خـوبـ ما ضـربـلهـ لوـ أـعـتـدـهـ عـلـىـ وـاحـدـ.. خـلـوهـ خـطـيـهـ  
يـدرـمـ.. الـحـيـ بـفـلوـسـ لـوـ مـوـ بـفـلوـسـ.

- عـيونـيـ أبوـ معـتزـ شـنـوـ إـحـنـهـ عـاـيـزـينـ لـغـاوـيـ،ـ حتـىـ يـجـيـ هـذـاـ  
الـطـبـاـگـاتـ يـفـرـغـ لـغـوـتـهـ بـرـاسـنـهـ.ـ نـسـيـتـ ذـاكـ الشـهـرـ منـ جـابـولـنـهـ  
وـاحـدـ گـالـ أـنـوـ هوـ أـسـتـاذـ بـالـجـامـعـةـ،ـ وـهـمـ خـرـطـ بـرـاسـنـهـ اـسـبـوعـ  
كـامـلـ،ـ تـالـيـ بـأـوـلـ رـاشـدـيـنـ طـلـعـ بـيـبـعـ جـگـاـيـرـ وـشـخـاطـ يـمـ جـامـعـ  
الـخـلـانـيـ.

- إـيـ وـلـلـهـ صـحـيـحـ هـذـاـ هـمـيـنـ بـعـدـ رـاشـدـيـ وـجـلـاقـيـنـ مـنـ عـرـيفـ  
أـحـمدـ رـاحـ بـيـبـينـ مـنـ يـاـ مـلـهـ وـيـاـ نـوـعـ مـنـ أـنـوـاعـ السـخـتـاتـ مـحـبـوسـ  
عـلـيـهـ.

\* \* \*

رغم أنه أعار ماركس بطانية صوفية، ولكن السجين أبو

جعفر ومنذ البداية لم يكن ودوداً بشكل كامل وقد انقض بوجه ماركس بسورة غضب غير طبيعية بعد أن سمعه يقول في حديث عابر بأن الإنسان هو بالمعنى الحرفي حيوان سياسي وليس مجرد حيوان اجتماعي، ولكنه حيوان يحاول أن يميز نفسه وسط المجتمع وإن أفكاره هي خلاصة لحالته المادية الاجتماعية.

عندما صرخ أبو جعفر بصوت تردد بقوة بين جدران الغرفة وجلب انتباх الجميع بمن فيهم الحرس.

- لك أنته يبين عليك فد واحد زنديق كافر ملحد ماكو مثالك..  
گوم من هنا.. جيب البطانية لا هسه أشوفك النبي عربي  
والملائكة شهدود.. گوم.. الإنسان حيوان اجتماعي.. هاي هم  
چانت عايزة.. هاي أنته مو غيرك بهذا الشكل.. ساعة  
المصخمه الجابوك يمي..

أثناء الصراخ والتهديد سحب أبو جعفر الفراش الصوفي من تحت ماركس وتركه منبطحاً على الأرض الأسمانية.

- تعال خالي.. تعال هنا يمي.

جاء صوت أبو رمزي خافتًا واهناً وكأنه يقول ذلك باستحياء. وهو السجين الجالس قرب باب الغرفة وطاويا قدميه تحت عجيزته

- يعود أبو رمزي خل يولي.. تره هذا زنديق راح يضوحك، وأنته بيا حال ورجال مريض.

- مخالف عزيزي أبو جعفر هم خطيه مسجون مثلنا..

شوف شنو عنده من مشكله.

التفت أبو جعفر نحو ماركس وطلب منه الذهاب إلى جوار أبو رمزي، فلم يتردد ماركس وذهب إلى هناك حيث قدم له أبو رمزي بطانية صوفية افترشها جواره فجلس ماركس عليها شاكرًا أبو رمزي صنيعه.

- لا يابه عليمن تشكرني كلنه بمحنه السجن..

- وهل أنت أيضا لك فترة طويلة في السجن؟

سحب أبو رمزي نفساً طويلاً ثم أطلق حسراً أطول منها وتنهى وطأطاً رأسه وأجاب

- من ونبي الناس حارت والأفكار اليوم جارت

بالعكس دنياك صارت وأصبح المتبوع تابع

- لم تجبني؟

- قدمت لك خلاصة الموضوع، لتلح أخيه.

- سيدي العزيز لم أفهم الحديث بشكل واضح.. وما المقصود؟

- عزيزي الدنيا أفتررت ودارت وتشوفني اليوم سجينًا و هاي هي الأشهر تمضي ومحد يفرج عنني.

- وما سبب سجنك؟

- أخونا الطيب لتستعجل.. السوالف راح تجييك أجن أجن، سوف يطول بك المقام وتأتيك جهينة بالخبر اليقين.

- وماذا يعني ذلك؟

- بالصبر كضيّت العمر والراس شيب من زغر

العصفور مبصيد النسر واللوم ميرد جمر

- يظهر أن قصتك قصة..

- سوف تكون بيننا ليال طوال وأحاديث كثار، وتفصح أنت عن وضعك، وأحدثك عن وضعي لنتسامر بالروايات.. أليس ذلك أفضل.. يا صاحبي السجن، أما أحدكما فيسوقى ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان. وأنا وأنت واحد من هذين السجينين. ثم أطلق ضحكة طويلة ودفع بيده كتف ماركس مازحاً.

- إنك تزيد حيرتي يا سيدى.

- لا تحتار فأنا أعني احنه راح نتسامر بالأحاديث في قادم الأيام.. أوكي؟

- حسنا لندع الأمر إلى أيام قادمة.



## في حضرة العقيد لطفي

شعر ماركس باكتئاب حاد بعد أن اجتاز الوقت ما بعد الساعة السابعة مساءً، وقد عانى خلال فترة النهار من تخرصات باقي السجناء، فبعضهم أتهمه علناً بالجنون، وأخر بالجاسوسية. لا بل عده أحدهم كافراً ملحداً، بعد أن سمع منه ما لا يقبله عن المجتمع وطبقاته، وكيف تستغل البرجوازية الكثير من المناسبات والتقاليد والأفعال المختلفة وحتى الدين لخدمة أغراضها والحفاظ على مكاسبها

تفرس ماركس وجوه زملاء الحبس، ثم أدار وجهه وحاول العودة إلى النوم وتركهم في حديثهم الهازئ الشاكي، ولكنه كان يركز سمعه على ما يتفوّه به هؤلاء، محاولاً معرفة ما يعنيه لهم وجوده بينهم، فشعر بنبرة العداء التي تفصح عنها جميع أحاديثهم، دون أن يجد من بينهم من يدافع عنه، سوى أبو معتر الذي راح في إغفاءة عميقه وكذلك أبو رمزي بصوته المعلول الراجف.

جميعاً وفي كل المنعطفات، من شاهدتهم ومن واجههم وتكلم معهم ولاحظ تحركاتهم وتمعن أحاديثهم، وجدهم يتشاربون في الكثير من الطباع والتصيرفات، الحدة، التطير، التشاوم، الإدعاء وتضخيم الأمور، الخصومة، المنافة والهزء بالأخر وحتى تخسيس الذات. تذكر ما سبق أن وصل إليه من استنتاج حين دون في دفاتره، أن الانكليز لديهم جميع الشروط المادية

للثورة، وما ينقصهم هو روح الحماس الثوري، ولكنه هنا يدرك الآن بأن العراقيين وبالنطلاق، هم غير الانكليز، لديهم الكثير من الشروط للثورة، ويتوفر فيهم الحماس الثوري، ولكن لهم قدرة غريبة عجيبة على بعثرة قواهم، وتغلب تلك الطباع وتشتت جهودهم في اللاجدوى.

قبل منتصف الليل فتح باب غرفة الحبس ودخل العريف أحمد، الذي لم يظهر طيلة النهار في مركز الشرطة. تقدم ناحية ماركس الذي كان نائماً مكوراً جسده ومتخذًا من كفيه وسادة. لكر العريف أحمد بحذائه ساق ماركس، فلم يجد استجابة منه، فكرر الأمر بقوة ولعدة مرات وبشكل سريع، فاستيقظ ماركس ونهض فرعاً فاركاً عينيه محاولاً استجلاء الوضع مع الضوء الشحيح للمصباح المعلق في سقف الغرفة.

- إنهض بيريدك العقيد.

- وبهذا الوقت من الليل!

- ليش حضرة جنابكم لازم إنته من يقرر المواجهات.

- أليس من المناسب أن يكون مثل هذا الأمر في النهار؟

- هذا ميخصك والعقيد هو إللي يقرر. وإذا تشوف عندك مانع گلي حتى نروح لغرفة الحمام ونشوف شلون تمانع بعد ما تلعب الصونده على ظهرك ورجليك لعب.

- وماذا ي يريد العقيد؟

- إمشي لك قشرم، هلمرة تره حمضته. إذا تستمر بهذا الشكل تره تشوف اللي ما شفته بحياتك وأخليك تقره زيزي

وتغنى أبوذيات... ومن جانبي ألغى قطعيا مقابلاتك للعقيد وأختصرها بس من يمي.

رفع ماركس جسده بتناقل فشعر بألم حاد في قدميه وبباقي أعضاء جسده ولكنه وقف معتدلاً وتحرك وراء العريف أحمد مجتازاً الممر الطويل حتى غرفة العقيد. طرق العريف الباب ثم فتحه وسحب ماركس من يده وأدخله الغرفة ووقفا أمام العقيد.

- إيه هسه بيها مجال.. ظهرت خافتاك.. بينت أدمي... شنو إسمك كتنلي؟

- ماركس.

- إسمك الكامل.

- كارل هاينريش ماركس.

- ألماني مو؟

- نعم ألماني.

- وشلون نعرف أنتو أنته صحيح هذا الشخص، مثل ما تدعى، والتقرير الليالي البارحة يگول أنه ماكو هناك دليل على صحة أدعائك.

- لا أدرى..

- ما تگدر تثبت شي يحدد هويتاك؟

- كلا أستاذ.

- لك مو علمتك.. گول سيدي

هكذا قال له العريف أحمـد وهو يلـکـه في ظـهـرـه

- لـعـدـ شـنـوـ تـگـولـ أـنـيـ أـسـكـنـ بـاـنـكـلـتـراـ.

- سـكـنيـ بـعـدـ أـنـ غـادـرـتـ أـلـمـانـيـاـ هوـ لـنـدـنـ.

- يعني ماخذ جنسية بـرـيـطـانـيـةـ هـمـينـ؟

- كـلاـ أـسـتـاذـ أـنـاـ مـوـاطـنـ أـلـمـانـيـ.

- وـتـدـعـيـ عـالـمـ آـثـارـ؟

- أـنـاـ كـذـلـكـ.

### فجأة طلب العريف الحديث فوافق العقيد

- سـيـديـ نـقـلـ لـيـ الشـرـطـيـ عـبـاسـ شـنـاوـةـ.. گـالـ.. طـولـ الـيـومـ  
صـارـتـ لـغـاويـ بـيـنـ السـجـنـاءـ، أـبـوـ جـعـفـرـ يـگـولـ عـلـىـ مـارـكـسـ  
كـافـرـ وـزـنـدـيقـ، أـوـ سـجـينـ لـاخـ يـگـولـ عـلـىـ مـخـبـلـ وـطـبـاـگـاتـ،  
وـشـلـاـگـهـ الـچـايـچـيـ يـگـولـ عـلـىـ جـاسـوـسـ.. وـالـأـسـتـاذـ أـبـوـ رـمـزيـ قـبـلـهـ  
وـخـلـاهـ يـمـهـ، وـاشـتـغلـتـ رـحـمـةـ اللـهـ بـالـأـبـوـذـيـاتـ وـالـأـشـعـارـ.. الـيـومـ  
كـلـهـ صـارـتـ غـرـفـةـ السـجـنـ مـثـلـ طـوـلـةـ مـالـ صـخـولـ، وـكـلـهاـ تـمـعـمـعـ  
وـالـسـبـبـ هـذـاـ، لـأـوـلـ مـرـهـ يـصـيـرـ عـدـنـهـ هـذـاـ الشـيـ. وـحتـهـ مـنـ طـبـ  
لـلـحـمـامـ هـمـ هـنـاكـ نـزـعـ كـلـ هـدوـمـهـ وـسـبـحـ رـبـيـ كـمـ خـلـقـتـيـ وـمـاـ  
استـحـهـ.

- شـوـفـ مـارـكـسـ، تـرـهـ آـنـيـ مـاـ عـنـدـيـ خـلـگـ طـوـيلـ.. أـنـتـهـ  
بـالـصـحـيـحـ مـنـينـ وـشـنـوـ.. گـولـ أـحـسـنـلـاـكـ وـفـضـهـاـ حـتـىـ هـسـهـ أـنـذـ  
أـورـاـقـكـ وـنـخـلـصـ، وـبـعـدـ چـمـ يـوـمـ تـرـجـعـ الـأـورـاقـ وـنـرـحـلـكـ لـلـجـهـةـ

ألي تعود أليها.

هكذا صرخ العقيد وهو يقف ليتناول علبة السجائر من طرف المنضدة.

- أستاذ لا أعرف وهذه كل ما لدى من معلومات أقدمها، ولو كان جبار هنا لأوضح لكم حقيقة أمري.

- ومنو هذا جبار؟

- أنه الذي أقلني من الناصرية وهو يعرفي حق المعرفة.

- هو أقاربك؟

- كلا هو من كان يقود المركبة التي اختلفنا معها.

- وأنته تعرف اسم جبار الكامل وعنوانه؟

- كلا.

- متعرف وين يسكن.. حتى نندر نساعدك؟

- حتى هذا لا أعرفه سيدى.

- لعد شلون مدگلي أنته منو... متأكد أنت ألماني وعالم آثار؟

- نعم.

فجأة قال العريف احمد

- سيدى تذكر الجاسوس الإسرائيلي الچان عايش سنين  
أبيروت يگدي بالشوارع ويسمونه أبو ريشه، والناس تتصدق  
عليه، تالي من اكتسح الجيش الإسرائيلي بيروت، مو طلع عقيد  
بجيش إسرائيل، وركب دبابه وكما يدور على القيادات

## الفلسطينية.

- أي ذكر هذا الشيء، وشنو قصدك؟
- قصدي خاف هم يطلع الأخ جاسوس ويُگول آني عالم بالآثار.
- عريف أحمد هسه حته لو طلع جاسوس شراح نَگر نسويله.. نحيل أوراقه للمحاكم بعدين يدخلون الأمريكان ويطلقون سراحه.
- هاي شلون سيدي؟
- أي هاي الحقيقة.. بالنجف اعتقلوا جاسوسة إسرائيلية دخلت للعراق بحجة صحافية وبوثائق أمريكية، وچانت تسكن بفندق بالنجف، اسمها باراس تمر أفيما، ومكان ولادتها تل أبيب وعدها هوية ورقم مال الجيش الإسرائيلي، وچماله عدها جواز إسرائيلي، وهمينه الجواز الأمريكي.. الأمريكان تخبلوا ورأسا ضغطوا على الحكومة وخلوها تطلق سراح هاي الجاسوسة.. هاي هيچي صايره الأوضاع.. وهذا حتى لو كان جاسوس هم راح يطلع منها مثل الشعرة من العجين.
- الظاهر انكم انتهيتم للاعتقاد بأنني جاسوس.. ولصالح من أتجسس؟
- لا إسرائيل.
- حسب معرفتي فإن أكثر من عضو في البرلمان العراقي وبافي دوائر الدولة وفي حكومة إقليم كردستان من يزور إسرائيل، دون ضجة، وهؤلاء يعملون ضمن دوائر إدارة

السلطة العراقية فما الذي تريده إسرائيل مني.

- سيدى هذا حچه مصطفى.. هذا لو چان عالم جبير وعلى  
غفله صعد عده الضغط وطگن وايراته لو أنا شويه ما أفهم.

- يمكن الثانية هي الصريح.

- سيدى تره أكثر الالمانيين يكرهون إسرائيل واليهود.

- هاي شمديك عريف حمودى؟

- سيدى سوالف سامعها من الناس.

- يابه ماركس صحيح أنتم الألمان تكرهون اليهود؟.

- ليس كرها سيدى.. فأنا لا أكره بشراً ولا ديناً.

- هاي شلون عود.. هاي جديدة ما سامع بيهـا.

قالها العقيد وهو يقهقه ويسحب كأساً من تحت المنضدة  
ويرتشفه بعجلة ويمد يده ليتناول ملعقة من اللبن الموضوع  
أمامه في صحن صغير.

- تَگدر تفهمنه شنو تقصد بجملاتك الأخيرة، ليس كرهاً وأني  
ما أكره بشر ودين. چنت چنک تريد اطگنه أبيت أبوذية لو  
جنجلوتيه بالشعر، يبين علمك عليه أبو رمزي.

- أستاذى العزيز.. أنا ارفض التعامل مع اليهود كقومية بل  
يجب أن يعاملوا كمواطنين في البلدان التي يعيشون فيها، وهذا  
الفهم يقودنا إلى ضرورة علمنة الدولة وتكريس حرية المعتقد،

وهذا الموقف هو الذي أوضحته دائماً للجميع، ورفضته الرأسماليات الأوربية، وقامت بدل ذلك بإبعاد اليهود إلى فلسطين، لتحول المشكلة من مشكلة مواطنة أوربية، إلى مشكلة عربية. في تفسير مفهومي هذا يمكنني القول، بأن على الحكومات إلغاء جميع الامتيازات الدينية، ليكون جميع الناس متساوين كمواطنين ويتحرر المواطن ومعه يتحرر الوطن ويصبح دولة واقعية..

- لك أنته شد تخربط.. شنو دتحچي.. سيدى هذا گلب مصاريني بهذى اللغة.

- عريف احمد.. معليك أشو خلي يحچي، حتى نفتهم شنو ومنو وشيريد.. إچي سيد ماركس.. كمل شنو تريد تگول.

- عند تلك المهمة والمرحلة يجب أن نكشف كيف يقف التحرر السياسي الكامل من الدين؟ حين ذاك ننظر إلى النتائج. فانعتاق الدولة من الدين وإلغاء امتيازات المؤسسة الدينية. وهذا يتطلب أن تتعامل مؤسسات الدولة بشكل ديمقراطي يكون فيه العمل على شرط احتساب الفرد كمواطن دون حساب هويته الدينية. وهنا تكون الدولة ك وسيط وحين يتحرر الوسيط، يتحرر الإنسان، لحين تهشم هذا الوسيط لتبني المشاعة الاشتراكية الخالية من الامتيازات الطبقية. إن ما يسمى الدولة اليهودية هو في الأساس نفي للدولة، وفي ذات الوقت، لا يحقق لها يهوديتها، وهذه التسمية والسلوك يقود اليهود إلى الوهم. وتسمية الدولة اليهودية وسيلة لغايات غير حقيقة تكون الدولة فيها دولة نفاق. ولذا أقول إن هذه دورة تبدأ بتحرر الإنسان

سياسيًا، حين ينفصل بالكامل عن روابطه المقيدة، ومنها التقاليد  
البائدة والالتزامات الدينية.

- لك عريف أحمد أخذه رجعه المكانه بسرعة.. لا هسه  
أكُوم أَكْطَع عليه النطاق بهذا الليل.. أنعل أبو الجابه عليه لا بو  
أبو الطبه للمرکز.. هذا طير البيكين بالكامل.. لك هذا شنو  
مكينة مال لغوه.. وهاي السوالف وين ضامها.. امتيازات  
طبقية ومشاعة، ودولة نفاق.. لك ما صدگنه خلصنا من الرفيق  
ولغوة الحزب.. وشكال أبن المھلوس ميشيل عفلق لو الااغبر  
صدام، هسه هذا جاي يريد يرجعنه على ذيج الأيام.. أخذه  
وروح جييلي ماعون لبلبي.. رجعه المكانه لهذا أبن المسموط  
وخلی بالحبس خايس چم أسبوع قبل متذرون أوراقه.

أسرع العريف أحمد بسحب ماركس من ساعده ودفعه بقوة  
باتجاه باب الغرفة ولكن ماركس استدار ووجه كلامه إلى  
العقيد.

- وإلى متى سوف أبقى دون أن يفرج عنِّي؟

- دروح لك روح بول ونام.. دون أن يفرج عنِّي.. خوش  
يطگطگ بمنگاره.. دون أن يفرج عنِّي.. إيه مو إحنه روضة  
مال أطفال تجي عدنه الصبح ويجي بابا يأخذك الظهر.. أنقلع  
من گدامي لا أجي أبيس بييك تبييس.

عند ذلك أبطأ العريف أحمد في سحب ماركس وحاول قدر  
الإمكان إبقاءه في الغرفة، عسى ولعل العقيد يفعلها وينهض من  
مكانه ويأتي لجلده بالنطق مثلما قال، ولكن العقيد كان ساهيًّا

عنهم منشغلًا بتحضير كأس شرابه، وحين رفع رأسه صرخ  
بأعلى صوته.

- بره زمال مو گتالك أخذه من هنا.

## ما وزع مع الحصة التموينية

سار ماركس بثاقل نحو غرفة الحبس ولكن العريف أحمد زجره ودفعه من كتفه وطلب منه الإسراع. دخل ماركس الباب فوجد الجميع نياً ما عدا أبو رمزي الذي كان مستيقظاً يتكئ على يده ثم اعتدل في جلسته حين اقترب كارل ماركس منه.

- ها بشر شنو صار؟

- لا شيء.

- شنو ماكو شي.. قابلت العقيد لطفي..كلمك..كلمته.. وما صار شي.

- نعم كلمني وكلمته وفي النهاية تغير مزاجه وراح يشتم ويصرخ فخرجت وعريف احمد من غرفته.

- چان يشرب؟

- نعم..

- إبن المنبوش.. هم دمج وهم يتعيقل براس الأوادم..

- مازا تعني بدمج؟

- شوف سيد كارل ماركس.. أنت بديت تفتهم شنو نحجي

بالعرابي.. وأني راح أسلو لفلاك خبط لبط.

- مَاذَا تَعْنِي بِطْبُلْتَخْبَطِ -

- يعني أسلفك بلغة بين الفصحي والعامية، حتى متتب  
حبيبي مرکوسي ابن هنروش الورد. خوب تفهم شنو أڭول؟

- أعادى الشيء القليل.. والغالب أتفهمه بشكل حسن.

- خوش.. أنا راح أحچي بشكل يساعدك حتى تفتهـم.. بس قبل  
هذا خلي أكـالـك فـدـ شـيـ.. إـحـنـهـ بالـعـرـاقـ ماـ عـدـناـ شـيـ غـرـيبـ لوـ  
عـجـيبـ.. كـلـشـيـ يـصـيرـ وـيـصـحـ.. الـأـعـوـجـ يـصـيرـ عـدـلـ، وـالـعـدـلـ  
يـصـيرـ اـعـوـجـ..

- كيف يتم هذا؟

و پنج ب

## الرواوي تفترسه الدجاجة - كسر الزجاجة

وَغَنْمٌ تُسَرِّحُ

والخصي يفوز بزواجه

وی ذپاہ

هذا مخلص الحچي بالعراق في هذا الزمن.

- أوكى أستمع لك.

- أسللتني شنو دمج..خوش ابن عمي..هذا العقيد چانت  
رتبته قبل على عهد البعثيين رئيس عرفاء.

## - إذن كيف أصبحت رتبته عقيد؟

- أني گتلڪ راح يصير كل الليل عشه.. يعني راح نسهر

ونسولف.. يعني نحكي قصص.. أوكى أبو.. صدك بالمناسبة  
أنت بالمانيه شنو يسموك.. أبو منو؟

- نحن فقط نكنى بأسمائنا وأنتم فقط من يستخدم هذه  
التسميات.

- خليني اسميك.. لأن أني أشوف مو لايقه أكلاك كالساع  
ماركس.. وهم ما أكدر أكلاك أستاذ ماركس خاف تطلع مثل  
نولاك اللعبيه لو همین دمج.

ضحك أبو رمزي ثم كتم ضحكته وتلفت ناظراً لباقي  
السجناء، الذين كانوا يغطون في نوم عميق وتصدر عن  
البعض منهم، نغمات وحسرجات أصوات ترتطم بجدران  
الغرفة ويتردد لبعضها صدى.

- أرجوك دع هذا جانباً ونادني فقط بماركوس وهذا يكفي.

- خوش براحتك سيد ماركس.

- لم تجبني عن معنى الكلمة دمج؟

- تريد تنام لو عاجبك نسولف.. لأن السالفه طويلاً.

- تحدث بما نويت عليه فليس لي رغبة بالنوم.

- أوكى.. يا ابن الحال.. ربک قسمها عليه ولا اعتراض  
على قسمته، إنما الدنيا مشيناها خطى كتبت علينا، ومن كتبت  
عليه خطى مشاهها، ومن كتبت منيته بأرض، فليس يموت في  
ارض سواها... أغاثي تره ربک كلشي فصله وسواه لبني ادم  
وكلمن يأكل حقه وقسمته.

## - وما علاقة هذا بالعقيد لطفي؟

- راح اسولفلك قصة هذا النغل لطفي، وشلون انكلب إلى عقيد لطفي، وأنت راح تعرف شنو معنى كل هذا الحچيته...عزيزي ماركس هذا العقيد لطفي چان رئيس عرفاء بالشرطة على عهد البعثيين.چان متزوج مرية أصل أهلها أكراد أفيالية، أو ولادة أهلها بالعراق..البعثية صدرو قرار..إذا واحد عراقي موظف لو بالشرطة لو بالجيش ينهون خدمته الوظيفية، يعني ينطرد من الوظيفة، إذا بقه متزوج من أجنبية وبالتحديد إلى سماهم القرار التبعة الإيرانية، وهذا شمل الأكراد الفيلية بالقرار. رئيس عرفاء لطفي خاف على وظيفته، فطلاك زوجته وتسلم الإكرامية. بعد فترة قصيرة قامت الحكومة بحملة، وسفرهو أعداد جبیره من العراقيين، بحجة كونهم غير عراقيين، وصنفهم القرار بأنهم تبعية إيرانية، من بين الذين سفروهم چانت مطلقة رئيس العرفاء لطفي مع ثلاثة من أطفالها.. ما راد لطفي يبقى الأطفال يمه، ومن سأله ليش ما بقه الأطفال يمه، گال بأن يخاف تثار حوله مشكلة جديدة، لأن أحدهم من أصل غير عراقي.. بقى لطفي في وظيفته وتزوج من امرأة أخرى.

الحرب العراقية الإيرانية طولت، وشعرت الحكومة العراقية بأزمات وخسائر بشرية ومادية. صدر قرار عن صدام حسين، فرض بي على جميع الموظفين الحكوميين يروحون لجبهات القتال، وأطلق على ذيج المهمة اسم المعايشة، يعني الموظف يروح لجبهات القتال لمدة شهر أو أكثر ويعيش حياة الجنود في

مواقع القتال، ويعتاد على أوضاعهم ويشاركون في حياتهم اليومية.. جبرو رئيس عرفاء لطفي على الذهاب إلى الجبهة في قاطع الشوش القريب من مدينة العماره.. چانت المعارك بذلك القاطع من الجبهة ما توقف، وچانت هجمات إيران شبه يومية بذيج المنطقة، والقطعات العسكرية يومياً تنطوي خسائر كبيرة.. وقتل بعض زملاء لطفي من الذين ذهبوا معه إلى ذلك المكان. بيوم من الأيام فكر رئيس عرفاء لطفي، وحثه يتخلص من مصير مجهول چان يتهيب منه، أو ويه تكرر المعارك وشتدادها، حس بأن الموت بده يتقرب منهم يوماً بعد آخر، ويمكن أن يكون هو أحد ضحاياها في أية لحظة. فكر وقرر أن يهرب إلى إيران، فاستغل اشتداد المعارك، وفي ليلة ظلماء لبس قميص وبنطرون مدني جوه ملابسه العسكرية، وتسلل إلى أماكن بعيدة عن وحدته العسكرية أثناء اشتباكها بالقتال، ومن وصل مكان قريب من جبهة الجيش الإيراني، ضم نفسه في حفرة إلى أن طلع الفجر. بعد ذلك خلع هدومه العسكرية وراح وسلم نفسه للجيش الإيراني مدعياً هروبه من العراق وأنكر كونه عسكري و بسلوك الشرطة العراقية.

- كيف فكر بتلك المجازفة الخطيرة.. كان من الممكن أن يقتل.

هكذا قال ماركس وهو يقاطع حديث أبو رمزي.

- هاي السالفة بأولها..

- هل حدث له شيء مؤذٍ؟.

- لا عمي چان أمجنصل ومضبط شغله.

- مادا تعني أمجنصل؟

- أمجنصل مو أمجنصل، يعني إن حظه كان حسنا جدا.. بعد اعتقال لشهر أو شهرين وتحقيق مو عميق، أرسلوه إلى معسكر للاجئين العراقيين. تعاون لطفي بصورة كبيرة مع الاستخبارات الإيرانية، وكلفوه بمهمة المشاركة بتوزيع الطعام على الأسرى، ويطلبون منه أحيانا، مشاركتهم بالتحقيقات اللي يسووها مع بعض العراقيين من اللاجئين والهاربين وهماتين الأسرى. وما طولها عليك.. بمعسكر اللجوء ارتبط لطفي بالعمل السياسي ويه فصيل معارض لحكومة صدام حسين، وصارت ظروف عيشه عال العال بعد هذا الارتباط، وصار وبفتره قصيرة من رجال الصدوف الأولى في المعارضة الإسلامية العراقية. بعد سنتين فكر بأن يبحث عن أطفاله وزوجته السابقة يعني طليقته، التي سفرتها الحكومة العراقية إلى إيران. فراح يسأل في معسكرات اللاجئين فلم يجد من يدلية على مكانها.. سمع خبر من أحد العراقيين، بأنه يگدر يدور على مطافته وأولاده في مدينة بختران، فهي تضم أعداداً كبيرة من المسافرين العراقيين، وبعد أن استقرت أوضاعه قرر الذهاب إلى مدينة بختران، وهاي المدينة تقع غرب إيران. راح لهاك وبحث طويلا عن عائلته السابقة ما لگه هناك شي، فركب وراح المدينة طهران، ظل يفتر بشارع مروي، وتعرف هناك على هوایه العراقيين، وفي أحد الأيام شاف أبنه الكبير في أحد أسواق مروي. إقترب منه وتودد إليه، ولكن الطفل قد كبر

وبلغ من العمر الأثنى عشر عاما، وچان سامع من أمه شلون أبوهم عاملهم، وشلون فضل نفسه على الاحتفاظ بيهم، فما كان من الأبن غير رفض الحديث مع أبيه، لا بل قابله بالشتائم. تعقب لطفي ولده إلى حيث يسكن، وحين عرف موقع دارهم، تهياً ورجم في اليوم التالي وطرق الباب فخرج طفله الآخر، وبسبب صغر سنها حين تسفيرهم إلى إيران، فلم يكن ليعرف أباها. طلب لطفي من الطفل أن يخبر والدته، بأن هناك شخص يريد الحديث معها، خرجت المرأة لترى لطفي ينتظر أمام الباب، فما كان منها غير طرده شر طرده.

### - وما كان يريد من مطلقة؟

- طباقات..لوگي..چان يعتقد ممکن تحن عليه وترجعه مرة لخ، ويستفيد منها كأيرانية..بس المريه چانت قوية..تقلت بوجهه، وگالله إذا تتقرب مرة لخ من البيت راح أخبر عليك الإيرانيين، شنو ومنو أنته، وشنو سويت بيه وبأطفالك. روح يا ساقط، وأني مو بشكلك وأخلاقي مو بشكل أخلاقك..روح والله راح يجازيك فديوم. والله بالأخير صدك جازاه ورفعه عقيد.

ما عليه.. لطفي ما كذب خبر ما بقه بطهران، رأسا طلب من مسؤوله الحزبي الانتقال إلى مدينة قم، بحجة التقرب إلى المزارات الدينية والدراسة..وأصبح لطفي يتنقل من مدينة إلى أخرى، لحين سفره إلى كردستان بالعراق، حيث شارك بقوة في العمل السياسي، ويه باقى الفصائل المعارضة، وصار عضوا ارتباط بيناتها. بعدين إنطلق إلى سوريا وهناك أشتغل بعدة مهن كان آخرها شغل قيق.

- ماذا يعني هذا العمل؟

- تهريب بضائع بين تركيا وسوريا ولبنان..بعدين طور عمله ليشتعل في تهريب البشر من سوريا إلى أوروبا مروراً بآسيا. بعد سقوط صدام حسين على إيد الأمريكية، فلهذا رجع إلى العراق، ولأنه چان ينتمي لذك الفصيل الإسلامي، فلهذا رجع إلى الخدمة في الشرطة، ومنحو رتبة عقيد، بعد أن احتسبت له جميع سنوات هروبه خدمة لأغراض العلاوة والترفيع والتقاعد، وعوض بتملكه دار سكن، ومنح مبالغ كبيرة تكريماً له على سنوات غربته، التي حسبوها إله سنوات جهادية..وهسه أنت أتشوف المجاهد السيد العقید لطفی، بالزي العسكري وبالدوام الرسمي وبالخفاره مالته، وبأهم مركز للشرطة وسط بغداد، يصلى الفرایض الخمسة يومية، ويزور الأئمة، بس بي سوله لازم يلطف ليلية نص عرك لو أكثر، وبعد فد ساعة زمان من يطوخ، يظل ييجي وينوح..علیمن ما تدری..يمکن على طیحان الحظ مالته..لأن ما أعتقد هذا ييجي ندامه على الماضي لو على أفعاله السوداء.

- أبو رمي كيف تسنى لك الحصول على كل تلك المعلومات؟

- شوف ابن عمی..مو يگولون إذا تريد يطش الخبر، أي ينداع السر للعلن، مو عليك تگوله لشخص ثالث.. بالعراق ماکو هیچ چی، أصلاً ما يحتاج السر لشخص ثالث.. أحياناً العراقي وحده ما يصبر على سره، وتشوفه يحوص ويتحرگص ويگوم يهذري بالسر مالته، وبعدين تلگي الناس

تحچي بالسر..والشخص يتعجب شلون إنذاع الخبر، وهو ما حاجيه لواحد. لا وچماله يگول چان سري إبير، شلون طش إبين الناس ما أدرى؟

- أبو رمزي إذا أنا صدقـت ما تروـيـه، وقلـتـ أـنـي عـرـفـتـ جميعـ ماـ تـحـدـثـتـ بـهـ فـيـ روـاـيـتـكـ،ـ فـتـلـاكـ كـذـبـةـ لـاـ تـغـفـرـ لـيـ.ـ بالـضـبـطـ أـعـيـدـ سـؤـالـيـ كـيـفـ حـصـلـتـ عـلـىـ كـلـ تـلـكـ الـمـعـلـومـاتـ؟ـ

- أغاثـيـ مـارـكـسـ..ـ العـلـمـكـ هـذـيـ الرـوـاـيـةـ مـسـجـلـةـ بـشـرـيـطـ..ـ وـكـلـ هـذـوـلـهـ الـيـشـتـغـلـونـ بـالـمـرـكـزـ،ـ وـأـغـلـبـ الـمـسـاجـينـ عـرـفـوـهـاـ وـحـفـظـوـهـاـ..ـ بـسـ تـعـرـفـ السـيـدـ العـقـيـدـ لـطـفـيـ مـحـدـ يـحـچـيـ وـيـاهـ،ـ لـأـنـ هوـ قـائـدـ بـالـفـصـيـلـ إـلـاسـلـامـيـ.ـ فـيـ يـوـمـ مـاـ هـذـاـ العـقـيـدـ لـطـفـيـ صـارـ طـلـيـ أـصـلـيـ،ـ بـعـدـ مـاـ شـرـبـ بـطـلـ وـيـسـكـيـ كـامـلـ،ـ وـچـانتـ الدـنـيـهـ حـارـهـ تـشـويـ شـوـيـ،ـ وـالمـزـهـ عـنـبـ وـخـيـارـ وـتـمـرـ،ـ وـهـوـ گـاءـدـ خـطـارـ يـمـ وـاـحـدـ صـدـيقـهـ مـنـ الطـفـولـةـ وـچـمالـهـ گـرـايـيـهـ،ـ وـمـنـ هـذـوـلـهـ الـحـبـابـيـنـ كـلـشـ كـلـشـ،ـ وـرـاحـ هـذـاـ الصـدـيقـ يـجـرـ مـنـ لـطـفـيـ حـدـيـثـ وـرـهـ حـدـيـثـ،ـ وـبـنـفـسـ الـوقـتـ يـسـجـلـهـ بـالـمـسـجـلـ..ـ

يـگـولـونـ هـذـاـ صـدـيقـهـ بـعـدـ مـدـهـ گـامـ يـبـتـزـهـ لـلـعـقـيـدـ لـطـفـيـ،ـ وـيـطـلـبـ مـنـهـ طـلـباتـ كـثـيرـةـ،ـ وـلـطـفـيـ مـاـ يـمـانـعـ،ـ وـچـانـ يـلـبـيلـهـ كـلـ طـلـباتـهـ،ـ بـسـ فـدـ يـوـمـ اـخـتـفـيـ هـذـاـ الصـدـيقـ الـحـبـابـ،ـ بـعـدـ أـسـبـوـعـ وـجـدـوـ هـذـاـ الـحـبـابـ مـيـتـ وـذـابـيـنـهـ فـوـگـ كـوـمـةـ زـبـلـ.

- يعني مقتول؟

- أي نعم مقتول.

- والتسجيل؟

- التسجيل ظهر وتوزع بكل مكان، قبل لا يموت الحباب  
گرایب لطفي، أصلاً توزع حتى ويه الحصة التموينية.. مو  
أگلک العراقيين عدهم طرق عجيبة بالحياة. والسيد لطفي  
وفصيله السياسي يدعون، أن التسجيل مفبرك ومقصود به  
تسقيط المناضلين والفصائل الإسلامية.

- في خضم هذه الفوضى العارمة كل شيء يبدو ممكناً  
وغير مستبعد.

هكذا قال ماركس وهو يفرك يديه ببعضهما، وأدار نظره  
متفحصاً بإحساس كئيب زوايا غرفة الحبس. شعر لحظتها بأنه  
بات جزءاً من هذه الفوضى العارمة التي تلف العراق. يجعله  
الوضع يعيش وسط دوامة لا يستطيع الخروج منها. كل شيء  
فيها غريب ومتسرع وموжу، لم يعد يطيق احتماله، وليس  
بمقدوره مسايرته أو اللحاق به. تأتي الحوادث فيه غريبة  
وصاعقة، لفرض نفسها عليه، وتسحبه وتكتبه بقيودها. لا يجد  
في هذه الأجواء ما يوحى بالاطمئنان، بل هناك دائماً مجهول  
يختفي ملامحه، ثم يظهر بشكل ما، أغله غير متوقع، وغير  
مرغوب فيه، دائماً ما يكون على شكل صدمة أو واقعة خارج  
نطاق المألوف. يتذكر كيف وقع حادث الفندق في تلك الليلة  
المظلمة التي أراد بها ملاحظة الحراس أبو شمخي، ولكن أبو  
شمخي سقط فاقداً للوعي من شدة الخوف. كان من الجائز أن  
تنتهي حياته العملية في تلك الساعات، وعندها عليه تحمل ذنب  
موت ذلك الرجل، ودون أي مبرر مقنع للحدث المفاجئ، ويكون  
 المصيره عندها السجن لعدة سنوات، ولتنتهي مهمته أو حتى

حياته العملية والعلمية وفدراته الفكرية، وتذهب جهوده المضنية التي بذلها خلال كل تلك السنين هباءً منثوراً. ثم توالت الأحداث دون أن يستطيع إيقافها أو تغيير مسارها.وها هو الآن وقد مضى الشطر الأكبر من الليل، يجلس جوار أبي رمزي السجين اللغز المريض، الذي لا يفصح عن سبب اعتقاله ولا عن طبيعة مرضه، ولن يروي حكاية أو حدث يقع في السجن أو خارجه إن كان في الحاضر أو الماضي، دون أن تكون هناك مقدمة طويلة من الغاز أو قصائد شعرية، وما عاد هو يستطيع اللحاق أو التعرف بالكامل على معانيها ومكوناتها، ولكنه يجد نفسه مجبراً على الاستماع لها وحتى قبولها، فهو لا يريد أن يختلي مع نفسه ويفكر بوحده وما تخبيء له الأقدار. يكفيه كل تلك السنين التي أضاعها وصار فيها مضحيا لأجل الآخرين، وكان يضغط على حياته ويكرس يومه لموضوعة الطبقة العاملة وضرورة انتصارها المستقبلي الناجز.

عند هذه اللحظة توقف ماركس وزجر نفسه معايباً، كيف تسنى له الآن، أن يبخس نضاله الطويل، كيف سمح لنفسه الوقوع في فخ هذا الوهن، ليذهب فيه بعيداً ويقرع النفس على سنوات الكد والجهد الفكري، التي افضت بنتائج كبيرة لصالح الطبقة العاملة وأصبحت الشيوعية راسخة، تجوب العالم وتهدد مصالح الطبقة البرجوازية وتعطي للعامل شعلة نور هداية، تدله على طريق الصواب للحصول على حقوقه وحقوق طبقته، وباتت الشيوعية حفاره قبر الرأسمالية.

يا ترى ما الذي دفعه للوقوع في هذا المطب. إن التغييرات الظاهرة أو المظاهر الخارجية للحدث تظل نظرية قاصرة إن لم يحاول المرء معرفة الخصائص البنوية الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع، ويتعمق في دراستها. فالتغييرات الاستعراضية التي يشاهدها المرء أمامه لا تكفي لتلمس الحقائق، فلا بد من عمل وتفكير دؤوب متعمق للوصول إلى مدى تأثيرها. لم أستطع، وتلك كانت لها أسباب ومصادفات لم تخطر على البال، أو لم تكن متوقعة وموضوعة ضمن ما قررت معرفته، لم استطع معها أن أصل بعمق إلى الخصائص الأولية، ومنها طبيعة النمو السكاني الانفجاري للشعب العراقي، رغم ما مرت عليه من حروب وصراعات، وما يرافق هذا الأمر من اختلال في التوازن بين العدد المتزايد للسكان و الموارد المتوفرة، مما يسبب قصوراً كبيراً ومشاكل اقتصادية اجتماعية جمة، ومثل هذا الأمر يحدو بالمرء مراجعة هذا النمط من الفعل بين السكان، والذي ممكن تشخيص أهم علله وهو انخفاض المستوى الثقافي للشعب.

يا ترى ما الذي جعلني أتخلى عن كل هذا الوعي لصالح فكرة انهزامية خطرت فجأة على بالي دون تمحيص؟

- هاي وين رحت سيد ماركس؟

- عزيزي أبو رمزي. كانت جولة مراجعة خاطفة.

- هاي شغالة مو سهلة علي.. آني ما عندي شي خاطف.. لو أخش بالسالفه طول بعرض لو أعوفها لغيري.

- ألم تنعس بعد؟

- إن نمت هسه لو بعد ساعتين لو باچر، حتماً راح أَگَدُ من النوم وأَلْكَي نفسي بنفس المكان.. ويمكن أنام وبعد ما أَگَدُ.. وكل هذا عندي يُك حساب.

- أنا أشعر بالتعب والنعاس.

- أخذ راحتك.. بس قبل شويه گلنتي بانك غير راغب بالنوم.

- بت مقتنعاً بأن في العراق هناك ضرورة أن يخالف المرء نفسه في بعض الأوقات، ليكون جزءاً من الواقع. أعتقد أن المرء يحتاج أيضاً لبعض الأنانية وهذه ضرورية كي يخلو لنفسه ليكتشف خفاياها.

- حلو.. حلو ابن عمي هسة تمام.. هذا هو الصحيح.. كلمن عليه بنفسه مثل ما يكول الشاعر:

## هالوکت شیخه و شبابه كلمن يهفي الكبابه

يُشغّل كلام لشخصه  
يُشغّل غيره ما يخصه

**يُنفصل عن الأحبة  
ويأهـ صحبـه**

- ولو أني لم أفهم تماماً ما عنيته بـشـعرـكـ، ولـكـنـيـ لمـ أـكـنـ  
أقصدـ ماـ أـنـتـ تـحـدـثـ عـنـهـ، وـرـبـماـ أـنـاـ كـنـتـ سـيـئـاًـ بـالـإـفـصـاحـ عـنـ

ما أردت قوله.

- صاحبي، لتكلّم تبيع فيكات وبوزات وتنفس وتنعيق  
براسي بهذا الليل.. دور وجهك ونام وتصبح على ألف خير..  
أوكي سيد ماركس ابن هنروش لو مو أوكي.

- أوكي...تصبح على خير

مد ماركس جسده فوق الغطاء الصوفي لينهي الحديث مع  
أبي رمزي، ويدخل في عالمه الخاص.

رغم النعاس الذي بدأ يراوده، ظهرت أمامه كومة من  
أحداث وأحاديث راح يلملها ويبعثرها، متقدلاً هنا وهناك،  
فشعر بثقل كبير يضغط على رأسه. فرك فروة رأسه فشعر  
 بشيء من رضا وهو يمرر راحة يده ويداعب الشعر الذي بدأ  
ينمو مثل دبابيس، ولكن برؤوس ناعمة رغم يباسها. فقد بدا له،  
ربما بعد فترة ليست بالطويلة ممكناً له استعادة لحيته وشعره  
الجميل، اللذين كان يعتز بهما أياًماً اعزاز. ولكنه عند هذه  
اللحظة شعر بضيق تنفس وثقل في صدره، وأحس بالخوف من  
رجوع المرض إليه، وبدءَ عودة علته من جديد، تلك العلة التي  
تجعله طريح الفراش لعدة أيام، وتتطلب علاجاً مكثفاً. عسى أن  
يكون ظنه هذا خائباً في مثل هذه الأوضاع السيئة. ففي مسيرته  
الطويلة تعرض لمثل ذلك مرات عديدة، وواجهه المرض  
 بشجاعة، ولكن لم يكن يتهدى مثل هذه المرة، فهو يشعر الآن  
بعدم القدرة على المقاومة إن عاد له الربو المؤذى. تبسم  
ماركس ومسد شعر لحيته الخفيف محاولاً إبعاد ذهنه عن مثل  
هذا التفكير السيئ والمخيف.

ما كان يراود تفكيره وبالحاج، هو سبب مجئه إلى العراق، ووضعه الآن في هذا المحبس الغريب، ولسبب يبدو أكثر غرابة من المكان نفسه. ما الذي حدث؟ وهل حق الغرض الذي جاء من أجله، مهمة صعبة وعسيرة منذ بدايتها.

حين اتخاذ القرار بالسفر إلى العراق، لم يستمع لنصائح الأصدقاء الذين استغربوا بالمطلق تلك الرسالة التي تسلّمها، ودهشوا من نيته السفر إلى بلد، لا ترد منه سوى الأخبار السيئة، لا بل المخيفة. ولكنه استسهل الأمر، وظن أنه بصدق الحصول على ذخيرة معلوماتية حية، سوف يكتسب منها خبرات جديدة، لم يكن على إطلاع سابق عليها، وسوف تكون تجربتها غنًى معرفياً، ربما يقدمه في النهاية بكتاب جديد يكمل مسيرة عمله وبافي كتاباته عن نضال الطبقة العاملة، وطرق ووسائل الإنتاج في دولة من العالم الثالث مثل العراق.

الآن يجد أن الطريق قد أغلق في وجهه تماماً، وما عاد يستطيع التحرك ومعاينة الواقع العراقي، وعليه أن يختزل الأمر عند حدود هذه الحجرة، التي تضم بين جنباتها ثلاثة عشر سجينًا يزيدون أو ينقصون مع مرور الساعات.

ما النموذج الذي ممكن استحضاره، ومن أي فلسفة وعلوم يمكن اشتقاده، لتوصيف حال العراق، وواقع مسيره اليومي. فهو ليس بكيان مجتمعي واحد، أيضاً هذا الشعب يفتقد الهوية الوطنية الموحدة. طوائف وإثنيات مرت بحقب استبداد وقسوة، منذ آماد بعيدة، فعملت على تأطير عالمها الخاص، ورسخت في فكرها الجماعي، تقاليد تحذر النفرة والتشريذ على حساب

التقارب والانسجام. إرث ثقافي وإبداع واسع وكبير تم تدميره بعشوائية الخيارات وازدراء الخبرة. ليس هناك ما يشي بصراع طبقي فالطبقة العاملة، إن لم تكن مشتتة فهي قليلة العدد والخبرة، وغير قادرة على خوض صراع أيًّا كان نوعه. حتى القيم التي يتمسك بها العامل العراقي لا علاقة لها بصراع ومواجهة الطبقات المستغلة، أو بناء وحدة طبقية ودفاع ذاتي لأجل المصالح، وإنما ترتكن أساسياتها ويتمسك افرادها بأكثر القيم تخلفاً ورجوعية، هذا ما عرفه من خلال محدثيه ومعايناته ولقاءاته رغم قاتتها، ولكن حسه الطبقي جعله يكتشف كل تلك العلل والمساوئ، دون بحث طويل ومضني. حتى البرجوازية تراها قد تعرضت لضربات موجعة، أجهضت تطلعاتها وما عادت قادرة على بناء هيكل وأسس مادية اقتصادية، رغم أنها كانت سابقاً تمتلك وسائل أنتاج، ولكن تم إفقارها وتشتيتها من قبل العسكر ودعاة الاشتراكية الفوضوية.

## سر مرض أبو رمزي

لليوم التاسع لم يصمت أو يكف أبو رمزي عن الحديث وإطلاق أبيات الشعر والابوذيات، رغم علتة التي تضعف قواه، مثلما قالها يوماً ثم صمت، ولم يفصح بعدها عن نوع المرض الذي ينهك جسده. بدا امتناع أبو رمزي عن الحديث حول مرضه، وكأنه خجل شخصي، لا يود معه الإفصاح عن مصيبته، خوفاً من اكتشاف الآخرين لضعفه. ولكن مثلما قال هو عن السر الذي يفشيه صاحبه وليس غيره، فقد عرف ماركس مرض أبو رمزي، عندما التقى سجينًا آخر أثناء الذهاب إلى دورة المياه. وقف ذلك السجين ودار بينه وماركس حديث لبضع دقائق، عن الكثير مما يجري يومياً في غرفة الحبس، ومنها مرض أبو رمزي. وحين سأله ماركس السجين عن كيفية معرفته بإصابة أبو رمزي بمرض روماتزم القلب المتأزم.

- چا أنت ما تشوف الأدوية..تگول أنه أجنبی..ويگولون عليكم مفتحين باللبن.

- مادا..نعم؟

عندما سارع الرجل بالدخول إلى دورة المياه دون أن يكمل الحديث مع ماركس.

لم يرحب ماركس في البحث عن المرض الحقيقي لأبي رمزي، وراح في شك من حديث السجين، فلم يكن مظهره أو كلامه يشي بمعرفته لحقيقة المرض، ولم يكن توصيفه غير فكرة عابرة، ربما أخترعها ليدعى إمامه بما يدور من وقائع في قاعة الحبس. فأبى رمزي كان يخفي أدويته في كيس أسود، ويحاول أن لا يظهرها للأخرين، فكيف تسنى لهذا السجين العين الإطلاع عليها.الضرب في الغيب عادة قبيحة، ولكن خيارها يبدو نافعاً للبعض، في إثارة الحدث والتشویش على المعلومة.

بعد ساعات من مظاهر الإنهاك والتعب، التي تظهر فجأة على أبي رمزي، تبدأ سحنة وجهه بالتغيير، وتظهر عليه علامات ارتخاء الجسد مع رجفة ظاهرة، عندها يتناول الدواء ثم يكور جسده بقرفصة شديدة، وبعد فترة ليست بالطويلة، يجلس وكأنه خرج من غفوة، ليبدأ حديثه الذي لن يتوقف. لم يكن ليتخلى فيه عن أناشيده وأشعاره، رغم خفوت صوته ومظاهر الوهن الباديء على جسده. كانت تلك الأشعار والأهازيج رصيداً حياً يستعمله كمطارق للتحدي والصراع مع المرض، ومظهراً لقوة الشخصية معنوياً وجسدياً أمام الآخرين. كان يرفض أن يختطف المرض منه لحظة الحياة وبهجتها، فبعد أقل من ساعة من تناوله أقراص الدواء، يعاود صوته الارتفاع وتنشط حنجرته وتنطلق أحاديثه بسلامة غريبة.

في أحدى المرات اجتاحته رغبة الغناء، فراح يغني بصوت

خافت متوج، ولكن رقيق وعدب، ورغم مظهر الفرح المرتسم على وجهه، فقد حملت حنجرته حزناً شفيفاً، فضحته في النهاية دموع جرت بعفوية على خديه فاستدار ووضع وجهه في الوسادة وأجهش بالبكاء.

لم يكن الحزن الذي خيم على قلب ماركس بقليل، فراح ينظر إلى أبي رمزي بعاطفة جياشة، حاول معها إيجاد كلمات ولو بسيطة ليواسيه بها، أو حتى يخف عنده بعض ألم، ولكن ألمه الوجданى وعاطفته المحتاجة منعه من الكلام، ولم تسعفه في إيجاد ما يربط الأجواء في هذا الوضع الموجوس. شعر أنه عاجز كلياً عن الوصول للكلام تسعف الموقف وتجعل أبو رمزي يستعيد رباطة الجأش التي عرف بها، ولكن اللحظة كانت قاسية على كليهما، فعاد ماركس محاولة البحث عن مخرج لموقفه ومد جسده فوق الغطاء الصوفي، وأخذ يرقب نحيب أبو رمزي. فهو يعرف جيداً طبيعة مشاعر الإنسان المريض الضعيف، فشعور الخجل من ضعفه سمة طبيعية، وتراه دائماً في هاتين، إما التشكي واستدرار العطف، أو حالة دفاع دائم ضد افتضاح أمره، يتستر بأشياء يجد فيها ما يستر عجزه وضعفه، وهذا ما يفعله أبو رمزي بروح المرح والإنشاد التي يجدها متراساً واقاً من انكشاف خوفه وقرب نهايته للآخرين، وكرهاً منه لحالة استدرار العطف، وهو يخشى أيضاً أن ينهار أمام الآخرين، ولذا تراه يلجاً لغم رأسه في وسادته، حين تنتابه الأوجاع، وهو في ذلك يشعر بأنه في حالة امتحان دائم مثلاً هو تهديد دائم مع المرض غير الرحيم. لا يريد أن يفقد توازنه من خلال انكشاف علته وضعفه. تساءل

ماركس عن سبب بقاء أبو رمزي في السجن، وهو يحمل مثل هذه العلة. في جميع دول العالم يطلق سراح مثل هؤلاء المرضى الذين يحملون أمراضًا صعبة ومميتة، فلم يبقون على أبو رمزي سجينًا؟

- أنته.. يول أنته.. شنو اسمك.. أني بعد ساعة راح أطلع من الحبس أخذ فراشي.. خوش؟

انتبه ماركس ليجد أحد السجناء يقف عند قدميه ويخاطبه بلهجة شبه آمرة. تفاجأ ماركس بالوجود القريب للسجنين وكلامه الحازم، فتردد بعض الشيء، ولكنه اغتصب ابتسامة ليعرضها على السجين عرفاناً ب فعلته الطيبة.

- شكرا جزيلا.. ولكن ربما تحتاجه في مكان آخر؟

- يول بيش طالبني.. فوگ ما أساعدك تفاولني بالأذية؟

- لا أقصد إيداءك وإنما قلت ربما تريد أخذك إلى البيت أو هناك سجين آخر يحتاجه.

- لا عيوني.. أنته أخذه مو غيرك.. هاي صارلي سبع تشهر هنا وما أعتقد، لا و ما شفت أكوا واحد بين الجماعة يستاهل الفراش.

- على أي حال شكرًا ومبروك على إطلاق سراحك. متى تخرج؟

- هسه لو بعد ساعة.. حسب مزاج السيد العقيد لطفي، الله يحفظه وينطي الصحة والعافية.

- عجيب.. أنت أول من أسمع منه كلمة إشادة بالعقيد لطفي.
- شوف صاحبي.. إذا حاجتك يم الجلب فسمي حجي چليب.
- ماذا يعني ذلك؟
- بالعرافي عدنه هذا المثل.. من الإنسان يخاف لو يعتقد بأن مشكلته معصصبة وصعبه على الحل، لو واگعه بيد واحد مثل عقيد لطفي، فعلينا أن نتوسل بذلك الواحد ونسمييه بلطف وحنية.. فالجلب ولأنه نگس فنشبه بذلك الشخص بالجلب، ولمن حاجتنا تكون يمه نطلق عليه تسمية حجي چليب، يعني چلب زغironi ومدلل وحباب وخلی يدلل عليه.
- وهل مثل هذا المثل جاء لكم أو تعرفتم عليه بعد الاحتلال؟
- يا احتلال يا بطيخ.. أنته مو عالم آثار؟ مثل ما تگول؟
- نعم.
- عيوني.. هذا المثل من عهد نبوخذ نصر وزوجته الموقرة مدام نبخوذه ما إدرى شنو إسمها..
- أوكي.. مبروك مرة أخرى.
- فتح باب غرفة الحبس وطلب من السجين الذي كان يتحدث مع ماركس المجيء لمقابلة العقيد.
- يالله صاحبي گوم أخذ الفراش مالتني. يا جماعة مودعكم الله، بس موكلكم، چم واحد بيكم، إبروني الذمة.
- لم يجبه أحد من السجناء بل جميعهم أشاحوا وجوههم بعيداً عنه، وبعضهم ددم بكلمات مكتومة. فأعطى السجين ظهره

لهم وخرج.

نهض ماركس لجلب الفراش فسبقه سجين آخر وقفز وأخذ  
الغطاء الصوفي الثقيل ذي الألوان المبهجة، والموشى بورود  
حمراء كبيرة الحجم، وعاف غطائين صوفيين آخرين ووسادة  
بقمash أزرق مائل للسوداد.

- ولكنه أعطاني إيه كاملاً!

هكذا قالها ماركس وصمت ناظراً لهذا السجين وهو يسحب  
الغطاء نحو فراشه.

- إيه... وهسه أنته شنو تريد؟ ما عاجبك الحال لو شنو؟

- ليس كذلك.. ولكن أعتقد أنه منحني جميع أجزاء فراشه.

- خوش تريد البطانية تعال أخذه بس تدري شنو راح يصير  
بيك.

- ماذ؟

- إذا مديت ايدك على البطانية أقره على روحك الفاتحة..  
أخذ الباقي وروح أشرفلك.. أنته بعد چم يوم تطلع، وإحنه باقين  
خايسين هنا.. روح.. يله روح.

لم ير غب ماركس مواجهة هكذا لهجة وتصرف عدائى، فهو  
ليس بحاجة لمثل تلك المواقف العدوانية، وما كان يوماً يطبق  
عراك الشوارع، حتى حين كان صبياً. وهو يجزم أيضاً بقراره  
نفسه، أن خروجه من الحبس سيكون بين ساعة وأخرى، فلا  
حاجة به لخصومات، فليس هناك ما يعيق إطلاق سراحه، غير

عناد العقيد لطفي الذي فرر حبسه على ذمة لا شيء، ودون مبرر عقلاني. لقد كان مختطفاً وليس مشاركاً بجريمة، وإن اتهمه عريف أحمد بالعمالة والجاسوسية لإسرائيل، فقد كان ذلك باطلأ وغير مقنع حتى للعقيد لطفي. وها هي قد مضت العشرة أيام، دون أن يجد فيها تغييراً، ولم يرسل العقيد بطلبه مرة أخرى، ولم يسمع من الحراس أو من عريف أحمد ما يشير لأسباب بقائه معتقلاً، أو متى يطلق سراحه.

رفع ماركس باقي الفراش مع الوسادة ووضعه جوار أبو رمزي قائلاً.

- أبو رمزي سوف أرجع لك الفراش فقد حصلت على فراش كامل.

- أعرف دا أشوف وأسمع من ساعة حجه ويالك أبو شكريه قبل ما يطلع، لحد ما هذا العفطي أخذ منك البطانية الإيرانية... زين سويت ما تكلمت وياه. هذا حرامي بيوت ومجرم وأدب سز.

- أدب سز! ماذا يعني هذا؟

- أحمق وأرعن ومجرم وطايح حظه...

الناس كل منهم يعرفه

چذاب سليمه التكرفه

بالدقيقة الف گلبه

الملعنة والچذب فنه

اذا تحسب انقلابه

من القشمراه صار اكتسابه

قال ذلك أبو رمزي بصوت خافت ضاحك وهو يقرب رأسه من رأس ماركس، ويطلب منه التحدث بصوت خافت كي لا يسمعهم أحد.

- جميع تلك الصفات؟

- نعم فهو من جماعة الميه وعشرين ألف.

- زدت في حيرتي ياسيدي.. ومن هم هؤلاء الجماعة؟

- هذوله السجناء العفطية الذين أطلق صدام حسين سراحهم من السجون قبل سقوط حكمه، وكلهم من المسجونين وفق جرائم قتل ونهب واغتصاب وخطف وتزوير، تصور بيهم مجموعة جبيرة من المساجين على قضايا الزنا بالمحارم، وعندك الحساب.

- أي حساب عندي؟

- هذا مثل بالعربي.. يعني أنت تعرف باقي القصة.

- وكيف يتمنى لي معرفة باقي القصة؟

- إيه مو دنگول مثل عراقي للح عاد.. بلعراق كلشي عدنه أله عله ومعلول.

- ولماذا أطلق سراحهم؟

- صدام أراد الخراب للعراق من بعد حكمه.. وفعلا، فهو لاء هم سادة الموقف في الشارع الآن؟

- غريبة روایاتکم!

- هذا چان نشال ومحتاب ومسجون في سجن أبو غريب، ومحكوم بعشر سنوات سجن وأطلق سراحه قبل دخول الأميركيان، بعدها بده بتشكيل عصابة لسرقة البنوك.. بأول وگت قبضو عليه الأميركيان وحولوا للشرطة العراقية، بقه بالسجن أربع تشهر، وچان متهم بقتل رجل ثم أطلق سراحه بعد تبرأته.. يگولون دفع فلوس هوایه. وسجن سنة لخ، ومثل السابق أطلق سراحه، والآن هو معتقل بتهمة القتل أيضاً، وأوراقه أمام المحاكم منذ ما يقارب الشهرين، دون اتخاذ قرار، ليش متدری، هذا سالفته مثل سالفة طنطل مو بشر.

- ولم لم يتخذ قرار، أو يطلق سراحه بكفالة لحين صدور الحكم؟

- سيدي روح أحچي ويا القاضي، وقبل متروح لهناك، روح اسأل العقيد لطفي وجماعته، فكل شيء متستر وأله حساب.. العجيبة، بعضهم يگول هذا المجرم يسوبي سحر ويسسيطر على القاضي ويلعب بأعصاب العقيد لطفي.

- أي سحر في هذا الزمان؟

- هذا حچي الناس من يخالفون من واحد؟ ويتناشون منه، يگولون القاضي يلطف عرك.

- ولماذا يخاف الناس من هذا إذا كان هناك قانون؟

- عمي يا قانون..ما عندك واسطة..ما عندك فلوس ظل مطمور بالسجن..عمي هذوله من رب العباد ما يخالفون.. وهو ربک هم بس گادر عليه وسالگنا سلگ وعايفهم يلعبون

بالشارع طنب.

إلا هي أقبل بحكمك ونارك

قريب أعله البشر أنته ونارك

عجب المؤمن تحركه بنارك

وعلى أصحاب اللGF برد وسلام

- أرجوك أبو رمزي وضح ما تقول؟ لم أعد أفهم ما تعنيه..  
هل يستغل السحر للتأثير على قرار القاضي أم ماذ؟

- أسمع هذى الكلمات.. يگولون يستخدم السحر ويختلي  
القاضي يتخربط ويرتكب.. ويگولون أنو في أحدى المرات  
أغمى على القاضي قبل لا يقره أوراق الدعوى، ومن يجي  
قاضي لاخ يصير وياد نفس الشي. آني ما أصدق.. هذا عنده  
فلوس هوایة ويکدر يلعب بيهم لعب لا سحر ولا هم يحزنون.

- نعم.. السحر هو سد الثغرات في المعرفة السببية لظواهر  
الطبيعة وما غمض منها. نزوة السيطرة وعنصر القوة  
والبراعة التي تبهر البعض وتحوز إعجابهم وتجعلهم  
يخضعون خضوعاً مربكاً، هذا له علاقة بالخوف والقلق، وهو  
شكل من أشكال الفعل التعويضي عن الضعف والمهانة.

- أستاذ ماركس.. لتوصله لهل درجة، من رحتلك فدوه،  
واندار صدقه لهل جهره، تره أنه ما عندي فرصة لهدني  
السؤال.. أحچيلي بيتن أبوذية أرتاح ويالك وأتونس، مو  
تاخذني بفلسفة وحچي يدوخ ويفر الراس، تبهر.. وخضوعاً  
مربكأ.. وتعويضي.. هاي وين وذيج وين.

- لا فقط وددت أن أوضح لك أمر السحر..
- مخالف حبيبي بس شويه على كيفك ويابه مو هيچي..  
هسه درجوب تنام على مخدہ، تره صارلك أسبوع تنام على  
أيديک.. ريح راسك أخوي العزيز مارکس.
- مثلما تقول، عليّ الآن تجربة الفراش الجديد.. ان شاء الله  
اغاتي، حجينا الورد.
- أمسك أبو رمزي كتف کارل مارکس وراح يهزه ببطء  
ويضحك بفرح طفولي
- هاي شنو سيد مارکس ما صارلك غير چم أسبوع بالعراق  
وتعلمت كلواتنا، وصرت تحچي بان شاء الله أغاتي.. وبعد  
مدة راح تشتغل رحمة الله.. بالتوفيق مولانا.. وصار سيدنا..  
ومقبولة أغاتي حجينه.. والله يحفظكم.. ورحمه الوالديكم  
أعيوني.. لعد هوایه راح تتوقف سيد مارکس ابن سيد هنروش  
ما ادری منو.
- کارل هاینریش مارکس ان شاء الله حجي بالعافية.
- ورده بعرضي أنته أكبر ورده ابن خالتی مارکس.
- ردد مارکس ذات الجملة وضحك ضحكة خافتة لم ير غب  
إسماعها للآخرين. ولكن أبو رمزي لم يستطع كتم ضحكته  
فأطلقها فاضحة في مساء غرفة الحبس، فصرخ أحد السجناء  
مازحاً.
- ضحكة خير أبو رمزي وشره يطفر على اللي بكلبي..

انفرد ماركس ينشد الخلوة مع نفسه، بعيداً عما يحيط به، ولكنه وجدها لا تعاف ما حولها، وتتوغل دون حذر داخل هذا المحيط البائس، بحثاً عن عله وأزماته، فهو يجد درجات مريعة من التساهل تجاه السلوك الشائن للقتلة وشذاذ الأفاق، فبعضهم لا يمانع من إعطاء أمثال هؤلاء دوراً، ووظيفة اجتماعية، لا بل مكانة يحسده عليها البعض.. البنية الاجتماعية الاقتصادية للجماعات المغبونة المقهورة، التي تحكم بها التقاليد والعادات قبل القوانين، لا تستطيع امتلاك رؤية واضحة للحياة وواقعها اليومية، وهي ترضخ لمعايير تقاليد تربت عليها وتشبعت بها، ولا تود كسر هذه المعايير أو التمرد عليها. الخوف يعتمر القلوب ولا يسمح المساس بتقاليد تضمن الوجود، رغم بؤسه وتعاسته، ومن يحاول خرق ذلك سوف يطرد خارج السرب وي تعرض للنبذ، وربما التصفية. البرجوازية ذات الامتيازات والمصالح الاقتصادية، تصنع وسائل عديدة لتعزيز تلك التقاليد والأعراف، وتبني لها طرقاً وأطواق قمع، تقف في وجه أي حراك أو تفكير بالتغيير، وتجبر المجتمع على اتخاذ وسائلها وبرامجها، وليس غيرها، كمعايير لتفسير الأحداث والعلاقات، ومثلها إبقاء التراتبية المجتمعية، ليقع الجميع في هذا الفخ، ليصلوا في النهاية حد الاقتناع بأن قوانين وتوجهات البرجوازية وطفيلياتها، من الموجب ألا تمส، ومن يمسها فهو مجرم ينال أشد العقاب. والطبقات صاحبة الامتيازات، تفرض على الناس التفكير بأن غنى الطبقات البرجوازية وفقر الكادحين، هو قسمة طبيعية للمكانة الاجتماعية السياسية وتوزيع عادل للأرزاق، وعلى الجميع قبولها كأمر مفروغ

منه، فليس هناك مغبون سوى الغبي والعاجز، وهو بالذات من يرغب بكسر القواعد العامة لتراتبية العلاقة، ومن ثم التقاليد التي يعيش عليها المجتمع المطمئن الق نوع بعيد عن التوترات. هذه هي فكرة البرجوازية في حكمها للمجتمعات. وفي هذا، ومن خلاله، يجدون وسيلة الناجعة، لإقناع الناس المغلوبة على أمرها، بما يواسيها ويهدئ خواطراها ويربت على أكتافها ويطمئن نفوسها التائرة المنفعلة، إنه الدين، الوصفة السحرية لكبح جماح المتمردين والمشككين. فالبرجوازية تُظهر وتحافظ على ما يتضمنه الدين من آيات وأحاديث، لا يسمح أو لا مجال للشك فيها، وإن اعترض المرء، فسوف يواجه عقاب المجتمع، المتواافق والمرافق لعقاب السماء، ويسدل الستار على باقي القيم الداعية للعدالة الاجتماعية والحريات العامة وتحرر الذات الإنسانية وحقها في العيش الكريم والعدالة الاجتماعية. المجتمع الخائف المقهر يبقى يتمسك بكل ما هو تقليدي وسطحي، والعودة للتاريخ تبقى عدة يجد فيها المرء المقهر، ذخيرته التي يواجه بها الأحداث وحتى المصائب، فيرضى بما يقسمه له القدر، ولا يريد رمي أي شيء على مضطهديه من الملائكة أصحاب الامتيازات. عند هذه الإشكالية في المجتمعات الفقيرة المقهرة التقليدية لا يظهر التناقض بشكل حاسم، بل بفورات سطحية تتضاعد ثم تخفت.

«AlYaa» نشرت «النحو بين

## الانفجار

فجأة، ومضت كتلة لهب، برق ضوؤها الخاطف داخل الغرفة واخترق الفضاء المحيط بالمركز، صوت دوي انفجار قوي أرتج إثره كل شيء. قفز ماركس من مكانه مرعوباً فأصطدم رأسه بكتلة صلدة. لقد اهتز المكان إثر صوت وحركة تشبه زلزالاً قوياً، تحركت وتحطمـت معه أركان الغرفة برمتها. ارتجت الجدران بقوة إثر انفجار هائل أعقبه دوي ثلاثة انفجارات متالية عتم المكان بعدها بالكامل.. غطـت ماركس غمامـة غبار كثيف لم يعد معها يستطيع رؤية ما حوله، ولم يكن ليدرك ما يحدث بالقرب منه. كان مرتكباً، بل كان في لحظة رعب حقيقـية، فتلمس جسده لعله جرح أو شيء من هذا. لم يستطع بسبب الغبار والظلمـة تميـز ما حوله، حتى أبو رمزي ورغم قربـه، كانت الظلمـة والغبار يغطيـانـه. جـال بأصابـعـه المـكان ولكـنه خـافـ أن يـقـرـبـ جـسـدـ أبو رـمـزيـ. تـأـوهـاتـ وهـذـرـ وصـراـخـ وضـجـيجـ صـادـرةـ منـ قـرـيبـ وـبعـيدـ وـنـداءـاتـ تـطلـبـ النـجـدةـ.

- أبا رمزي.. ما الذي حدث؟

- شـمـدـريـنيـ.. خـربـتـ وإنـلاـصـتـ، وـاـكـلـنـهـ خـرـهـ حـاشـاكـ، هـذـاـ تـفـجـيرـ.. يـمـكـنـ تـفـجـيرـ لـبـنـيـةـ المـرـكـزـ.. إـنـتـهـ بـيـكـ شـيـ مـجـروحـ لـوـ سـالـمـ؟

- كـلاـ فـقـطـ لـاـ أـرـىـ مـنـ حـولـيـ بـسـبـبـ الغـبـارـ وـالـظـلـامـ. ظـنـنـتـ أـنـكـ..

- لا.. كلشي مابيه.. زين.. خلينا ننتظر ونشوف شنو النتيجة.  
راح تروح الغبره.
- أسمع صوت تأوهات وطلب نجدة.
- أني بشكلاك.. حتما هناك مجاريف.
- أعتقد أن الجدار قد انهار علينا.
- لو هيچي چان كتلنه!
- تلمس ما فوق رأسك؟
- لك هاي صحيح هذا قالب بلوك نازل علينا.. لك ربک ستر.. چان رحنه بوله بسط..
- وماذا تعني بوله بسط؟
- يمعود إنته صدك بطران.. هسه محلها.. إحنه بيا حال دعوته خل انشوف دربنه.
- شيئاً فشيئاً انقضى الغبار لاظهر بعض المعالم خارج الغرفة، وانفرج المنظر عن فسحة فضاء تمتد خارج المكان نحو شارع اسفلت قريب، وثمة أناس يهربون ويصرخون ويلوحون بالأيدي. كان جزء من سقف الغرفة قد سقط بالكامل ليغطي أرضيتها بما فيها من سجناء، الذين يسمع تأوه وصراخ بعضهم، وكانت قطعة كبيرة مائلة من الجدار ارتكز عليها السقف، وهي التي حمت أبو رمزي وكارل ماركس من أن يهدم السقف عند سقوطه.
- ربک حليم كريم، لو چان هذي الشگفه من السگف واكعه

عليه، چان هسه إحنہ ملتوشين بالکاع مثل الزولية.

- ما الذي نفعله الآن؟

مد أبو رمزي يده وأمسك يد كارل ماركس وسحبه بقوة، ليذهبا عبر الجدار المنellar إلى خارج بناء المركز، وراح ينفض عن الغبار العالق بملابسها ومثله فعل ماركس.

- لنعود ونساعد الباقيين.

- أي باقين..؟ إمشي بابا إمشي.. هاي فرصة إجتي من السما.. ربک الأنقدنھ من الموت هو اللي خلصنھ من السجن وأطلق سراحتنا. إمشي.. إنته مو تريد ترجع الأھلک.. يله إمشي.

كانت بناء المركز تبدو أنقاضا لا يظهر من معالمها غير جدران وسقوف سویت مع الأرض. قرب كومة حجارة وحديد ملتوي، شاهد ماركس عريف أحمد جالساً يتوجع بصوت مسموع، وثيابه ممزقة وجسده مغطى بالدماء، وهناك بقربه جثتان مطروحتان ميزهما ماركس، واحدة للعقيد لطفي، الذي بترت أطرافه السفلی، والأخرى مهشمة الرأس تعرف عليها من الملابس، كانت للسجين الذي أهداه الفراش. إلتفت ماركس نحو أبو رمزي الذي بدأ يبتعد متوجهًا نحو الطريق الفرعی القريب. ارتبك في اتخاذ القرار وحار بين البقاء أو اللھاق بأبي رمزي. عند تلك اللحظة التي لم تأخذ منه الوقت الكثير، قرر اللھاق بأبي رمزي، فلعل ما حدث فرصة يتجدد فيها الأمل في العودة إلى أهله.

مسرعاً الخطى دون أن يلتفت نحو الخلف كان أبو رمزي يغذ السير، وعند نهاية الشارع توقف وأمسك بكاف كارل ماركس ونظر في عينيه الصفراوين وابتسم ابتسامة رضية وقال.

- هذا عمود الفجر طر وانتشر  
وزال الظلم أو بين المحتجب  
انتبه وانظر الحالك ابياهو صفه  
إصبح وبروحك كل وكت مدفه  
مودعك أخ عزيز ماركس رفيق السجن الذي لن أنساه.  
- ماذا تقصد بذلك صديقي ابو رمزي؟

- عزيزي ماركس.. لقد زال عنا ظلام السجن وأصبحنا أحراراً، وإنته هسه عليك تنتبه الحالك، وخلبي سرك بروحك، لا تعرضه على غيرك، ولو أني أدرني انته صابتك العدوى من العراقيين، على قول المثل إلى يكُول من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم، أنا أدرني مراح تگدر اتخلي سرّك مدفون.

- أبو رمزي ليس لدى سراً أدفنه أو أخفيه، فانا ماركس الماني الجنسية، وجئت إلى العراق كعالم آثار ومنقب عنها، وبحيل الله أغاثي عيوني أرجع إلى أهلي.  
ـ والله أنته أكبر ورده. صاير تلگفها وهيه طايره.

- ما هذه التي ألقفها حين تطير؟  
- هسه مو وكتها، ولو اني متأكد، إنته تلگفها وهيه حاطه

لو غايصه مو بس طايره.. ما عليه.. شوف عيوني ماركس ابن هنروش.. هسه إحنه راح نتواتع هنا.. أنه أركب أروح الهلي خارج بغداد، وإنته تلزم هذا الشارع وتطلع بيه گبل، لا يمنه ولا يسره، راح تلگي نفسك بنص بغداد، وبالضبط بمنطقة يسموها الباب الشرجي.. مال تگلي إنته عالم أثار و مدری شنو، تره شويه صعبه أصدگ بيک.. خليها إبعبك أحسن.. تره أنه أخوك مكسر گحوف الدنيه على راسي.. وأقره الممحى..  
أوكي حبيبي....

الله درك حتى چذبك غير....

الحيا يجبر مشاعرنا تصون وما تخون...  
والسمه لا ما تضيگ إن كان يغشاها الغمام...  
والصدر يبقى رحب لو يمتلي ضيق وشجون..  
مودعك الله مرة لخ، وان شاء الله تتوقف بمسعاك وأهم شي  
توصل الھلك سالم.

- أشكر لك ما فعلته لي أبا رمي، متنميا لك الموفقية. فقط اسأل ماذا أفعل في المنطقة التي اسميتها باب الشرقي، فربما سوف يتعرف علي جهاز الأمن أو لا أجد مأوى... هل هناك فندق التجأ إليه؟

- عزيزي ماركس الطيب..أني لو اگدر أخذك ويایه چان سويتها، بس شويه هناك تعقيدات، وأنا مراح أبقة بالعراق أصلا، أخيه، حاول أن لا تگرب من الشرطة.. وأبشرك همه ليهسه هم ما عدهم بجيوبهم صورتك.. واضبارتك إحتركت

بالمركز.. وإذا تروح لفندق راح يطلبون منك هوية، وأنته ما شاء الله صلوخ بطرگ الحوايج، ولا ورقه تثبت شخصيتك.. ولو بالعراق كلشي تايه ما ينعرف حماها من رجلها.. شوف حبيبي هناك گدامك أكو سوگ جبير من تعبر الشارع الرئيسي، بنص السوگ أكو گھوتين لو ثلاثة، من يصير الليل راح إتعزل هاي الگهاوي، وتگدر إنته تنام على القنفات مالاتها.. وهاي المنطقة بالليل حتى الشرطة ما تتقرب منها.. أبقة چم يوم لمن شعر راسك ولحيتك وشواربك يطولن... وهذاك الوكت وين ما تسرح محد يسأل عنك.. خوش لو مو خوش.. تره إحنه بالعراق نعمه من الله كلشي ضايع وصايره سفرتح، والكل مضيع صول جعابه.

- أبو رمزي ماذا تعني بسفرتح وكذلك مضيع صول جعابه؟
- بطل هذني السوالف هسه مو محلها أخويه ماركس..  
بعدين يجي وگت وتعرفه.. جوز عاد من سوالفك.. خوش لو مو خوش.
- نعم.. خوش ورحمة الله.

ضحك ماركس وهو يردد كلمة خوش بلکنة إرتاح لها أبو رمزي الذي دس يده وأخرج ورقتين حمراوين من جيب سرواله.

- دون مجاملات عزيزي ماركس أرجو أن تقبل مني هذا المبلغ البسيط، بلکي ينفعك بهذولهاليومين الجايين.. آني عندي من خيرات الله جثير.. إعتبر هذي هدية من صديق رغم أننا لم

نتعارف غير أيام قليلة.. وآني أعتبره ثواب ودفع بله، وهذا الشيء إنته مترفة، وفدوه أروحلك لتسأل عنه، تره وربك المعبد إذا تسأله هسه أرجع وأسلم نفسي للشرطة، وأدهرك ويابي.

مد ماركس يده وأخذ النقود، وصافح أبو رمزي، فبادره أبو رمزي وأحتضنه بحرارة، وراح يربت على كتف ماركس، الذي بادله ذات الحركة فضحك أبو رمزي، عندها تذكر ماركس ذات موقف الوداع مع الرفيق جبار، حين قام بنفس الحركة وودعه بعد أن أطلق سراحه من قبل عصابة أبو بشير.

- مودع ومحروس بالله.

- هاي إنته تعلمت عراقي مضبوط.. والله يا صاحب السجن آني أخاف عليك من هذني السوالف الفاينات.. تره بدايتها زينه بس نهايتها كلش مخربطة.. مثل الفلافل أولها منافع وتاليها الله يستر..

- كانت فرصة جميلة أن أتعرف عليك.. رغم تعasse الموقف والظرف.. فقط أود أنأشكرك من كل قلبي، وسوف أتذكر لك جميع مواقفك.. إن شاء الله أغاثي عيوني.

كرر أبو رمزي كلمة إن شاء الله مع ماركس، وأطلق بعدها ضحكة قوية، ومد يده مصافحاً، ثم استدار وسار نحو رأس الزقاق القريب واختفى عند نهايته، دون أن يلتفت وراءه. كان ماركس يقف متسمراً يراقب أبو رمزي، وهو يغدو السير مسرع الخطو، ذاهباً إلى حيث يمكنه السفر خارج العاصمة بغداد.

ولن يكون لهما بعد هذه اللحظات لقاء آخر.

بات ماركس عند مفترق طرق، فقد عافه أبو رمزي وحيداً تائهاً في مدينة العجائب بغداد، التي سمع عنها الكثير، وأخر أنباءها ما حدث معهم في مركز الشرطة.

يا ترى إلى أين عليه الذهاب الآن؟ وأي مكان سيلجا إليه؟ وكيف يتمنى له العيش؟ والأهم من كل ذلك، ما الذي يفعله الخروج من لعبة القدر المؤذية هذه، وبعدها الوصول إلى لندن. كان في حالة ذهول لا يستطيع معها إيقاف تلك التشابكات التي بدأت تلح في رأسه، وتطن مثل جوق حشرات استهوته قطعة حلوى. أين وكيف، كانتا كافيتين لإشغال كامل تجويف رأسه بوجعهما، سار ماركس متوجهًا نحو المكان الذي أشار له أبو رمزي. وقف عند حافة الرصيف يراقب المارة وحركة السيارات، التي كانت تخترق الشارع العريض من كلا جانبيه بسرعة جنونية. ثمة نفق يقطع الشارع طولاً يفضي إلى جوار فسحة لحديقة كبيرة، يجاورها أيضاً على الجهة الأخرى شارع لمسير السيارات. سار جوار الرصيف ليقترب من مقدمة الساحة التي تنتهي عندها مساحة الحديقة. اقترب من زاوية قريبة تسمح له برؤية الواجهة الأمامية للحديقة. شاهد لوحًا أسمنتياً ضخماً، كأنه راية تمتد على طول واجهة الحديقة، وضع فوق اللوح نصب عديدة. راح ماركس يتمعن فيهاحاولاً معرفة طبيعة تلك التماثيل ودالتها. لا توجد رؤية فردية ذاتية في هذا العمل الجميل، فهو يرى فيه عملاً فنياً متأثراً بمختلف الظروف الاجتماعية والسياسية للعراق، الزراعة

والثور والأم والجندى محطم الأسوار، جميعها تؤشر لمحاكاة تجربة حياتية غنية بمعرفة معاالم البلد، ومسيرة وحراك البشر فيه. تحت النصب كانت هناك سيارة عسكرية، جوارها وقف عسكريان يتسمران ويطلقان ضحكات مسموعة، وعند قمرتها العليا تظهر فوهه سلاح رشاش كبير، يجلس خلفه جندى يداعب أرقام هاتفه النقال. حادر ماركس أن يتخذ مسار عبوره من خلال هذا الطريق، خوفاً من إثارة شكوك هؤلاء العسكريين إن خطر أمامهم بهذه الهيئة، فربما كانت لديهم معلومة عن الذي حدث وعنده بالذات، لذا استدار وعاد مرة أخرى حيث فتحة الزقاق التي جاء منها. وقف عند جهة الشارع القرية من بداية النفق يراقب حركة السيارات. هم بخطف لحظة يتوقف فيها سير العجلات ليقفز نحو الضفة الأخرى من الشارع، حيث بدا أمامه سوق مكتظ بالناس، وعربات خشبية كثيرة تسسيطر بالكامل على مساحة رصيف المشاة. لم يتعرف على نوع البضائع التي يبيعها هؤلاء. بعد جهد جهيد قفز بنشاط وحيوية ليعبر الشارع بكل ما استطاع من سرعة. اقترب من عربة كان صاحبها يطهو طعاماً، يضع خليطاً من قطع لحم صغيرة مع بيض في مقلاة كبيرة إسودت جراء السخام، فما عاد يظهر اللون الطبيعي لدهن القلي. فكر ماركس أن يطلب رغيفاً وبعض قطع من هذا الطعام، ليلجم جوعه، ولكنه شعر بالتقزز والنفرة من طريقة البائع في طهيه، فابتعد ليدخل السوق.

«AlYaa» نشرت «النحو بين

# البحث عن المأوى

أزقة السوق كانت ضيقة وخربة، وازدحام البشر فيها على أشدّه. فالناس محشورة في مسافات ضيقة، جراء فوضى الباعة وسوء أرضية الأزقة المليئة بالحفر. ليس هناك من قدرة على التنقل بسهولة لشدة الزحام وعشوائية انتشار العربات، وربكة عروض بضاعة الدكاكين. فوضى كاملة. بعضهم يعلق في واجهة المحل ملابس عسكرية وجوارها أحذية، وهناك محلات للكي وخياطة الملابس، وأخرى لبيع العدد والتجهيزات العسكرية، وعربات تعرض أنواعاً مختلفة للبضائع، الطعام يجاور الملابس، وعربة للعدد اليدوية، وجوارها عربة لبيع النظارات الشمسية وهناك أخرى للصور الملونة وبنفس الوقت لبيع الأحذية. المكان بمجمله فوضى عارمة وانتشار عشوائي للبضائع والناس، وجو السوق ليس صحيحاً على الإطلاق، لا بل مظاهره تبعث على الريبة والتاسي ويتسنم بالقدارة، ويفصح عن ظروف عمل سيئة وبائسة. دون شك فإن جميع العربات التي تتبع بضائعها، من الجائز أنها تحوي ما هو ممنوع أو محرم، وهو لاء يبدو عليهم وبالجمل عدم شعور بالمسؤولية للمكان، وللناس ولا حتى لبضاعتهم. يتقاسمون بعرباتهم مساحات الأزقة ومنعطفاتها. السوق يشي بوجود أعمال رائجة، ليس لها علاقة بقطاع حكومي، ويبدو أن السلطات تركت الأمور لهؤلاء لتسخير حياتهم وأعمالهم دون رقابة، أو حتى بذل

جهد لتنظيم أعمالهم، ومع هذه العشوائية والفوضى، فالجميع بدون ريب يعمل دون إجازة عمل، وبلا أي نوع من أنواع الضمانات.

كان ماركس ينظر حوله بشيء من الترقب والشغف والدهشة. لم يكن ليستغرب من وضع هذا السوق، فقد سبق وأن شاهد مثله في الكثير من المدن العربية التي مر بها، ولكن هذا السوق يمتاز عن الباقيات بكتافة الناس وتنوع بضائعه، وحظوظاً ظاهرة فيه لبيع الملابس والعدد العسكرية.

تذكر ماركس ما أرشه عليه أبو رمزي، لذا راح يتوجّل في أزقة السوق، بحثاً عن مقهى، تكون بعيدة بعض الشيء عن الشارع العام. في زقاق منفرد بفتحة ضيقة يخرج منها المارة إلى زقاق آخر عريض، يلتصل بدوره بممر يفضي لسوق كبيرة بعدة أقسام، كانت هناك مقهى لا تأخذ مساحة كبيرة من المكان، تجاورها عربة لبيع الطعام. تقدم ماركس وجلس فوق التخت المجاور للعربة. نظر نحو صاحب العربة الذي كان يهياً قطعة رغيف وضع فيها الأكل، ثم لفها بقطعة صغيرة من ورقة صحيفه، وقدمها للزبون الذي تلقفها بدوره ودفع له ورقة نقود، وذهب ليجلس داخل المقهى. التفت صاحب العربة نحو ماركس قائلاً.

- ها عمي جوان؟

- نعم.

- تريد لفة..لو بالماعون؟

- مثلما تريد أنت.

- أخلياك عروگ وبيتجان لو بس عروگ؟

- حسبما تقرر أنت.

أخذ صاحب المطعم يجهز الطعام وبين لحظة وأخرى يخطف النظر نحو ماركس، الذي تعلقت عيناه بحركة يد صاحب المطعم.

- أخلياك خضرة؟

- مثلما تريد.

- أخلياك طرشي؟

- مثلما تريد.

بشيء من الحذق قطع الرجل ورقة جديدة من الصحيفة، وغلف بها رغيف الطعام وقدمها لماركس، الذي تلقفها بشديد لهفة ورفعها قرب فمه، ولكنه تذكر أن عليه دفع الحساب لصاحب المطعم، فاخراج الورقتين الحمراوين من جيب سترته، وقدمهما لصاحب العربة. أطال صاحب العربة النظر في وجه ماركس، عاينه من قمة رأسه حتى أسفل قدميه. رأس خفيف الشعر مغرب، ولحية لم تطلق منذ فترة طويلة، سترة بنية اللون متربة، مزرق كتفها الأيمن من أعلى، وثوب هفهاف متسرخ كالح اللون وحذاء أصفر مغطى بالولح.

- هاي شنو عمی !! هاي خمسين ألف دينار.. هاي هوایة تگدر تاکل بیها خمس تیام لیل نهار..

- ما أعرف

- إبني أيبين إنته فقير ما جاي گبل لهنا؟

- نعم سيدى فأنا لم أدخل هذا السوق سابقاً.

- هاي شنو.. أشو تحچي مو بشكlnا بالعامية؟

- لم أتعلم اللغة الدارجة..

- خوش وليدي صار معلوم.. صار.. أبو داود جيب چاي  
لآخر على حسابي.

نادى صاحب مطعم العربية على رجل كان يقف داخل المقهى يراقب الشارع. جاء الرجل ومعه قدح شاي قدمه إلى ماركس وجلس جواره.

- عمي إنته منين؟

كان ماركس قد بدأ يلوك طعامه لذا لم ير غب الإجابة على سؤال الرجل. وأيضا فكر بأن حديثه سوف يوقعه في ورطة جديدة، فعليه أن يحذر، فربما لن يجد ما يشفع لإخفاء شخصيته. ظل صامتاً يلوك قطعة الطعام بسرعة ويتافت حوله. لا يريد أن يستدرج إلى ما يجعله مكتشف الظهر للآخرين، فالصمت يغنى كثيراً عن الكلام. ولكنه تيقن أيضاً، من أن ليس من المناسب بعد الذي حدث أن يخفي شخصيته ويستر عليها، فالمحظى عليه أن يجد حلّاً لمازقه، وهذا هو الأساس ومن الموجب العمل من أجله.

- عيوني أبو داود مو وكتها، خلي الرجال يأكل لگمته

ويتها بيه.. وبعدين نگر نوگع على طينته.

قال صاحب عربة المطعم ذلك وغمز بعينه لصاحب المقهي  
أبو داود.

- لا عمي أبو عفيفه تره آني متقصد أسله، لأن آني تهمني  
مصلحة اليكعدون بگهوتي. وإنته تعرف شنو مطلوب من  
عنه.. تره ما بينه حيل للمشاكل.

- مخالف.. بعدين عيوني إنته.. دروح جبيله گلاص مای  
ليروح يغص باللگمه..

ذهب أبو داود وجاء بقدح ماء سلمه لماركس، الذي احتساه  
بسرعة دون توقف.

- ألف عافية عيوني بصدرك، يبيين معطوش حيل.

- نعم منذ الصباح ولحد الآن لم أذق طعاماً أو شراباً.

- هاي عجيبة؟ ليش عمي إنته مو عندك خمسين ألف دينار  
هسه أطيتنياهه.. لعد شنو چنت أسوبي بيه؟

- لقد أعطاني إياها أبو رمزي ولم أعرف قيمتها الشرائية.

- عمي إنته شسمك؟

- كارل ماركس؟

- شنو.. شنو؟ مره لخ أعد شنو اسمك؟ صاح أبو عفيفه  
متعجاً.

- كارل هنريش ماركس.

- دخيلك ربى.. لك أحترك أبو هذا الحظ المخربط.. الرجال  
عالگه وشابه عنده كلش.. مشتعله اموره وملتهبة ورایح فول.  
قال أبو عفيفه وهو يطالع صاحب المقهى أبو داود، الذي  
فغر فاه تعجبًاً مما يسمعه.

- داد من أندار صدقه أهل الخلة التعبانه.. يعني أسمك على  
كارل ماركس الألماني؟  
- أنا هو.

- يعني إنته كارل ماركس نفسه؟!  
- نعم أنا هو بالذات.

- معود إنته متأكد گول غيره.. عمي خاف مشتبه لو جايك  
طيف بالليل ومخربط الغزل عندك.  
- عن ماذا تتحدث؟

- أبو داود إنته تعرف كارل ماركس منو؟  
- عيوني أبو عفيفه متگلي أني شمعرفني.. گبل من چنت  
زغيرون أروح أشوف أفلام، وجنت أحفظ هوایة من أسماء  
الممثلين.. جوني ولسملر، روک هدسون، کلاک گیبل، آلان  
لاد.. روبرت متشوم.. بس هیچ اسم ما سامع بي ولا خاطر  
عليه.

- هذا مو أسم ممثل.. هذا اسم أبو الشيوعية.. مؤسس  
الشيوعية هو وصديقة انكلز.

- وهذوله شنو.. وهاي إنته شمعرفك بهذا الشي؟

- أبو داود إنته تدري بوكت عبد الكريم قاسم چنت أني معلم، وچان لذاك الرجال ماركس صيت قوي، وكتبه وصوره بكل مكان، وعد هوایه ناس، والناس تشتري كتبه وهوایه چانو يحبونه، وهمين هوایه يكرهونه، وهسه همين الله جماعات هوایه بالعراق. هذا هو السوه الشيوعية.

- وهذا عايش من وكت عبد الكريم و شنو شجابه هسه هنا لديرتنه؟

- لا عمی کارل مارکس مات قبل لا تنولد إنته لو أني وحتى قبل ما ينولد جدي حمادي..

- أها.. لعد هيچي الحچي، هذا مو هو.. واسمه على أسم ذاك الرجال الميت... اي شکو بيها، مو هوایة عراقيين سمو أسامي ولدهم على أسم عبد الكريم قاسم وعبد السلام، وگله إنتشر اسم فيصل وغازي.. ناس تحب وتسمي. بالمناسبة أبو شهباء راح لدائرة النفوس حتى يغير أسم إبنه من عدي إلى عدائي.. شفت الوگت شلون يفتر ويلعب لعبته.

- هاي الناس شبيها بس تتلوگ وبعدين من يفتر الوگت تتندم.

- هيه لو محبة صدك لو لوگ لو غيه.

- عيوني أبو داود لكل زمان دولة، ولكل دولة رجال. مثل ما تگول الناس تسمى ولدها ما تدري حب صدگ لو لواگه، الله أعلم.. حسبالك قحط الأسماء، بعدين من يتغير الوگت گلهم يکوم يطگطاك من الخوف..

- تعتقد صاحبته عنده شيء؟

- ميه بالميـه سـالفـته لـاـگـفـه طـيـن أو واـيـرـات الـاتـصـالـات  
معطـوبـة كـلـش، الله يـرـحـمـ الناس بـرـحـمـته الـوـاسـعـه.

كان ماركس خلال ذلك الحديث يلوـك الطـعام وعيـنه تـراـقـبـان  
الـرـجـلـيـن ويـسـتـمـع لـحـدـيـثـهـما باـنـتـبـاهـ، لـعـلـهـ يـجـدـ ماـيـسـاعـدـهـ لـلـخـرـوجـ  
منـالمـأـزـقـ الذـيـ سـوـفـ يـوـاجـهـهـ، جـرـاءـ ماـسـوـفـ يـنـهـاـلـ عـلـيـهـ منـ  
أـسـئـلـةـ. تلكـ اللـحـظـةـ دـنـاـ رـجـلـ آـخـرـ كانـ يـنـصـتـ لـلـحـدـيـثـ منـ دـاخـلـ  
الـمـقـهـىـ، وـمـنـ خـلـفـ التـختـ الذـيـ كـانـ يـجـلـسـ عـلـيـهـ مـارـكـسـ..ـ  
إـسـتـدـارـ وـجـلـسـ عـنـ طـارـفـ التـختـ قـرـبـ أـبـوـ دـاوـودـ صـاحـبـ  
الـمـقـهـىـ. وـدـونـ مـقـدـمـاتـ قـالـ.

- خـالـيـ أبوـ عـفـيفـةـ آـنـيـ أـدـفـعـ حـسـابـ الرـجـالـ هـذـاـ.

- عـيـونـيـ أبوـ رـجـبـ مشـكـورـ..ـ بـسـ الرـجـالـ عـنـدـهـ فـلـوـسـ.

- حتـىـ لوـ عـنـدـهـ..ـ آـنـيـ أـدـفـعـ عـنـهـ.

- منـوـ يـكـوـلـ يـقـبـلـ؟

- لاـ يـقـبـلـ..ـ موـ حـبـيـبيـ أـسـتـاذـ قـادـرـ تـقـبـلـ مـنـيـ أـدـفـعـ عـنـكـ  
الـحـسـابـ؟

نظرـ مـارـكـسـ نـحـوـ الرـجـلـ وـأـبـتـسـمـ لـهـ اـبـتسـامـةـ رـضـاـ،ـ وـقـالـ  
وـهـوـ يـفـرـكـ رـاحـتـيـ يـدـيـهـ بـعـدـ أـنـ أـنـهـيـ التـهـامـ الطـعـامـ.

- عـنـ مـاـذـاـ تـتـكـلـمـ سـيـديـ؟

- أـسـتـاذـ قـادـرـ..ـ الـحـمـدـ اللهـ آـنـيـ لـكـيـتـكـ عـاـيـشـ وـسـالـمـ..ـ إـنـ شـاءـ  
الـلـهـ مـرـتـاحـ أـسـتـاذـ.

- شكرًا جزيلاً، ولكنني لست الذي تنشده، فأنا لست أستاذًا، وأسمي ليس قادرًا.. أنا اسمي كارل هنريش ماركس من ألمانيا.

- أدرى.. أدرى الله يكون بعونك... يا جماعة أنه أعرف الرجال حق المعرفة.

- مشتبه بيـه لو تعرـفـه؟

بادر أبو داود ومثله أبو عفيفة بسؤال أبو رجب، عن حقيقة معرفته بشخص كارل ماركس أو مثلما سماه أستاذ عبد القادر.

- حبيبي أبو عفيفة ولا يهون أبو داود، هذا أستاذ عبد القادر مله عطا آل مغامس، كان أحد أهم أساتذة كلية العلوم السياسية في جامعة الكوفة، والمسؤول عن التقييم الجامعي والبحوث.. فـ ذـ يـوـمـ بـعـهـ صـدـامـ اـجـوـيـ الـأـمـنـ لـلـجـامـعـةـ وـأـخـذـوـهـ، وـاخـتـفـىـ مـنـ ذـاكـ الـوـكـتـ، وـبـعـدـ مـاـنـشـافـ، وـمـحـدـ عـرـفـ السـبـبـ الصـدـكـ.. يـكـوـلـونـ طـالـبـ بـعـثـيـ چـانـ يـغـشـ بـالـمـتـحـانـ، وـأـسـتـاذـ قـادـرـ لـزـمـهـ وـرـسـبـهـ.. وـهـذـاـ الطـالـبـ شـدـ عـداـوـهـ، وـكـتـبـ تـقـرـيرـ مـوـزـيـنـ عـلـىـ أـسـتـاذـ قـادـرـ، وـگـالـ عـلـيـهـ شـيـوعـيـ.. وـأـجـوـيـ بـعـدـيـنـ الـأـمـنـ وـأـعـتـقـلـوـهـ خـطـيـهـ.. وـهـسـهـ هوـ گـادـمـكـمـ.

- أـگـولـ.. مـنـ هـذـاـ مـسـمـيـ نـفـسـهـ كـارـلـ مـارـكـسـ.. بـسـ أـبـوـ رـجـبـ إـنـتـهـ مـنـينـ تـعـرـفـهـ؟

- آـنـيـ چـنـتـ أـشـتـغلـ بـمـديـرـيـةـ بـرـيدـ النـجـفـ، وـكـلـ أـسـبـوـعـ أـمـرـ لـأـقـسـامـ جـامـعـةـ الـكـوـفـةـ أـسـلـمـهـمـ الـبـرـيدـ وـبعـضـ الـكـتـبـ، وـجـنـتـ أـشـوـفـهـ لـأـسـتـاذـ قـادـرـ وـادـخـلـ عـلـيـهـ لـغـرـفـتـهـ.. آـدـمـيـ أـبـنـ أـوـادـمـ.. وـآنـيـ

أميذه من بين ألف واحد، رغم شكله شويه متبدل، ضعفان...مو  
كلش أبيض، شعره مو أسود كلش، ومشيب، وعيونه صفر،  
وچان يوميه يلبس قاط جديد ورباط وقميص منشه..هبيه  
ويتوصف وصف.. ابن حلال، مع كل الأسف.. نعله على  
روحه للكافر بن الكافر شسوه بالناس.. هذا العالم الفاهم خلاه  
يصير بهذي الحال.. والله هذا يسوه ألف واحد مثل صدام وربع  
صدام.

- لا يا كفار ولد الكفار.. اي ليش من عمت عينه للوگت..  
هذي الناس العلامه الفهامة يصير بيه هيجي شي.. وگراييهم  
جابوهم من وره الهوش، وسوهم ضباط وأساتذة أو وزراء  
وصارو يتحكمون بروس الناس.

- أغاتي أبو عفيفه هذا قدر العراقيين، راح ذاك المجلوب  
وهسه إنته تشفوف، إحنه همین وگعنـه بـياـ حال، هـمـ هـنـاكـ منـ  
يشـبـهـ صـدـامـ وـمـجـالـيـهـ وـدـيـلـعـبـونـ بـالـوـضـعـ لـعـبـ.

- اي والله قدر العراقيين كل فترة ينلعب بيهم طنب.. تدرؤن  
أني شنو أفكـرـ.

- شـنـوـ تـفـكـرـ أـبـوـ عـفـيفـهـ؟

- أـگـولـ لوـ يـجـيـناـ فـدـ طـنـطـلـ.. طـنـطـلـ خـشـنـ مـصـنـعـ وـمـضـبـطـ  
وـيـشـدـ حـيلـهـ، وـيـلـعـبـ خـلـقـهـ بـكـلـ هـذـولـهـ لـعـبـ، وـيـگـطـعـهـمـ منـ  
عـرـجـهـمـ، وـيـصـفـيـلـهـ الجـوـ، وـيـوـگـفـ بـوـجـهـ كـلـ ظـالـمـ وـحـرـاميـ،  
وـيـوـفـرـلـهـ الـأـمـنـ وـالـكـهـرـباءـ، وـبـعـدـهاـ كـلـشـيـ مـاـنـرـيدـ وـنـبـوسـ إـديـنـهـ  
وـجـهـ وـگـفـهـ.

- أبو عفيفة عيوني... تتصور الأميركيان يحبون الطناطل، لو همه أهل الطناطل. بعدين هذا طنطلاك، گلي شگد راح يقاوم ويه العراقيين وطلابهم؟ شهر شهرين، سنه سنتين؟ هذا يريد منه استقلال بعشيقته، وذاك يطالب بانفصال عفج، والشطره طالب بالفدرالية، وذاك يريد بوري نفط يجي البيته، أو واحد يريد كهرباء خمسه وسبعين ساعة باليوم، وهذا يطلب منحة سفر سنوية لجميع المواطنين، أسوة بأعضاء البرلمان، وذاك يصبح حرية حرية دولة مدنية، ويجاوبه اللاخ، الحكم الله والموت للعلمانية، وهذا يريد وذاك يريد، إلى إن أطّ حوصلة وفيوزات الطنطل، وتشوفه بعدين راح يندار على الشعب العراقي، ويلعب بطلاقاته لعب.. إنته من كل عقلك يجي إين أوادم طنطل لو بنطل لو حنطل، ويعدل حال هذي الأمة المسكينة.. أيس، وأخذها مني ماراح ينعدل الحال إذا مو إحنه ننعدل.

- والله حچيك ذهب ابن عمي أبو داود الورد.

قال أبو رجب ذلك وراح يلوّك قطعة صمون صغيره، سحبها من تحت الغطاء الموضوع في عربة الطعام دون استئذان من أبو عفيفة، الذي لم يبد اهتماما للأمر، فقد اعتاد ذلك، ومطعمه مباح لجميع أصحابه. كان ماركس يراقب حركات الرجال الثلاثة، وينصت لحديثهم باهتمام وتمعن، محاولاً أن يلم ويستوعب جميع ما يدور الحديث حوله. كانت تفلت منه بعض الكلمات التي لا يفقه معانيها، ولكنه في العموم بدأ يفهم أغلب ما يتحدثون عنه. حديث الناس في هذا البلد لا

يخلو من التباس في محاولة فهمه، ليس له فقط وإنما يشعر أن ذلك يحدث فيما بينهم أيضاً، هذا ما تلمسه ماركس عند جميع من تعرف عليهم. فالمشتريات في الحوار تتدحرج فجأة وتتفجر نحو عدة مواضع، ثم تذهب بعيداً، ويكون ذهابها سريعاً وجلياً دون ثبات على حال، فمن السهولة أن يصب الحديث في جوانب مختلفة ومتعددة في آن واحد، حينها تبدأ معه سرعة التأويل وإطلاق الأحكام واستباقها، فاللحظة الراهنة لا تلبث أن تتشعب نحو الماضي والمستقبل ويضطرب معها الحديث، ثم يختلط السلوك المنطقي بالغرائبي أو الهازل، ويتحول إلى شيء مختلف أو بعيد عن الراهن. آلام الماضي تضغط على الحاضر فتجعله أشد عسرأً، وترحل نحو المستقبل لتجعله أكثر التباساً وقلقاً. لا أدرى إن كان ذلك جزء من ثقافة وخيال عام لهذا الشعب. الغريب أن ما يتحدث فيه هؤلاء الطيبون، هو من هذا الصنف، وباتوا مقتنين بأنني الأستاذ عبد القادر. فالحجة التي يقدمها لهم هذا الرجل، الواقف أمامي، يتحدث ويحرك يديه في الهواء، وكأنه يقف وراء منصة خطابه، تبدو سليمة بمجملها، منطقية ومقنعة له ولهم، وهم لا يملكون سوى الموافقة على روایته التي يقرنها بالأدلة، وهاهم يراجعون الماضي ويتمسون شيئاً للحاضر ويجيبون عليه قبولاً أو نفياً.

ولكن أنا، أنا المعنى بكل ما جاء في هذه الحكاية، والذي يراد منه أن يماشي رغبة أحدهم، ما علي فعله الآن. أجد من الممكن أن أمسك بهذه الحكاية من تلابيبها، وأن توافق معها بشكل وأخر، لأخرج من المأزق الذي وقعت فيه، وأبعد عني الشبهات. قادر.. عبد القادر أستاذ كلية العلوم السياسية في

جامعة الكوفة أو أي مسمى أو وجود آخر، يستطيع أن يمنعني فرصة أخرى، أقفز معها نحو ضفة جديدة، وتغطي على شخصيتي ووضعي، ومن ثم تبعث عندي أملاً جديداً في العودة إلى لندن. هنا عليَّ أن أضع أو اختار ما يفي ويتوافق وحالة عبد القادر. تدريسي أعتقد، الآن هو خارج السجن مطلق السراح، ولكنه في حالة فقدان ذاكرة أو جنون، ولكن من الممكن أيضاً أن يدخلني هذا التقمص في متاهة ومازق جديد، أضيع فيه لاحقاً وأخسر كل شيء. حتماً سوف أصاب بالذعر عند منعطف حاسم من هذه اللعبة. ربما لا استطيع الاحتمال إلى ما لانهاية، وبالذات إزاء مشاعر الذنب التي سوف أشعر بها لاحقاً، جراء قبولي ومجازفتي بخداع الآخرين، فلم يسبق لي أن مارست خداع أحد. أعتقد إن الأمر قد أختلف في هذا الوقت الراهن، لا بل يتطلب قوة شكيمة وإرادة ومجازفة، فالقيام بمثل هذه الخدعة يكون دفاعاً عن النفس ضد تهديد أ تعرض له وأنا في العراق، ولن يكون عيباً ذاتياً أبداً، إن فعلت مثل هذه الخدعة، فهي جزء من مرحلة أجبرت فيها على تقمص شخصية قادر، وسوف يعد سلوكاً مشروعأً. ولتكن قدرتي تتوافق مع هذه اللعبة، ولا بدأ بمحاراة هؤلاء بشيء من الحذر وبكلمات مختصرة هلامية.

- أستاذ قادر عود صدگ إنته وين جنت؟

قال ذلك أبو رجب بينما كان ينفض عن كتف ماركس شيئاً من التراب العالق.

- بالسجن.

- شفتو يا جماعه يتذكر خطيه. اتعذبت هوایة استاذ قادر مو..؟
- كثيراً سيدى العزيز.. كانت أياماً صعبة.
- شلون ويمنه خلصت السجن، شلون طلعت؟
- لا أعرف..
- زين صدگ أبو رجب إنته ما تندر بيت استاذ عبد القادر؟
- لا والله لأن يكولون هو مو من أهل النجف.. خطيه.
- أبو داود... ليش هيye السالفة مال استاذ قادر هم يرادلها تفسير؟!.
- هم صحيح والله ما ينرادلها.
- من دخلو الأمريكية ما بقه واحد بالشماعية لو بالسجن... عمي استاذ قادر إنته چنت بالسجن لو بالشماعية؟
- لا أتذكر شيئاً من هذا القبيل. ربما هناك أو هناك.
- يابه خلوه للرجال.. اي هسه شيفيد لو عرفتو چان وين.. چان عند الحكومة الظالمه وطلع.. يجوز كل ذاك الوكت خلصها مشي وتأيه بالدروب.. عمي عندك أهل، عندك بيت؟
- كلا.. أو الأخرى لا أدرى.
- زين وين خلصت كل ذاك الوكت؟
- بالسجن.
- من عهد صدام لهذا الوكت إنته بالسجن؟

- لا أعرف.. ألا أستطيع الحصول على وجبة طعام أخرى؟
- تدلل أستاذ قادر العزيز چنک على قوزي..
- رحم الله والديكم.. إن شاء الله أغاثي.

قالها ماركس، وأشاح وجهه بعيداً، خافياً ابتسامة ارتسمت على وجهه، فهو الآن يستخدم ما تعلمه من اللغة العراقية الدارجة، لتمرير خدعة يشعر أنها بدأت تتسع، وباتت تكبر مع كومة الأسئلة التي راحت تنهال عليه، ولا يعتقد أنها سوف تختزل عند حدود هذه المجموعة، بل عليه أن يكون في قادم الأيام على كامل الاستعداد لمواجهة أسئلة متعددة، وربما صادمة تريده منه الإفصاح عن شخصيته، ولن تتركه دون أن تقتنع بما ينفعها، لذا عليه أن يختصر إجاباته قدر المستطاع، ويجعلها تضع السائل في حيرة أو افتئان، وهذا هو المهم في هذه اللعبة الكريهة، لحين الوصول إلى نقطة يمكنه معها الحصول على حل لجميع مشاكله، وفي مقدمتها الخروج من العراق.

- زين إنته وين چنت تنم وشلون تعيش؟
- بالشارع ورحمة الله واسعة.
- لعد شنو تگول اسمي كارل ماركس.. ليش إنته صدك شيوعي؟
- أنا لست شيوعياً.
- شوف أبو عفيفة هذا صار يتذكر زين.. الدنيا راح تصير مسه وين هذا بيات؟

- عمی استاذ قادر انته عندک مکان ترو حله؟

- ما أعرف ..

- لعد شنو تفكـر... وين راح تروح.. وين تبات؟

- لا أدری.

- يابه هذا يبيين ما عنده مكان... زين أستاذ قادر تُگدر تبات هنا، على الكروبيات مال الگھوۃ بعد ما أعزل.

قال أبو داود صاحب المقهى وهو ينالو ماركس كأس ماء  
جلبه له أثناء ما كان يأكل لفافة الطعام الثانية التي هيأها له أبو  
عفيفة

- نعم أستطيع ذلك.

بدأت حركة الناس تخف كثيراً، وأغلقت بعض المحلات أبوابها، وسحب باعة العربات عرباتهم إلى أماكن بعيدة عن وسط السوق، باتجاه أزقة ومحلات أخرى. كان أبو عفيفة وأبو داود ومعهما أبو رجب قد دخلوا وسط المقهى، وراحوا في حوار حول كيفية التعامل مع أستاذ قادر أو كارل ماركس. وهل من الممكن إبقاءه هنا داخل المقهى. عندها اعترض أبو داود بشدة قائلاً.

- أخوان.. هذا الرجال أني ما أعرفه، بعدين مبين عليه  
مخبل مخربط.. زين اذا گعد بالليل وكسرلي حاجات الگھوة  
شراح أسوى.. بيات على القفات بره حاله حال غيره من

المجادية والمخابيل.. مخالف.. بس بنص الكهوة أعتذروني.

- خوش أبو داود الخاطري.. نصفطله كرويتين وينام أباب الكهوة.. تره هذا رجال ذبه الدهر والسرسية لعبو بي لعب... هذا چان أستاذ جبير ومحترم وينشال فوك الراس.. عزيز قوم ذل والله العظيم وداعة الخوه.

- على راسي أبو رجب مخالف بس تره عصابة أبو تركي الأعضب يوميه بالليل.. هذا المكان يصير مالتهم.. حتى الشرطة ما تدخل لهنا، وتخاف منهم.. شغلتهم بيعون ويشترون الممنوعات، ويشتغلون بكل أنواع الدكاك السوده، حتى القتل والنهب، وخاف يلگونه ويقتلونه ويأخذون فلوسه، لو بيعونه تفصيخ، حتى أحنه نفسه مخلصين منهم، كل شهر يأخذون من عدنه خاوه.

- فلوسه راح أبقيها يمي، وأني هسه من راح أعزل أروح لعد أبو تركي... شويه آني عندي خاطر انه يمه.. أروح أوصي وأحچيله قصة أستاذ قادر... وهم أنطى حصة الشهر. هسه خلي يكوم... ساعدوه يغسل وجه خطية حسبالك طالع من گبر.

قال أبو عفيفة ذلك واخذ بيد ماركس وسلمه لأبو داود ليساعده في تنظيف وجهه.. وفي ذات الوقت أخذ أبو رجب في مدحهما.

- رحمه لوالديكم.. والله چنكم مسوين فضل عليّ من السما للأرض.. آني أشعر جني أريد أرد فضل لهذا الرجال.. لأن چان ما يقبل إذا ما يگعدني يمه ونشرب سوه چاي.. ايباه شلون

دنيه.. الله لا يطيي كلمن سعه بعذاب هذا الزلمه.. الله يخبل عوائلهم.. ليش شنو ذنبه يتخل بعد ما چان أستاذ محترم ومقدر..

- إن شاء الله محلوله.. خلي بيات هنا يمنه لحين بلجي نشوفله دكتور من جماعته يساعد ويفيس شگد خبالاته، ويمكن ينعدل حاله ويرجع حتى لو مو مثل گبل بس أحسن من هسه.

بعد أن ساعدوا ماركس في تنظيف وجهه ويديه، أخذ أبو داود وبمساعدة أبو رجب لمملمة حاجات المقهي، ثم وضعوا أمام المقهي تختين متقابلين، ليكونا سريراً لماركس. وافرغ أبو عفيفة بضاعته في حقيبة صغيرة تسحب باليد، ودفع عربة الطعام وذهب بها نحو زاوية داخل السوق، حيث ركناها هناك وأحاطها بسلك معدني طويلاً ربط طرفيه بقفل كبير، ثم سحب الحقيبة اليدوية متوجهاً للبحث عن أبو تركي الأعصاب، ليشرح له حالة عبد القادر ويستعطفه من أجل حماية ماركس ليلاً وعدم إيذائه.

# في ثياب الأستاذ عبد القادر مله عطا آل مغامس

لم تكن ليلة عادية فرغم كون ماركس قد قضى أكثر من أسبوعين، كان خلالهما ينام فوق بطانية صوفية واحدة، وضعها كفراش فوق أرضية غرفة السجن الإسمنتية الصلدة، وكان يتوسد راحتي يديه، وقبلها كان ولمدة أكثر من شهر تحت التهديد اليومي في الغرفة المترفة، في بيت المجرم أبو بشير، وقد مورس ضده من العنف المنفلت الكثير. يتذكر الآن تلك الليلة المجنونة التي ربط جسده المقيد بخطم البقرة الهائجة. ولكن في هذه الليلة ومع صرير تخوت المقهى كلما حرك جسده، كان محبراً على السهاد، وفي ذات الوقت يشعر أنه تحت تهديد حقيقي، وكان وكأنه في انتظار أحد ما، سوف يأتي من فج في هذا السوق لينقض عليه، وأن ساعة حتفه قد اقتربت. فهو يترقب رجال العصابات السائبة، الذين يتحدث البعض برع عنهم، هؤلاء الذين يجوبون ليل بغداد، بحثاً عن ضحايا وأماكن لسرقتها، لا يدرى أي ساعة سوف يكون قد دومهم، ومتنى يجدهم قرب موضعه الاضطراري، وعندها يمارسون نزواتهم الوحشية تجاهه بقسوة عميماء. فأفعال هؤلاء لا يمكن توقعها، ولا حتى فهم دوافعها على الإطلاق، ولن

يكون بينهم من يتعاطف مع الضحية، فتلك المشاعر قد أختفت من قلوبهم، ولم يعد لها مكان في نفوسهم، وتحول لديهم القتل إلى هواية، تسبقها غواية وضرورة أن تكون هناك ضحية، ضحية مهما كان لونها أو مكانها أو حتى عمرها وجنسها. ورغم كل هذا وكل ما شاهده وعلق في ذهنه، وما تلقاء من ألم وقسوة ووجع وحتى خديعة طالته منذ أول دخوله عالم بغداد، وبعد كل هذه الجولة من الإحباط والضياع والعذاب فلن يخدع نفسه، ويكون متحيزاً أو مجافياً لأفكاره ويؤسّم هؤلاء البشر جمِيعاً بالتخلف والدونية. وبالرغم من أنه ينتظر الليلة من يأتي ليجهز عليه في فراشه الخشبي هذا، ولكنه يود أيضاً أن يجد المبرر العقلاني لما يعتمل في ضمائرك وقلوب العراقيين. فهم أبناء بيئتهم القاسية وتراثهم الطويل الضاج بالعنف، ومع كل ذلك الإرث القاسي، فأرواح البعض منهم لا تخلو من عاطفة وبراءة وقدرة على نكران الذات، والاستعداد لتقديم العون للأخرين، ولكن العواطف ليست كل شيء في هذه الحياة، وضغوط الجماعة، وربما عدوانيتها، والخضوع لإرادتها، ونمط الحياة، وقيمها، ووطأة الوضع الاقتصادي المزري في أغلبه، يدفع المرء لتغيير دائم في السلوك العام والخاص، و يؤثر هذا حتى على المظهر الخارجي والتركيبة العامة للشخص فيتصرف أحياناً بعيداً عن شخصيته الحقيقية.

لم يكن ليل تلك المنطقة من بغداد ساكناً هادئاً على الإطلاق، فرشق الرصاص يتكرر بين فينة وأخرى، وكان هناك في الجوار قتال شوارع بين خصمين عنيدين. ها قد أنقضى الوطر الأكثر من الليل، وهو مستيقظ لم يغلق عينيه، وكانتا على

سعتهما، تراقبان السماء بنجومها اللامعة. وكان يتنصل دبيب  
الحشرات وأصوات الكلاب والقطط السائبة، وهي تتعارك على  
بقايا الطعام المبعثر في المزابل داخل أزقة السوق، حين سمع  
فجأة وقع أقدام تقترب وحديثاً هاماً لمجموعة رجال. بعد  
برهة وجيبة أطلت ثلاثة وجوه تنظر له فوثب من رقده.

- لخاف يول لخاف.. إنته إسمك قادر.. أستاذ عبد القادر.

حاول ابتلاع لعابه ولكن حنجرته كانت جافة يابسة مثل  
صحراء ملح، فخرجت الكلمة بحشارة متقطعة ومعها صفير  
خوف.

- نعم.

- لخاف.. إرجع نام إنته بحمaitنه، وصانا بيـك أبو عفيفـة..  
تدلل أستاذ قادر.. نام نوم العوافي..

- أني ما عندي فلوس.

- نعرف.. موـگـنـالـك لـخـاف إـنـته بـحـمـاـيـتـنـا.. أبو عـفـيـفـة  
صاحبـه وـصـاحـبـ جـمـيلـ عـلـيـه.. نـام إـرـجـعـ نـامـ.

- أبو تركـي ما تـخلـينـه نـتوـنـس شـويـه ويـاه؟.

- هـاي سـوـالـفـكـ الفـايـنـاتـ.. تـرـيدـ تصـيـرـ سـبـعـ ولوـتـيـ بـرـاسـ  
المـخـابـيـلـ.. دـعـوـفـهـ لـلـرـجـالـ بـقـهـرـهـ.. دـمـشـيـ وـتـعـالـ وـيـاـيـهـ وـهـنـاكـ  
طـلـعـ شـطـارـتـكـ... الـيـوـمـ دـسـمـهـ أـرـيدـ اـشـوـفـكـ..

- عـدـ عـيـنـاكـ أبوـ تركـيـ.. مـمـنـونـكـ.. خـلـينـيـ عـلـىـ يـمـنـاكـ..

- فـيـ أـمـانـ اللـهـ عـبـدـ القـادـرـ بـيـكـ.

- إن شاء الله أغاثي.. عيوني..

هكذا نطق ماركس جملته بضم جاف، فضحك الرجال وربت أبو تركي على كتفه. ومع صخب شحکهم ومزاحهم ورعب ودهشة ماركس، انسحبوا وابعدوا يسرون ببطء نحو نهاية الزقاق. عندها عاد ماركس لرقدته وقد شعر بشيء من الاطمئنان وراح ينتظر بزوج فجر يوم جديد.

تضاربت الأفكار في ذهنه، فها هو الآن في وضع قلق وغير مطمئن، ولكن في نفس الوقت يشعر بأنه وجد بعض الحماية جراء تعاطف له ما يبرره، ولكن في حقيقة الأمر يأتي بالذات على حساب شخصيته. فوصمة الجنون للأستاذ قادر، وجدت طريقها لتسليب شخصيته الحقيقية عند هؤلاء، ولكنها في الوقت نفسه تسبغ عليه فائدة ليست بالهينة، وهي تؤشر أيضاً لفترة مظلمة وقاسية خطفت من الناس حتى عقولهم. فالعنف والجنون باتا صنوين لمرحلة امتدت طويلاً، ولم تكن شططاً عابراً في حياة الكثير من العراقيين، وحين يتحدثون عنها، يصفونها بشتى المسميات، لا بل كانت وما زالت عندهم ظاهرة، مثلت نموذجاً فريداً للقسوة والظلم، حتى وإن واجهتهم كل تلك المشاكل والصعوبات في الراهن من الوقت، فإن هناك غالبية لا تريد أن تذهب لمقارنة الماضي بالحاضر، وتصر على أن الحاضر هو نتاج ذلك الماضي، وتلك حقيقة بائنة، وقوتها لا تنكرها عين منصف. ولتفسير العنف والقسوة المجتمعية، نجد أن الماضي له من السطوة والتأثير الكبير. فالصفات العدوانية والعنيفة لها جذورها وتربيتها التي تغذت

منها، ولكن لا يمكن أن تكون خاصية إنسانية. فهؤلاء الناس لو أتيحت لهم فرصة حياة متعددة إحيائية تطورية، ويرفع عن كاهم عباء التهديد النفسي، وكبت الحريات والعز المادي، ولو كانوا في وضع مريح يسمح لهم بالتفكير العقلاني، لتغيرت الكثير من طبائعهم، وقدموا ما يشي لرفع قيمة قيمهم الإنسانية الحقيقة. ولكن مع انعدام كل هذا، فالموافق الشخصية والثبات على الحال والنفرة من التغيرات، يشخص عندهم بشكل ظاهر، ويظهر في إدارة الظاهر للعالم وتفریغ العوامل الذاتية في فورات غضب وانفعالات فجائية وعناد في المواقف، ولم يأت ذلك اعتباطاً، وإنما جاء بسبب الشعور بالتهديد الدائم والمسلط بشكل يومي. أيضاً عوامل القلق وفقدان الحريات، مما يربك التوازن الوجودي لديهم، ويبعدهم عن حقيقتهم كشعب يعد من أول شعوب الأرض وبناء أولى حضارة في هذا العالم.

«AlYaa» يات «الآيات»

# الحلم

فتح ماركس عينيه على سعتها و هو ينظر إلى صديقه إنجلز الجالس جواره على ذات تخت المقهى الذي أتخذه سريرا. كانت مفاجأة غريبة، ولكنها أدخلت السرور والارتياح لقلبه، وشعر وكأن الحياة ردت إليه، لذا قال بنشوة وفرح غامر.

- ما الذي أتي بك يا صاحبي؟
- تسلمت رسالتك وعرفت أنك في مأزق كبير، ففكرت أن أقدم لك المساعدة قدر ما أستطيع.
- آه كم أنا بحاجة إليك في هذا الظرف العصيب. لم أكن لأعرف من أين سوف يأتيوني العون، لأهرب من هذا الكابوس الذي تلبسني. يا صاحبي كم أنا فرح بوجودك، دائماً أجده جواري، وأنت تضع معي خطة خلاص هذا العالم، وتشاركني حتى في همومي ومشاغلي الشخصية، أنا جد فرح بوجودك أيها الرفيق الباسل إنجلز.
- لم أمنع نفسي من المجيء إلى هنا والبحث عنك، فقدري أرتبط بقدرك وبننا صنوين في هذه الحومة. لا فكاك عن بعضنا البعض. أليس ذلك صحيحاً رفيقي العزيز؟
- نعم أيها الرفيق.. كنت أنت سndي وصاحبـي وأيضاً ملهمـي في الكثير من الأفكار والمطـارـحـات.

- صديقي ورفيقي ماركس، أنت من أكتشف قانون تطور التاريخ البشري، وهذه الحقيقة البسيطة الواضحة، دائماً ما كانت تخفيها وتشوش عليها هيمنة الايدولوجيا، وهي إن الإنسان يجب أولاً أن يأكل ويشرب، ويجد المأوى والملابس، قبل أن يصبح في استطاعته الاهتمام بالسياسة والعلم والفن والدين. ألم تلاحظ هذا هنا في العراق؟

- أعرف هذا عزيزي إنجاز، وما جبي إلى العراق غير محاولة لسبر غور حركة وتطور التاريخ البشري، واكتشاف الحقيقة المتعلقة بالصراع الطبقي، وطبيعة وسائل الإنتاج في هذا البلد العجيب، الغني بإفراط والفقير بذات المستوى ونفس الوقت. ولكنني تعرضت للتشویش، وأدخلت في دوامة صعبة، ولم أعد أمتلك القدرة لتلمس وتتبع الأحداث والتطورات المتسرعة والمعيبة. فلم أجد طبقة عاملة بالمعنى الحرفي والاحترافي للكلمة، وأيضاً تختفي بشكل مشوش البرجوازية، ومثلها وسائل الإنتاج. لذا فطبيعة الصراع الطبقي مشوشة ومتدخلة بشكل غريب، لن يستطيع المرء تفسير الكثير من وقائعه اليومية أو مسالكه ومالاته بعمومها. ولم أجد عندهم إنتاجاً للوسائل المادية الحقيقية الضرورية للعيش، فهم يعتمدون على استيراد كل شيء، ولم أحصل على مؤشرات عن درجة التطور الاقتصادي المتحققة من طرف هذا الشعب، فالسلطة تعتمد الريع النفطي في مجل الاقتـاصـادـ. أيضاً وهذا ما شوش علي وأربكـنيـ، فقد أدخلـنيـ من استدعـانيـ، في مـآـزـقـ عـدـيدـةـ وصلـتـ فيـ بـعـضـهاـ حدـ التـهـلـكـةـ لاـ بلـ الموـتـ المـحـقـقـ.

- حتى لم تستطع أن تدرك وتطلع على حقبة تشكل الأساس الذي تقوم عليه مؤسسات الدولة، والمفاهيم الشرعية، والفن، وحتى الأفكار حول الدين التي يختص بها هذا الشعب، والتي على ضوئها تفسر الكثير من الأحداث، وكان من الممكن أن تنفعك في قادم الأيام.

- لا يا صديقي إنجليز، لم أكن في وضع مستقر، وفاجأتنى أحداث وضعتنى في حالة تقترب من الضياع، أنت تتذكر كيف تنسى لي اكتشاف القانون الخاص بالحركة الذى يحكم نمط الإنتاج الرأسمالى لعصرنا، والمجتمع البرجوازى الذى خلقه هذا النمط من الإنتاج، وأيضاً لفائض القيمة الذى سلطت الضوء عليه، وهو لب المشكلة، ووضعت الحل لما عجزت عن حله جميع الأبحاث السابقة من لدن الاقتصاديين البرجوازيين وكذلك النقاد الاشتراكين. ولكنني في نهاية المطاف لم أجد أو أشاهد أو أتلمس هنا ما يسعفي، لمعرفة كيف يتولد فائض القيمة، في هذه العشوائيات الكثيرة المنتشرة في طول العراق وعرضه، ولم أجد اقتصاداً يمكن للمرء دراسته واستخلاص نتائج منه. تصور يا رفيقي، حتى الرؤية لدى السلطة والمجتمع حول توزيع الثروة ونظام الاقتراء الحكومي غير عملية، وأيضاً غير منصفة، وتنعدم الأساس لنظام الضرائب والحماية الكمركية وتوزيع الدخول، واعتمدت هذه الطرائق في جانب منها على العنف الوحشي، وستستخدمه سلطة الدولة، أي العنف المنظم والمركز في المجتمع، بغية إنماء عملية تحويل أسلوب الإنتاج المشوه السابق الذى سمي ظلماً بالاشتراكي، وتقليل مراحل الانتقال إلى نمط الاقتصاد

الرأسمالي. وهنا نرى أن العنف ذاته أصبح قوة اقتصادية، وولدت من رحمه مafيات مدججة بالسلاح.

- ولكن أين منظمات المجتمع المدني من كل هذه الفوضى؟

- هنا مربط الفرس يارفيقي، فأنت تعرف وربما فاتنا سوية تطوير مفهوم رأس المال الاجتماعي، هذا الذي كان علينا بحثه بشكل تفصيلي، فقيمة وفعاليات العلاقات الاجتماعية، ودور التعاون والثقة، لها الأثر الكبير في تحقيق الأهداف الاقتصادية، فرأس المال الاجتماعي ركيزة أساسية للعلاقات الاجتماعية، وهو الذي يتتألف من شبكات اجتماعية ومشاركات مدنية وعادات مشتركة، لها تأثير على إنتاجية المجتمع والفرد، وهنا فإن المجتمع يعوزه الكثير ليخلق مثل تلك الشبكات، والسبب هو تخلف أنماط محددة في شبكة التشكيلات....

شعر ماركس بلكرة قوية عند قدمه فوثب من نومته وفرك عينيه فوجد أبا داود وأبا رجب يقفن جواره ويبيتسمان له.

- أَكَعْدَ عُمِيْ أَكَعْدَ... الدُّنْيَهُ صَبَحَ وَالشَّمْسُ صَارَتْ بِنَصِّ السَّمَا، وَإِنْتَهُ رَايِحُ بِسَابِعِ نُومَهُ، خَلَيْنَا نَفْتَحُ عَلَى بَابِ اللَّهِ.

- لم أنم طوال الليل.

- هسه چنت نایم وتردم چنک بعدك بالكلية، وتحجي محاضرة للطلاب. صار ساعة إحنها واگفین يمك نسمع سوالفك. اي مو خبلتنه.

هكذا قال أبو رجب وهو يسحب مع أبي داود التخت ليضعاه جوار الآخر ويخرج ماركس من بين المقعدين.

- خالي آني سمعته.. هذا عود صدك چان أستاذ. يرطن رطينه ما افتهمت منها كلشي.. هاي شلون چانو الطلاب يفتهمون.. عملية تحويل أسلوب الإنتاج المشوه، عود شنو هاذي.. هاي نسطر أكبر واحد.

- هوه آني شنو گلتكم.. هذا أستاذ عبد القادر چان ينحلف براسه وبعض الطلاب يعبدو عباده.

- يابه إذا چانو يفتهمون شنو يگول.. لعد ينجرلهم إذن، وحقهم من يحبونه. بس سمعته يحچي بالقيمة.. تره يمكن خطيه ديفكر ومشتهي مرگة قيمة.. والله لخاطر هذا الرجال راح أوصي أم داود تسوی جدر قيمه، أو باچر اجيبله سفرطاس كامل.. ثواب لروح الموتى.

كان ماركس يفكـر في حلمـه الذي تـحدـث فـيه مع رـفيـقه إـنـجلـزـ، بـتفاصيلـ كان يـودـ الإـفـصـاحـ عـنـهاـ. كان يـحتـفـظـ بـهاـ دـاخـلـهـ، وـهاـ هو قد تـحدـثـ بـهاـ فـيـ حـلـمـهـ الجـمـيلـ، استـرـسـلـ فـيـهاـ، وـكـأـنـهـ يـتـحدـثـ عـنـ حـقـائـقـ وـوقـائـعـ، كان بـحـاجـةـ لـتـدوـينـهاـ، جـمـيعـهاـ يـتـعلـقـ بـطـبـيـعـةـ هـذـاـ المـجـتمـعـ. تـمنـىـ لو لمـ يـسـتـيقـظـ مـنـ النـومـ، وـلـمـ يـأـتـيـ هـؤـلـاءـ لـإـيقـاظـهـ، فأـحـلـامـ الرـعـبـ وـالـكـوـابـيسـ كـانـتـ الـوـحـيدـةـ الـتـيـ تـعبـثـ بـلـيـالـيـهـ عـلـىـ مـرـ الأـيـامـ المـاضـيـةـ، وـلـكـنـ الـبـيـومـ اـخـلـفـتـ وـكـانـ رـفـيقـهـ بـجـانـبـهـ مـثـلـ مـاضـيـ الأـيـامـ.

- عيونـيـ قادرـ دـگـومـ غـسلـ وجـهـكـ.. رـاحـ يـجيـ أبوـ عـفـيفـةـ حتـىـ تـتـرـيكـ وـتـشـرـبـ چـايـ وـتـرـتـاحـ.

- هـمـ أـجـوـكـ جـمـاعـةـ أبوـ تـرـكـيـ بـالـلـيـلـ؟

- نعم أتوا منتصف الليل وكانوا مؤذين جداً.
- خوب ما آذوك لو فتشوك؟
- كلا كانوا مساملين.
- اي مو أبو عفيفة دهن زردوهم.
- دهن زردوهم.. ماذا تعني الكلمة دهن زردوهم؟
- دهن زردوهم مو زردوهم.. يعني إنطاحهم المقسم.
- وما معنى المقسم؟
- يعني الخاوه الشهرية.
- وماذا تعني الخاوه الشهرية؟
- لك عاد مو من صبحية الله، تفرغ خبالاتك براسنا.. هسه إحنه خاشين يوميه بحوزره وطالعين من حزوره وإنته اليوم جاي تسأل وإحنه نجاوب وما تفهم.
- اي أبو داود.. تتذكر ذيج الأيام السوداء من طلوع علينا البعثية إبلتيقه.. أنت تسأل والحزب يجيب.. هسه أستاذ عبد القادر يريد يسويها ويأنه.. عيوني أستاذ قادر دكوم غسل وجهك وأشرب ماي وأتهده بالرحمن ولكل سؤال جواب إن شاء الله.
- إن شاء الله أغاثي.

قالها ماركس، ورفع عجيزته بتثاقل، وذهب إلى داخل المقهى، ليقف عند حنفية الماء لlaghtsal. وقف أمام المرأة

المغبرة الموضوعة أعلى الحنفيّة، وراح يطالع وجهه الشاحب المتعب وعيبيه الكسيرتين. ها هي لحيته قد نمت وارتفع شعر رأسه بعض الشيء، ربما لا يحتاج سوى أسبوعٍ آخر، لاتختلف صورته كلياً عن وضعها السابق، بعد الحلاقة القسرية القاسيّة التي أرتكبها المجرم أبو بشير ومرتزقته، وكذلك عما كانت عليه في السجن، ولكن ماذا سيكون عليه الوضع بعد هذا الزمن؟. مد يده وأراحها تحت صنبور الماء، ثم رشق بقوّة وجهه بقبضة ماء، وكأنه يريد أن يوقظ نفسه من غفوّة أو غفلة، شعر في هذه اللحظة برغبة قوية في جعل انفعالاته تنفجر، رغب أن يصرخ بكل ما أوتي من قوّة، يود لروحه أن تستجيب الآن برد فعل حاد لكسر لحظة المتأهنة المرعوبة التي يدور فيها عقله وجسده، يريد لها أن تصرخ ليخرج كل ذلك الغضب اليائس الحبيس، الذي يمزق صدره. يريد لها أن تعلن تمردّها على الواقع المفرط المرارة الذي وقعت فيه. تفتت حال التخبّط والاعتباطية، التي يجرّجه نحوها القدر الهمجي الخبيث. أن تكسر عجزها وقصور تحليلها لما هي عليه، وتعاف السؤال عن كيف ولماذا وضعت حالها في كومة مازق، وبدت وكأنها في ميزان المعالجات، جاهلة وفاقدة للقدرة، وتفتقر لأي خبرة حياتية، ضعيفة الحيلة مدحورة القوى. عند تفكيره اليائس المتطرّر هذا، راح يرشق وجهه بالماء بقوّة وعجالّة وتكرار، مما جعل أبو داود وأبو رجب ينتبهان لما يفعله ويتبادلان نظرات الشفقة.

- شوفه خطيه.. شوف شنو ديسيوي المسكين بنفسه.. مو بيده.. الله لا يوفقكم والله يجازيكم بالأسوء منها، على هذي

## العملة السويفتها بالرجال.

- إِي وَاللَّهُ خَطِيه مَسْكِين.. وَاللَّهُ آنِي أَخَاف فَدِ يَوْمِ يَسُوي  
بِنَفْسِه فَدِ شَيْ. هَمْزِينِ ما تُورِطَتْ وَخَلِيْتِه يَنَامْ جَوَهْ بَالْكَهْوَةْ.

- عَمِيْ أَسْتَاذْ عَبْدِ الْقَادِرْ.. أَسْتَاذْ عَبْدِ الْقَادِرْ.. حَبِيبِيْ هَدِيْ  
نَفْسِكَ، دَنِيْهِ الصَّبَحْ سَمِيْ بِسَمِيْ بَسَمِ الْرَّحْمَانْ، تَرِهِ أَبُو عَفِيفَةِ أَجَهْ  
بِعَرْبَانَتِهِ.. تَعَالِ تَرِيْكَ..

قال أبو رجب ذلك وسحب ماركس من يده ليجلسه فوق  
التخت جوار عربة أبو عفيفه الذي سأله بدوره ماركس عما  
جرى له ليلاً، فلم يجب ماركس بغير كلمة واحدة.

- جيد.

- خوب محد آذاك؟

- كلا. شكرأً إلك.

- تشتئي لفة كباب عروگ لو تتریک ويایه جبن؟ آني جايب  
ويایه لفتین جبن.. ملت روحي من العروگ.

- ليس لي شهية للأكل الآن.. شكرأً لك سيدتي.

- حتى لو نص صمونه تفتح بيهها ريك.

- كلا فقط أرغب بتناول الشاي.

حركة وكأنه يدير بأصابعه في الهواء شيئاً ما، أو ما أبو  
عفيفه لأبو داود ثم أشار نحو كارل ماركس، فهم أبو داود  
الإشارة فجأة بقدح شاي وقدمه لكارل ماركس وجلس جواره.

- شنو راس القوري؟

- راس القوري، يعني إنته أول واحد نقدمله الچاي، قبل ما يطلع من القوري لغيرك.

أخذ ماركس يرتشف الشاي ويطالع حركة الناس في السوق، وفضل عدم الإجابة على الأسئلة أو حتى مجازاة حديث أبو داود. كان يريد أن يعبر عن موقف ما أمام الأحداث، وأن لا يظهر قلة حيلة، وعدم قدرة على التحكم بالواقع. وكمحاولة منه لسد التغرات غير متوقعة، إن شارك بالحديث أو أجاب على الأسئلة، فضل خيار الصمت في هذا الوقت، فهو إحياء مناسب لحالة الجنون التي يظنون أنها تتلمسه. دعهم يفكرون بما يشاءون فما عاد ذلك يؤذيه، وليمتنع عن الإجابات لبعض الوقت، حتى لا تكون إجاباته مصيدة لكشف أسراره، وما عليه بعد كل تلك المصائب غير التفكير بالخروج نحو فضاء الحرية والوصول إلى بلده، بعيداً عن بلد العجائب هذا ومكمن القلق والخطر، ول يكن خروجاً عجولاً من هذه المتابهة. عليه أن يجد الدافع المشروع عن النفس، وهذا لن يكون موجوداً دون تغليب المصلحة الذاتية. ولكن هل من الممكن تحقيق هذا، بوجود القلق والخوف المتفجر أمامه كل لحظة؟ وهل تغليب المصلحة الشخصية سوف يجلب له الأمان ويطمئنه؟

- عيوني أستاذ قادر دگوم بدل هدومك وره الوجاغ.. هذي سترة وبنطلون وقميص بلکي تصیر على گدا؟

- عاشت ايديك أبو عفيفة والله أبن أوادم، يصييك ثواب أو  
أجر بهذا المسكين.

- هذني باقيات عندي من چنت معلم.. أم عفيفة ضامتهن  
بالكتور.. أتكول هاي الهدوم إذكرها بأول شوفه شافتني بيها،  
من أجينا خطبها من أهلها.. وآني كل مره أكلها يمعوده تعوزي  
بالرحمان أي مو صرنـه شياب، والهدوم هاي راح يأكلها العث،  
لكن هيـه راكـبه راسـها ومتـرضـه.. الـبارـحة گـلت يـزي عـاد،  
وهـاي الـهدـوم تـرـهم القـادر أـفـنـدي وـخـلي يـگـدرـها.

- بعد شـتـريـد أـسـتـاذ قـادـر.. إـجـاـك قـاطـ بالـبـاـكـيـتـ، وـبـاـچـرـ آـنـي  
أـجـيـبـالـكـ فـراـشـ وـمـخـدـهـ.. تـدـلـلـ.

ذهب ماركس خلف الستارة حيث مخزن قناني الغاز  
المجاور لدكة قوارير الشاي. خلع ملابسه القديمة المتتسخة  
وارتدى الملابس التي أهداها له أبو عفيفة، ومسح بقميصه  
القديم فرددتى حذائه الموحلتين، وخرج، فارتفع صراخ وتهليل  
من أبو رجب ومعه أبو داود مرددين.

- الله ومصلـي علىـ محمدـ وآلـ بـيـتـ محمدـ.. عـرـيـسـ وـرـبـعـهـ  
يـزـفـونـهـ.. عـرـيـسـ وـرـبـعـهـ يـزـفـونـهـ.

لم تبدر من ماركس كلمة، ولكنه ابتسم ابتسامة شاحبة لم  
يرغب أن يلاحظها الغير، وخرج ليجلس في مكانه المعتمد  
قرب عربة الطعام.

- يابـهـ كـونـ عـلـىـ ثـقـةـ حـسـبـالـكـ الـهـدـومـ أـمـفـصـلـهـ عـلـيـكـ تـفـصـالـ،  
عـلـخـيرـ عـيـونـيـ أـسـتـاذـ قـادـرـ.

- أشكرك أبو عفيفة.. ممنون أغاثي.
- إيه هسه لو مكملاها وجاييله بينباغ، چان رجع مثل گبل على عهد الكلية، من چان يوکف بالصف هيبه.
- أستاذ قادر تلبس رباط ويه القاط؟
- لا أحبذ لبس ربطة العنق.
- دعوفو للرجال.. هسه بعدك متشتهي تاكول أستاذ قادر..؟
- قطعا.. لا أرغب الطعام الان.
- براحتك.. من تجوع گلي.



# الاختطاف مرة أخرى

بعد أن ملّ الجلوس والنوم في المقهي لثلاثة أيام، يُزق فيها الشاي من يد أبو داود ويُطعم من طعام أبو عفيفة، مثل فرخ طير كسير، ويستمع لهذر جلاس المقهي وروايات أبو رجب عن أستاذ عبد القادر. فكر ماركس بالخروج والمجازفة بالابتعاد عن هذه الاجواء واكتشاف عوالم ما يحيط بالمقهي، لذا قرر القيام بجولة بين أزقة السوق. توقف بفضول عند جميع المحلات القرية، وتمعن في البضائع التي تعرضها العربات الجوالة والأكشاك الثابتة. وصل نهاية الزقاق ثم عاد أدراجه. شعر برهبة المكان، فالضجيج والزحام وتتنوع البضائع، ووجوه الناس الشاحبة المتعبة اللاهثة، لا تدع للمرء قدرة على التركيز والثبات حول فكرة أو منظر واحد، كل ذلك الضجيج والتنوع والفوضى كان مبعثاً للتشويش والربكة. عاد بعجلة ليجلس جوار أبو عفيفة، ولكن لبضع دقائق ثم نهض فجأة، واتجه صوب وسط السوق. كان أبو عفيفة يطالعه وابتسامة عطف ترتسم على شفتيه، وراح إثر إبعاد ماركس يهز يده استخفافاً.

توغل ماركس بعيداً في زقاق جديد ثم آخر، بعد ذلك فاجأته عطفة ثم استداره أجبرته العودة ثانية لذات الزقاق، وأخيراً قادته قدماه للخروج من فتحة السوق، أوصلته إلى شارع إسفلتى عريض بمرين للسيارات، ونفق تزدحم فيه العربات بشكل غير عادي. توقف لينظر ما حوله، ويراقب حركة سير

الناس والعجلات. كان الزحام على أشده، وهدير السيارات يختلط بأصوات الباعة. على يساره يمتد جدار إسمنتي عالي يحجب واجهات الدكاكين والبضائع عن الشارع الإسفلتي. سار محاذراً الارتطام بأجساد المارة في الممر الضيق المزدحم، جراء كثرة البضائع المعروضة في واجهات المحلات وعلى جانبي الممر، فلم يترك للبشر سوى فسحة ضيقة يتذرّس السير بسهولة خلالها. لم يشاهد في حياته مثل هذا زحام مربك، غير مرة سابقة كانت في أحد أسواق الجزائر. وحتى ذلك الذي شاهده في الجزائر العاصمة، لم يكن بمثل هذا الحال من الفوضى والإرباك.

نعم، يتحالف أصحاب المصالح الكبار لخلق مثل هذه الفوضى العارمة لتمرير بضائعهم وتحقيق مآربهم، والعمل على إشاعة الأساليب الملتوية، ليعيشوا وجهاء على حساب هذه النسب العالية من الباعة البسطاء المسحوقيين. الجميع هنا يتدرّب أمره كيما يستطيع، فهم يجدون أنفسهم متزوكين يواجهون مصيرهم لوحدهم، على الأقل هكذا يوحي منظرهم. غالب هؤلاء من صغار السن، يعملون دون ضمانة للحاضر أو المستقبل، وتراتهم يتنافسون في يومهم من أجل لقمة العيش، بصراع ظاهر ومستتر، فلقمة العيش تفرض مثل هذا الاقتتال. وهناك في الخفاء تمتد أيادي المafيات العابثة، ويكون العالم بالنسبة لها، مجرد شيء يتلاعب به ويدار بالقسر والقوة. هكذا فكر ماركس بعد أن شعر بعدم قدرته على احتمال هذه العشوائية والوضع المربك، فمن الجائز أن يفقد في نهاية جولته طريق العودة، فقرر الرجوع من حيث أتى.

عرج ماركس عائداً ليدخل الزقاق القريب، متوجهاً نحو مقهى أبو داود. عند استداره قصيرة أجازها بصعوبة، دخل في زقاق، شعر فجأة وهو يقف وسطه، إنه أضاع الطريق، فراح يتلفت حوله محاولاً التعرف على دلالات، ممكناً أن ترشده إلى الطريق الصحيح. فكلما توغل في الأزقة المتشابهة والمتشابكة كان يضيع عليه المكان، فشعر وكأنه داخل لعبة متاهة الممرات المغلقة. بدأ التوتر يسيطر عليه، وأصبح في حالة نفسية معباء بالهواجس غير المريحة، فهو لا يريد ولو لفترة قريبة، أن يفقد المكان الذي التجأ إليه، كذلك لا يود في هذا الوقت، الابتعاد عن صحبة أبو داود وأبو رجب وتصوراتهم الطيبة عن أستاذ عبد القادر، الذي حل بديلاً عنه، وأيضاً أبو عفيفة وسخاءه وطبيته.

باتت المقهى تعني لماركس الكثير، فهي ليس فقط مكاناً للمبيت، وإنما يجد فيها الحماية ضد التهديد والعنف، حتى وإن كانت تلك الحماية مؤقتة، وجاءت عبر وساطة أبو عفيفة. يدرك الآن أن ما حدث لهذا المجتمع كان كبيراً وقاسياً جداً، لذا فالعدوانية ظاهرة طبيعية عند البشر، وبالذات الذين مورست عليهم ضغوطات كبيرة وواجهوا عدوانية سلطة بشعة و مجرمة، مثلاً يتحدثون عنها، لذا فهم يفرغون ردود أفعالهم، بممارسة العنف ضد الأضعف من بينهم، وهو اليوم وفي مثل هذه الظروف يبدو الأضعف في هذه المعادلة. فهو شخص تائه وحيد دون أوراق ثبوتية، وأجنبي بين أنس لا يفقهون ما يريد، وبالعادة يتوجسون من الغريب خيفة، وهذا هو الآن يمارس طقوس الخداع والتمويه ليحصل فقط على الطمأنينة

ليس إلا.

أين مقهى أبو داود في هذه الفوضى والتخبط؟ ليست بأزقة واسعة ولا حتى كثيرة، ولكنه أضاع فيها طريقه، بسبب عشوائية المحلات والأكشاك والعربات. تجراً وسائل صبي يقف عند عربة لبيع أقراص الأفلام المدمجة.

- هل تعرف أين تقع مقهى أبو داود؟

- ليش عمي شتريد منه؟

- لا أريد شيئاً فهو صديقي، وأود الوصول إلى مكانه.

- أبو داود عده صديق أجنبي!

- ماذا تعني أجنبي؟

- أنت مو أجنبي لو من الجماعة؟

- وكيف عرفت أني أجنبي؟

- مبين من حچيك... ما عدنه واحد يحچي بهلشكل إذا مو  
أجنبي، لو شو شنو!

- جيد وأين تقع مقهى أبو داود؟

- شمریني... آني ما أعرف روح أسأل غيري.

استدار ماركس، وعاد أدرجه من حيث أتى، في محاولة لاستبيان وأكتشاف صورة جديدة للمكان الذي قدم منه، عسى أن يجد دلالة ترشده نحو المقهى. وقف عند رأس الشارع، وراح يتأمل المحيط وما حوله، شاهد الصبي صاحب العربة،

يلوح له من بعيد وكأنه يستدعيه. ربما وجد ما يسعفي بها، هكذا فكر ماركس وهو يتحرك باتجاه الصبي. وقف أمامه مبتسمًا وكان الصبي يهرش رأسه بعجلة، ويتألفت يميناً ويساراً دون أن ينظر لماركس، أو حتى ينطق بكلمة. وقف ثلاثة شبان جوار ماركس وأخذوا ينظرون له بحدة ظاهرة، ثم قال أحدهم موجهاً كلامه لماركس.

- أخونا تفضل ويانه.

- إلى أين؟

- إنته مو دور على گھوہ أبو داود؟

- نعم أبحث عن تلك المقهي.

- لعد تعال إحنہ نوديك لهناك.

لم يخنه حده، فهو الآن تحت رحمة هؤلاء، وهو متلماً فكر، بات الحلقة الأضعف، فالشباب الثلاثة يطوقونه ويوجهون سيره، ليدخلوا معه في زقاق مغلق النهاية، لم يحاول المقاومة أو الممانعة، فقط سالهم عن السبب في إجباره للسير معهم، فأجابه أحدهم بأن واجبهم يحتم عليهم مراقبة جميع من يدخل هذا السوق، ولن ندعوك تتأخر فقط دقائق معدودات، بعدها نرشدك إلى مقهي أبو داود. لم يفكر في طلب المساعدة رغم زحمة الناس أو محاولة الهروب. فإن صرخ طالباً النجدة، ربما ذلك سيدفع هؤلاء الشباب لقتله مباشرة، وبدم بارد ووسط السوق دون خشية من حشود المارة، فالشرر كان يتطاير من عيونهم وهم يحدثونه ويحثونه على السير أمامهم. دخلوا زقاقاً

ضيقا دون مخرج، دفع أحدهم باباً خشبياً ثقيلاً، فأصبح الجميع وسط باحة مكشوفة تحيط بها غرف عديدة، يبدو وكأنها مخازن لبضائع متنوعة ومتعددة. دفعوا به نحو زاوية خلف كومة أخشاب كبيرة وماكينة لتشطيف الخشب.

أجلسوه فوق كرسي خشبي يبدو جديداً الصنع، بعدها انهالت عليه الأسئلة.

- من وين تعرف أبو داود؟

- صديقي وأنا أبیت عنده ليلاً.

- عجيب.. وشوكت تعرفت عليه؟

- ليس من وقت بعيد؟

التفت أحدهم وأمال رأسه على صاحبه، وكأنه يهمس له بكلام سري ولكن ماركس كان يسمعهما بشكل واضح.

- أكلّاك خاف هذا يطلع بالأمن؟ أشو حتى حچيه مو بشكانا.

- ما أعتقد.. أبو داود صاحبنا، وچان گالنه عليه.. خوب أبو داود ما يلعب بذيله ويسوّي علاقة بدون ما نعرف.. أبو داود هو عيونا بالمنطقة، وإذا هذي العيون أتغشنا نقلعها.

- إيه بلي نقلعها.

- إنته شنو أسمك؟

تردد ماركس قبل أن يجيب على السؤال، ما الذي عليه قوله، الموقف لا يحتمل تغير في الأدوار، أو القفز فوق لحظة يتقرر فيها مصير الإنسان دون اتخاذ قرار صائب، عليه الآن

ودون تردد الاختيار بين الهوية الأصلية أو البديلة. ليرمي كلمته وما يحدث بعدها فليحدث، فما عاد يهتم للقادم، فليس ما يحدث من حوله فقط مفارقات، بقدر ما هي نكبات ونكد أيضاً، وقدر تعس يهروه وراءه أين ما أراد الذهاب.وها هو يقع مرة أخرى بيد عصابة جديدة، ربما لن يفلت منها هذه المرة، وقطعاً لن يخرج سالماً.

- عبد القادر؟

- وين بيتك بيا منطقه؟

- لا أعرف.

- شگد صارلك تعرف أبو داود.

- لا أتذكر.

- شوف أبو صبري.. هذا مو خالي.. هذا لو بالأمن ودازي يشمش بالسوگ..لو داري جماعة ابو المحجل بالباتاويين، لو شوف شنو عنده من لعبه جبيره تخوف؟

- يابه والله المعبد وروحه الخالي، وداعية ابني صبري.. إذا هذا طلع بالأمن ويلعب بذيله، وعنده علاقة بأبو داود.. راح أخلي لشهم ثنياتهم معلكة اباب الكھوہ.. وأسویهم علچ بحلوگ الناس.. حجي... حجينا أبو سبتي رحمه الوالديك ما تجي يمي.. تعال هنا..

كان أبو سبتي جالساً أمام أحد أبواب الغرف يعبئ ألعاب أطفال بأكياس نايلون، بعد أن يخرجها من صندوق خشبي كبير. كان شيخاً في السبعينيات من عمره. وبعد أن سمع نداء أبو

صبري عليه، رفع جسده الناحل بثاقل وتقى منحني الظهر  
ليقف جوار ماركس.

- ها عمي أبو صبرى كول آمر.

- تروح على گهوة أبو داود، وتگله عمي أبو صبرى  
يريدك، يجينا بسرعة وبدون عذر.. گله شغلت عشر دقائق  
ويرجع.

- صار عمي.

قالها ابو سبتي وذهب متربحاً خارج الدار.

- زين طلع هويتاك أحسن ما انطلعه أبدالك.

- لا توجد لدى هوية أو أوراق إثبات.

- هاي شنو يابه.. فتشو خل نوگع على ما يه.

نهض ماركس عن الكرسي وتقى اثنان وراحا يفتشان  
ملابس ماركس، لم يجدا شيئاً. فصرخ أحدهما بوجه ماركس..

- لك إنته شنو ومنو ومن وين؟ هذا كلشي ما عده لا فلوس  
لا هويات.. يبين جاي ومضبط شغله حتى محد يكشفه لو نلزم.

- لك إنته من يامديرية أمن دازيك؟

- ماذا تعنى مديرية أمن؟

- شوف وچماله دهري ويسيوي نفسه غشيم، تره شغلة عشر  
دقائق مو أكثر وتنكشف أوراقك.

- خالي أبو صبرى بروح الوالده، عود خليني أنه أحط

رَكْبَتِهِ بِالْمَنْشَارِ وَبَعْدِينَ أَشْلَخَةَ شَلَختَيْنَ.

- لا حبيبي قاسم مثل ما گلت راح أني بنفسي أعلّگه براس السوك يم الگھوہ.

تلك اللحظة إنفرج باب البيت ليدخل أبو تركي الأعضب وخلفه رجل طويل القامة ممتليء الجسد يرتدي العباءة والعقال. كانا يتحادثان دون أن يلتفتا لما يحدث داخل البيت، واقتربا من فتحة السلم المفضي إلى السطح، عندها التفت أبو تركي نحو تلك الزاوية من الدار فشاهد ماركس جالساً على الكرسي تحيط به مجموعة رجال أبو صبري.

- هاي شنو هذا شجابه هنا؟

- عمي أبو تركي هذا جاي للسوگ ويسائل على گھوہ أبو داوود ويگول هوه صديقه.

عندما ضحك أبو تركي الأعضب قائلاً

- هاي أنتو شلون صيدله صايدين اليوم.. هذا خطية.

- شنو تقصد عمي أبو تركي؟

- صحيح، هذا عرف لأبو داوود... إنته أستاد قادر مو؟

- نعم أنا أستاذ عبد القادر.

- يابه شباب هذا عرف راجع لأبو عفيفه وأبو داوود، وهمه وصوني عليه، لحد يجيسمه، أخذنه محصوله من أبو عفيفه.

- لعد أحنه تصورناه بالأمن وأبو داوود عنده علاقة وياه.

- يمعود يا أمن، تره أبو داود وأبو عفيفة جماعته ومن عدنه وبينه ما يخونون.. وياما وگفولنه وگفات جبیره.. وهو هذا الرجال بيا حال، ما تشوفونه بيا حال.. هذا چان أستاد مال جامعة وانسجن وصار بي ألي صار.. خويطات.. دعوهو

- أها لعد من هيج كلشي ما عنده موشل هيوب..

بعد أن صعد أبو تركي الأعصب السلم ودخل أحدى الغرف في الطابق الأعلى وقبل أن يغلق الباب خلفه قال.

- إذا تقدرون أنتم ودو للرجال لگھوة أبو داود. هذا هو بيا حال وأنتم حاصرينه بهالشكل؟

راحت عيون ماركس تتنقل بين الوجوه، لقد تعرف على هؤلاء اللصوص وقدم نفسه لهم دون ماض أو هوية. شخصيته الجديدة دخلت عريفهم ولم يجد بداً من خداعهم رغم اضطرابه، ولكنه هذه المرة يشعر أنه كسب الجولة بسهولة، ضربة حظ كانت، فلو أن هؤلاء عصابة لا علاقة لها بابي تركي الأعصب وأيضا بابي داود، لكان الآن في حال لا يحمل معه غير مشاعر استعجال الموت وليس غيره. ولكن رغم انقسام حالة الشك عند هؤلاء، فالخوف والاحساس بعدم الاطمئنان كان راسخاً في فكر ماركس، فهو على يقين من أن أفكار جميع رجال العصابات سريعة العطب، ومن السهولة تقلبها في أية لحظة يشاون. فكرة سيئة منحهم الثقة، فعالهم المشحون بالصراعات والمؤامرات والخدع والجريمة، يجعل منهم في حالة إرباك وارتباك دائم، وهم غير راضين عن وقائع يومهم، لا بل واقع حياتهم بمجمله، ويکاد المرء يلمس ذلك في عيونهم

الفلقة وأمزجتهم المتقلبة، وحديثهم الخشن القاسي. فكيف يطمئن المرء حاله بعد حين. احتمل ماركس نظراتهم الشرسة وهي تتسلّكه بالكامل، وفي نفس الوقت كان يفكّر بالخطوات القادمة التي سيتخذها معه أبو صبري، فربما ينقلب فجأة كل شيء ويبدأ الجميع ممارسة العنف معه، باستهتار وشيطنة بحة مداعبة أو الهزأ من مجنون. فالمجنون في هذا البلد دائمًا ما يكون ملاحقاً من الناس، ومصدراً للسخرية والطعون ويهمل ويعزل ويضرب ويطرد دون رحمة.

لم يسمح ماركس لتفكيره الابتعاد كثيراً عن حيز المكان، أو الذهاب شططاً نحو فكرة تبعده عن الذي هو فيه. كان تفكيره محصوراً في باحة هذه الدار الخربة، ولكنه أيضاً يتذكر كيف كان مصير حبه معلقاً عند شفتني والد بيرتا الجميلة، كان يطلب منه أن ينطق كلمة القبول بزواجهما، وتلك كانت أصعب اللحظات التي ترقبها بصبر لا حدود له وانتهت بخيبة أمل مع كلمة كلا. فهل ينتظر الآن قراراً مجنوناً من أبو صibri في حالة عدم حضور أبو داود. ولكن ما علاقة هذا بذلك، كيف سمح لنفسه أن يجمع بين هاتين الحكايتين، هل بدأ ذهنه يتشتت وينحرف نحو مسالك لا جامع بينها. كل تلك الحوادث التي توالّت عليه قربته من عالم الهلوسات، أم يا ترى فعلاً ثبسته روح أستاذ عبد القادر، وبدأ ذهنه بالهذيان. شعر بتعب شديد يدب في أوصاله فأرخى جسده على الكرسي ووضع رأسه بين يديه.

تلك اللحظة فتح الباب ودخل الرجل العجوز أبو سبتي وخلفه

أبو داود الگھوجی الذى توسط باحة الدار ونظر في زوايا  
البيت وحين وقع نظره على كارل ماركس هز رأسه وقال.

- يمعود الخاطر الله متگلي وين وليت.. العفو يابه السلام  
عليكم.. شلونك عمي أبو صبري.

- هله أبو داود.. الشباب لگو تاييه بالسوگ.

- خطيه أبو رجب صار تلث ساعات ما خله مكان بالسوگ  
ما دور بيه على هذا البليه.. مسکین.

- بالريش همزين الله ستره.

ضحك ماركس ضحكة مفتعلة وقال بصوت عال.

- شنو يعني بالريش؟

- هسه محلها أستاذ قادر د گوم يمعود.. تعال نروح، الرجال  
أبو رجب خبص الدنيا عليك بس عوزه ييجي حسبالك مضيع  
ابنه.

قال أبو صبري ضاحكاً:

- هاي غير حنيه على هذا الطbagات!

- مو هو يعرفه من چان أستاد بالجامعة. يلا بينه أستاذ  
 قادر.

- إن شاء الله.. الله يحفظكم أغاثي، ممنونين عيوني.

قالها ماركس مبتسمًا فراح الجميع ضاحكاً ومردداً.. الله  
وياك أستاذ قادر.

## خبز حرية دولة مدنية

بعد أن خلت أزقة السوق من البشر، وأغلقت المحلات أبوابها، ومثلما في باقي الليالي حاول ماركس النوم ولكن هيهات، فالن العاص لا يأتيه قبل الضياء الأول للفجر، وبعد صراع طويل مع الأفكار، حلوها رغم قلتها، ومرها الذي يسيطر على غالب ما يدور بخلده. يحضره الآن فولتير<sup>(1)</sup> الذي أُعجب بالكثير من أفكاره حول الحقوق المدنية وحرية العقيدة، ودافعه عنمن يتعرضون للاضطهاد دون وجه حق، وانتقاده الحكم الارستقراطي، والتوزيع غير العادل للثروة، ونظرته النقدية حول فرض الضرائب المجحفة، والعقوبات على أبناء العامة من قبل رجال الحكم ورجال الدين والنبلاء، أيضاً فكرته عن الكون القائم على العقل واحترام الطبيعة. ولكن في دراسته لتأريخ الشعوب التي أسهمت في بناء الحضارات الكونية، فإن فولتير خلص إلى فكرة عدم الثقة بالديمقراطية، كونها تروج لحمقات العامة والدهماء، وكان ينادي بحاكم مستثير منفرد بالحكم، ولكنه يستمع لنصائح مستشارين أذكياء. وهذا الحاكم

---

<sup>1</sup>) فولتير؛ كاتب وفيلسوف فرنسي عاش في عصر التنوير. عُرف بنقده الساخر، وذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية الظرفية ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة، والمساواة وكرامة الإنسان.

يمكنه دفع القوة والثروة التي يتمتع بها رعاياه، في الاتجاه الأفضل.

فولتير يفكر بالاستبداد المستثير كمفتاح للتقدم والتغيير. كفيلسوف نابغة كان يثير مثل هذه الأفكار، وهو يشاهد الفوضى العارمة التي تعم فرنسا والعالم وما يواجهه الناس من مصاعب ومتاعب.

لن يكون مثل هذا الأمر سليماً في الكثير من الدول. هكذا فكر ماركس، فهو بالذات ينشد حكم الطبقة العاملة وبناء الاشتراكية لتحقيق دولة العدالة الاجتماعية، دولة يكون الإنسان فيها أثمن رأس مال، ويجزم أن فيها خلاص البشرية. ولكن ما العمل مع بلد مثل العراق يخلو من تصنيف وانشطار طبقي ظاهر. فالبرجوازية الوطنية طعنـت من السلطة فأفرغـت ساحتها لصالح تجار الفساد وصنـاع الجـريمة، الذين يمارسون الأدوار المنـحطة في مـسيرة الاقتصاد والـاجتمـاع، وهم من ولـد كل هذه التناقضـات والـفوضـى والأـزمـات الـاقتصادـية والـاجتمـاعـية، دون ان يـلعبـوا دورـاً رـيـاديـاً في بنـاء وطنـهم. أما الطبقة العاملة فـتبـدو في حالـة أكثر غـرـابة وتـغـرـيبـ من البرجـوازـية، فـهي تـظـهرـ وكـأنـها مـنـزوـعة طـبـقـياً، أي لا يمكنـ، وـفي اـغلـبـ الـأـوضـاعـ، توـصـيفـها وـتصـنـيفـها طـبـقـياً. فـليسـ منـ الجـائزـ إـدـرـاجـ كـلـ منـ يـعـملـ باـخـرـ أوـ منـ يـؤـديـ عمـلاًـ نـافـعاًـ ضـمـنـ جـوـقةـ العـمـالـ. وـبـاسـتـجـلاءـ المـوـقـفـ، فإنـ أـعـدـادـ منـ يـدـخـلـونـ فيـ عـلـاقـاتـ الإـنـتـاجـ الرـأـسـمـالـيـةـ، وـهـمـ جـمـيعـ منـ يـبـيـعـ قـوـةـ عـمـلـهـ وـيـنـتـجـ عـنـهـ فـائـضـ الـقـيـمةـ، حـتـىـ يـمـكـنـ تـسـمـيـتـهـ بـالـعـاـمـلـ، وـلـكـنـ فـيـ هـذـاـ

البلد لا يوجد ما يشير لوجود مؤشر حقيقي لهذه القوة العاملة، ولذا يض محل الوعي الطبقي الذي يفعله ويعلم الفرد وأيضاً الطبقة بمنظوره ومن خلاله. والطامة الكبرى أن هلامية الطبقة العاملة جعلت المرء يتذرع عليه وسمها حتى بطبقة ذاتها، فكيف والمطلوب في الصراع الطبقي والدور التاريخي أن تكون طبقة ذاتها؟

ولكن أيمكن أن تكون نظرية فولتير في الحكم صالحة للعراق بشكل خاص؟. فما شاهده من انفلات وفوضى عارمة، تتعكر على ما سمي الديمقراطية والحربيات المنفلته، التي جلبها الأميركيان للإفساد وليس للإصلاح، فراح الناس تتصرف فيها بعباء وعشوانية مقيتة، بل مهلكة في الكثير من المواقف. ربما من المقنع أن هذه الأفواج من البشر الضائعة تحتاج إلى سلطة ذكية حكيمة واعية لمهامها، وذات برنامج سياسي اجتماعي إقتصادي، يحيي البلد وينقذه من الذهاب نحو الفشل والسقوط المرير. وعليها قبل أي شيء آخر منع العامة والدهماء من فرض خياراتهم على الناس، وأن يكون الحاكم شديد المراس قوياً، يعرف كيف يوجه رعاياه نحو الفضائل والتغيير والحداثة، ويقف بحزم لمنع التصرفات الطائشة وعصابات الجريمة والحربيات السائبة، ولكن من أين وكيف يأتي هذا الحاكم وقد تقاسم الدهماء السلطة وقبضوا عليها بيد من حديد؟.

- إِكْعَدْ يَمْعُودْ، إِكْعَدْ الْيَوْمْ جَمْعَةْ وَالصَّلَاةْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ  
محمد.

- لست نائماً فقط أغمضت عيني لفترة وجيزة، كم الساعة الآن؟

- هاي هم حلوة.. تسأل على الساعة.. شنو تريد تروح للدوام؟!

- كلا، فقط أردت معرفة الوقت.

- نعم أخويه أستاذ قادر، تره آني يوم الجمعة أفتح من وگت، لأن يوم الجمعة يوم مو عادي، أولا هو يوم الله والگھوہ تنترس بالزباين.

- ماذا تعني بالزباين؟

- هاي آني شلون ويالك.. صدگ چذب إنته فد مرة کلشي ناسي، هب بياض.

- كلمة جديدة لم اسمع بها سابقاً.

- هم مخالف عمی، الله لا يوفق ألي سوه بيک هاي السالفة.. زباين يعني جمع زبانه.. يعني گطوفه مال جگاير... لو جمع زبون يعني هدوم مال الزلم.

قال ذلك أبو داود وأخذ جسده الضامر النحيل يهتز جراء محاولته كتم ضحكته.

- ربي ضحكة خير بهذا الصبح بس لا ينگلب علينا شر؟

- ما الذي دهاك في هذا الصباح أبو داود، تتكلم بالألغاز؟

- عيوني أستاذ قادر حبيت أتلطف ويالك بهذا الصبح.. اليوم جمعة عطلة، والناس أتغبش وتجي من وکت تتسوگ حاجاتها

من هنا، والبعض عنده حاجه زايده بالبيت هم يجيالي يوم بيبيعه، ويحصل بييه چم فلس لعياله.. واليوم تبدي رحمة الله بعد الظهر، تلتم ناس هوایة من جماعة خبر حرية دولة مدنیة، وبعضاهم يجي منه بالگھوة يأكلون ويشربون.. اشو دگوم ساعدني.. حرك نفسك!

رفع ماركس جسده فأحس بالتعب، فالسهر كان يثقل رأسه وجسده، ولكنه قاوم ذلك واستدار ليمسك التخت الخشبي من طرفه الآخر وليساعد أبو داود على نقله جوار مثيله أمام المقهى، ولكن جملة دولة مدنیة أدارت رأسه، وأيقظت عنده هواجس الفضول الشديد.

- أبو داود الله يحفظكم وشلونكم عيوني.. ما الذي تعنيه جماعة خبر حرية دولة مدنیة؟

- هسه ما راح أجوابك... إنته خوب أندليت بيت الشايب أبو سبتي.

- من هو أبو سبتي؟

- هذا شلون چي؟ يمعود بيت أبو سبتي اللي جماعة أبو صبري وأبو تركي الأعصب هذاك اليوم ودوك لهناك ودزو أبو سبتي علي، وبعدين انتظروني لمن أجي وآخذك..

- نعم..نعم أذكره أعرف مكانه، عند المنعطف الثاني من الزقاق ما بعد زقاقنا هذا..

- يعني ما أتيه لو رحت هناك..؟

- كلا أعرف الطريق جيدا..

- عجيب ويَكُولون مخب؟

همس أبو داود ذلك مع نفسه واستدار ليدخل المقهي.

- ماذا قلت؟

- هيچي ما كو شي..

- لم تخبرني عن جماعة خبز حرية دولة مدنية؟

- دخذ هذى السطلة وروح ليه أبو سبتي أملها مي وتعال..  
اليوم جمعة وبالعادة الماي ينگطع بالنهار فتره طويله.. ليس  
متدرى؟

- لماذا يقطع عنكم الماء؟

- أسباب هوایه يمكن يسووها قصطنى على مود  
المظاهرات، لو أكو هناك من يقبض من ولد الخوش، ويريد  
يخربط شغلنه لو شغل الحكومة حتى يهيج الناس.. بالعراق  
أتوقع كلشي يصير، وكلشي أله أسباب ومسبات، الشغل هذا ما  
يجي من وحده.. كلشي مخربط ومتعرف راس الشليله من  
جعبها.. مشروع الماي يَكُولون صار ست سنوات وما كملوه..  
بالمليارات يَكُولون صرفنا عليه.. والبوگ صاير عدم مثل  
شربة الماي.. هسه إنته وين وديته دروح يه أبو سبتي جيب  
من عنده ماي وتعال بسرعة.

- أعطيها لأبو سبتي؟

- لا بويه إنته تمليها بنفسك وترجعها لها.

رفع ماركس جردل الماء وسار متهدياً وسط الزقاق. كان

يريد أن يعرف الكثير عن هذا المجتمع، حتى النتف الصغيرة التي تتفاعل وتعتمل وتتضاد لخلق عاداته وتقاليده وحركاته وممارساته وأعرافه. تلك التي تختفي ثم تظهر فجأة بعفوية دون خطيط أو توجيه، فهذا التخبط والعشوانية في مجريات وواقع الحياة، هو النمط الشائع في المجتمع العراقي، وبمثله حين يراد التصدي للحياة ومشاغلها اليومية.

دائماً ما أراد أن يعيد للفكر النظري وظيفته النقدية وصلاته بالواقع، ولذا فهو ينطلق من الواقع وليس غيره، أي البحث في ظاهر الواقعة، ثم يقوم بتفكيكها وكشف منطقها الداخلي وتعارضها أو تناقضاتها المتلازمة، وميول تطورها وإلى أين مآلها. يوم الجمعة حسب ما عرف عنه، هو يوم عطلة دينية للمسلمين، حاله حال يوم السبت لليهود، والأحد للمسيحيين، وهذه الأيام في سماتها الأعم ظاهرة اجتماعية سياسية تاريخية، حيث يتحول هذا التقليد إلى مكون لعلاقة دينية أو مذهبية، ومن ثم يأخذ طابعها الوجданى الحقيقى بالسير والتتحول إلى علاقة سياسية، تتمحور في انحياز الدولة كلياً إلى دين الأكثرية، مما يجعل من باقي الطوائف والديانات غريبة في بلدها، حتى وإن اعترفت الدولة بوجودها وحقها في ممارسة طقوسها، ولكن طابع الدولة وسماتها الدينية، يرفض مساواتها مع مكون الطائفة الأكبر. وهنا يتم بقوة التوظيف السياسي للخطاب الديني، ليكون في الأخير عنواناً للفرقه والحروب، ويفرض طابع الجشع والنفعية ومن ثم خيارات المفاضلة عند الترويج لذلك الخطاب، ويكون الوجه الأمثل والدين العملي للمجتمع المدني البرجوازي. ومع هذا فإن ما هو إنساني في

الدين قابل للتحقق في الدنيا، لو توجه الناس للفضيلة وأبعدوا عن الأقليات الدينية مشاعر الغربة عن المجتمع والدولة، وتم إقصاء المعاناة من التمييز والاضطهاد وهضم الحقوق بعيداً، وهذا لن يتحقق إلا في ظل سلطة البروليتاريا وعملها الدؤوب لبناء دولة العدالة الاجتماعية، وجعل الجميع متساوين في الحقوق والواجبات دون استثناء، ودون الرجوع لمقولات الدين وأعرافه.

كان أبو سبتي يجلس القرفصاء أمام باب الدار بثوبه الكالح، يتلفع بغطاء رأس أبيض مرقط بمربعات سود، كان ساهماً يطالع السماء بعمق، ويداعب بيده سيجارة يبدو من شكلها أنها صناعة يدوية. بين لحظة وأخرى يرتفع منها نفساً طويلاً، ثم يخرج دخانها الكثيف من منخريه وفمه، ويروح يراقب بشغف كتلة الدخان البيضاء ويتعقبها ليطردتها بنفخة من فمه، يلعب لعبته هذه بعبوة ظاهرة على وجهه الموشى بالاحداد، فكلما سحب رشفة قوية يعقبه بزفير قوي، كان يراقب الدخان وهو يبتعد فيبتسم بفرح رضا ظاهر.

- السلام عليكم أبا سبتي.

لم يلتفت أبو سبتي نحو ماركس، وراح ينظر إلى أعلى هازاً رأسه بحركات خفيفة وكأنه يبحث عن شيء علق عند سطوح وجدران البناء الشاخصة أمامه.

- أبا سبتي...السلام عليكم..

لثلاث مرات كرر ماركس ذلك دون أن يسمع جواباً. وفجأة

نطق أبو سبتي دون أن يلتفت نحو ماركس.

- ها شترید جاي.. ما تخاف يبسطوك..

قال ذلك أبو سبتي وهو يسحب الكلمة الأخيرة عنوة، وكأنه يخرجها من منخرية

- أرسلني أبو داود لجلب جردل ماء من عندكم..

- ولڪ إنته تبقة مخبـل؟ أي دحـي عـدـل مـثـلـ الـأـوـادـمـ.. گـولـ بالـصـحـيـحـ شـتـرـيـدـ... موـ جـايـ منـ الصـبـحـ حتـىـ تصـطـرـنـيـ وـتـخـربـطـ عـلـيـهـ الجـوـ.

- حـجيـ رـحـمـهـ الـوـالـدـيـكـمـ... أـلمـ تـفـهـمـ مـاـ أـقـولـهـ؟

- سـلـيمـهـ وـصـخـونـهـ لـكـلـ الـمـخـابـيلـ.. هوـ أـبـوـ دـاـوـودـ مـاـ لـگـهـ غـيرـكـ؟ گـولـ شـتـرـيـدـ؟

- مـاءـ لـأـبـوـ دـاـوـودـ.

- فـوتـ جـوهـ وـعـلـىـ إـيـدـكـ الـيمـنـهـ الحـنـفيـةـ.

من خلال حركة اليد فهم ماركس ما قاله أبو سبتي، فدخل البيت وذهب حيث حنفية المياه ليضع الجردل تحتها ويملوئه بالماء، ثم خرج ونظر إلى أبو سبتي وشكره. كان أبو سبتي غائماً العينين يطالع السماء المغبرة، يرتشف من سيجارته بتلذذ وقوه ويمارس لعبته مع دخانها، كان يبدو وكأنه في عالم آخر، ساهياً بما يحيط به ولم يكن ليعنيه دخول وخروج ماركس أو حتى وجوده بالقرب منه.

- في أمان الله حـجيـ أـبـوـ سـبـتـيـ.

كرر ماركس ذلك لعدة مرات بعدها عاد أدراجه إلى مقهى أبو داود دون انتظار جواب أبو سبتي. وجد هناك أبو رجب وكذلك أبو عفيفة وعربته يقان قرب المقهى.

- هاي شنو أبو داود شغله لأستاذ قادر عندك؟

- أحسن ما كاعدا بطال عطال.

- عاد تنطي شي لو بلوشي؟

- بسم الله الرحمن الرحيم، هو ليش أسوه، قابل گام كسر السده..  
الشغله كلها سطل ماي جابه من يم أبو سبتي، وهو يوميه يلطله  
تلث اربع استكانات چاي بلوشي.. وبالشقه أبو عفيفة يگول  
سجلهن على حسابي، وفوكاوه فندق بلاش..

بشيء من العصبية قال أبو داود ذلك وهو يغسل الصحنون  
عند دكة قوارير الشاي.

- دنشاقه هاي أشبيك صاير بارود، وروحك ز غيره تطفر  
بالعجل. عمي أستاذ قادر أغسل أيديك وتعال أكعد يمي خل  
نتريلك، جبت صحن كاهي بالكيمير، والله على مودك رحت من  
الصبح يم القشلة حتى أجبيه.

- أشكرك إن شاء الله.. أبو رجب أغاثي.

ضحك الجميع وجلس ماركس وأبو رجب عند تخت داخل  
المقهى يتناولان الفطور، وقد أخذت حركة الناس وبمرور  
الوقت تزداد، ودب النشاط في محلات السوق، وامتلا الزقاق  
بضجيج وصراخ الباعة. جلب أبو داود قدحين من الشاي  
ووضعهما أمامهما فوق المنضدة. في ذلك الوقت شعر ماركس

بأن ما يلح داخل رأسه من سؤال، ما زال طریاً وقد كبر بشكل لا يحتمل التأجیل، لذا عليه أن یسأل أبو داود عن معنی جملته، خبز حریة دولة مدنیة، قبل أن تزدحم المقهی بالرواد ويببدأ يوم العمل الثقيل المتعب، ولا یبقى لدى أبو داود فسحة من الوقت لتفسیر ما قاله.

- أغاتي إن شاء الله.. رحمه لوالديكم، حجينا أبو داود.. لم تخبرني عن قولك بأن هؤلاء جماعة خبز حریة دولة مدنیة.

- شلك بدوخة الرأس؟

- بودي معرفة ذلك، الباب اليجيک منه ربح...لا أعرف ما بعدها؟

- هاي شلك بيها.. شجاب هذا المثل بهذا الوگت؟

- سمعتهم يتحدثون به.

- إی خوب مو کلشي تسمعه تگوله.

- نعم، أوکي. فقط أريد أن أسمع عن هؤلاء.

- شوف أستاذ قادر هاي صار چم سنه، قبل وبعد المظاهرات يجون شباب حلوين یگعدون هنا بهای الكھوہ.. یسولفون ويرطون أفتهم منهم شي ما أگدر، أريد أوگع على مايهم.. کلشي ما کو.. شنو حریة حریة.. افتهمناها بعد ما أجوي الأمريکان للعراق، وبعد ما أبو شعبنا انسلاک بهذه الحریة الی إجتهه وإاحنه بعده ما نعرف راسنا من رجلينا.. چان قبل هذا الوگت، واحد لاعب بالشعب طوبه وطنب، وإاحنه طگت بلاعینا من العطش والجوع، ومن خوفه چنه نشم

برواحنه ونخاف نشم بي، وهسه بهادي الأيام حتى التلفزيون  
والإذاعة تصيح حرية حرية ديمقراطية.. بس والذى رفع السما  
دون عمد، هذى الأيام مثل گبل، إذا ما عدك حامي يحميك، لو  
ما عدك واسطة لو حزب لو عشيرة، ولو بس تفأك حلگاك  
وتگول هذوله الجماعة مو خوش، ثاني يوم شوف شيسير  
بيك..لو تجييك إشاره لو ورقه تگول إنچب أحسلك..وإاحنه هسه  
كمنا نستعمل إنچب مثل الأول أحسن وأشرف إلنا.. هاي  
الحرية بالعراق من چنه وييه ابن صبحة، لحد ما أجو الأمريكان  
وجابو وياهم ولدنه الحبابين.. دخلينا، فاك ياخه استاذ قادر  
الخاطر ربك، خلينه من هذى السوالف الفاييـات، شراح تستفاد  
لو عرفت شنو حرية حرية دولة مدنية.. اي مو هيـه يمكن نفس  
السالفة السـوت بيـك ما سـوت، وخلـتك بهذا الوضـع.

- على أية حال، ولو أني لم أفهم من قولك الكثير، ولكن ما الذي عنيته بدولة مدنية.

عندما صاح أبو عفيف بصوت عال وهو يقوم بترتيب مواد مطعمه فوق سطح عربته، مكملاً ما ابتدأه أبو داود.

- يابه يا دولة مدنية هاي أنته شبيك.. هذوله الشيو عيين  
خابصين الدنيا بيها.. هيـه شلون واحد يـگـول.. كلمن بـكيفـه  
ومعـليـه بالـآخـرـين، والـدـيـن الإـسـلـامـي ما لـازـمـ الناس يـصـيرـ عـدـهمـ  
مـهـمـ ويـجـلـبـونـ بيـ، لو يـحـلـلـهـ مشـاـكـلـهـمـ.. يـعـنيـ لـتـگـلـيـ ولاـ أـکـلـاـكـ  
كـفـرـ بـكـفـرـ. يـرـدونـهـ نـصـيرـ مـثـلـ الغـرـبـ الـكـافـرـ.. بـالـمـنـاسـبـةـ فـدـ يـوـمـ  
مـنـ چـانـوـ الـأـمـريـكـاـنـ يـفـتـرونـ بـراـحتـهـمـ بـشـوـارـعـ بـغـدـادـ، سـأـلتـ  
جـنـديـ مـنـهـ طـبـعاـ بـالـانـكـلـيزـيـ.. چـانـ یـصـيـحـ وـیـشـتمـ عـلـيـهـ بـدـونـ

سبب.. كتله إنته تؤمن بالسيد المسيح، چان يجاوبني.. كاللي وهو هذا منو.. أوين بيتهم.. هذولة الشيوعيه يردونه نصير مثل هذا الجندي.

- هاي شلاك بيهها أبو عفيفه تره السالفة مو هيچ. شنو علاقه الكفر بمطاليب الجماهير، بعدين الشيوعيين شعليهم.. تره المتظاهرين أكثرهم مو شيوعيه، والناس ظاهر من ضيمها ومذلتها.

- هيچ مو هيچ.. أبو رجب تره هذوله تخوه كل جمعة گاطعين أرزاق العالم.

- غير همه يردون مصلحة الشعب.

- هذا يا شعب... ليش هذا الشعب يا يوم عرف مصلحته، أشو كتلنه الملك وسلحنه الوصي ونوري السعيد، وكتلنه عبد الكريم أو ياه جماعته، وصار يوميه انقلاب عسكري، وأجو البعثيين مرتين وحكموا الناس بالنار وال الحديد، والشعب مجتف وخايف وما يعرف راسه من رجليه، بس يدردم وبدون نفع، وهسه أجو هذوله وأشتغل البوگ للضالين، وإحنه وغيرنا نصرخ ونعطي ونبطح على ظهرنه، والجماعة مطنشين، لا وچماله ديضحكون على الناس.

- نعم وهذوله يتظاهرون حتى يوعون الناس ويدلوهم على باب رزقهم، ويكتشفون هذوله الحقيت عنهم.

- أهو هاي هيه ما كو غيرهم يدللي الناس على رزقه.. اي مو الناس ما عدها خبز وذوله يردون يجيبون الخبز.. المثل

يَكُوْلُ لَوْ الرِّزْقُ عَلَى كَدِ الْعُقُولِ چَانِ الْبَهَائِمِ مَاتَتْ مِنْ الْجُوعِ.  
الله ورسله وكتبه موجودين وكلشي ماشي بالعدل، والناس عال  
العال، وربك يَكُوْلُ، رزقكم في السماء وما توعدون، وخلص.

- وهذوله أصحاب عقل وضمير وإخلاص للوطن.

- خوش خوش.. البارحة سمعتها من إذاعة موزمبيق باللغة  
الصينية.. خوب إنته اليوم ما نسيت العلم مالتك، همين راح  
ترفعه وتقره نشيد الجمعة المباركة.. بسم الدين باگونه  
الحرامية؟

قال ذلك أبو عفيفة هازئاً وطلب من أبو داود أن يجلب له  
قدح شاي ثخين فجاء له بما طلب.

في الوقت ذاته كان أبو داود يتكلم بصوت مرتفع، وكأنه  
يوجه حدثه لجميع من كان جالساً في المقهى.

- هاي الشغالة أمدوختني ومدا أفتهم منها شنو وليش وشلون.  
بس الحال أبو رجب كل جمعة يروح للمظاهرات، ويشيل علم  
العراق وهمين يصرخ ويأهن خبز حرية حرية دولة مدنية...  
وهسه بعد ما سقط الريوك المعدل، ودهن زردومه بالگيمير،  
راح يَكُدر يشرحلنا شنو وليش وعليم.. خوش أستاذ قادر  
أسمع زين بلجي تحصل بيه على ثواب ويصييك أجر.

- خوش ورحمة الوالديكم، أغاثي ممنون.

قالها ماركس ضاحكاً.

- يله أبو رجب أسطره لحجي عبد القادر.. هذا فد واحد لجه  
يريد يعرف كلشي.

- عمي أستاد قادر.. ولو آني أعتدي عليك، لأن إنته أستاذ بهذا الشي، وماچان واحد يلحك بهاي الشغلات، بس شتسوي الوكت خربط كلشي، وصار الأستاذ يتعلم من الطالب.. شوف أستاذ قادر هذوله يطلعون يتظاهرون يردون إصلاح الحكم، لأن الأحزاب الحاكمة مصخوها، وبعد الناس ما بقت تتحمل، الشباب عطاله بطالم، والأحزاب إلى تحكم البلد بعضها يريد الدولة تصير دولة دينية، والمتظاهرين يصيحون ما نريد غير دولة مدنية.

- نعم.. وما الذي يعنيه بالدولة المدنية؟

- والله حسب ما عاشرتهم چم جمعة، وخشيت بنقاش ويه چم واحد منهم، لمن يجون مرات يكعدون هنا بگهوتنا، الشباب قتعوني بحچيهم وصدگت بيهم.. همه يقصدون بالدولة المدنية، أنو الحكومة المدنية تضمن المساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد الشعب، وهيه تطبق القانون مو غيرها، وتنمنع يكون السلاح بيد غيرها.. ويگولون الدولة المدنية تعتمد على مبدأ المواطنة، يعني مو المواطن ينعرف من دينه لو قوميته لو بماليه، يعرفونه كشخص مواطن. وهناك شي مهم مو مثل ما يگول أبو عفيفه، الدولة المدنية ما تعادي الدين الإسلامي لو غيره من الأديان، بس هيء ترفض أن يستغل الدين من قبل جماعة لتحقيق سوالفهم وأهدافهم السياسية.

- نعم كل ذلك صحيح وجيد.. يبدو أنهم يدركون طريقهم رغم وعورته في مثل أوضاع العراق.

- تدري أستاد قادر آني شگد أرتاح وأفرح من اشوفك

تحچي عدل، وصرت تذكر وكت من چنت أدرس بالكلية.  
أسال الله وآل البيت يرجوك عقلك الذهب مثل ذاك اليوم،  
چانت الناس تمدح بيک وبشغلك.

- نستفاد منكم أغاثي أبو رجب.

- اليوم قبل الظهر راح يجون شباب يگعدون هنا بالگھوہ  
پتحضرون للمظاهرة وأنت راح تستمع إلهم وحتى تگدر  
تسألهم.

- جميل جداً.. أتشوق لذلك. متى يأتون؟

- بعد ساعة لو ساعتين.

- لمنتظر..

## الثباب زباين المقهي

من الصعب وبشكل مباشر اكتشاف ما يفكر فيه الآخرون، فثمة عوامل تلعب دورها في رؤوس الناس وتصارع مشاربهم الفكرية، وما من أحد يستطيع أن يرغم الآخرين، دون وسيلة إقناع، على خوض تجربة نقاش هادئ متكافئ بعيد عن الاستحكامات والأحكام المطلقة المسبقة، ليكتشف ما تخبوه أذهانهم، فمن المستحيل أن يمتلك الإنسان في الكثير من الأحيان، الحقيقة المطلقة، ولا حتى أقلها شأنًا. فالبشرية تطرح على نفسها، فقط المهام التي باتت الشروط المادية متوفرة لحلها، والتي تتعمق وتدمج في الأنماط والأشكال والوسائل التي تتجز بواسطتها البشرية تلك المهام فعلياً، أي الانتباه يوكل إلى الشروط الإيديولوجية والسياسية للجدل التاريخي، وفي هذا فأبو عفيفة ينazu أبو رجب عند حدود معلوماته عن الدولة المدنية، وهي أكبر بكثير من حدود استيعابه، ولذا فالحقيقة تفلت من سيطرته، ولن يستطيع أبو رجب مهما تهيأت له الحجج، دحر وتبخيس فكرة أبو عفيفة عن الشيوعيين والشيوعية. فأبو عفيفة رغم خلفيته المهنية المتعلمة، يبدو راسخ القناعة ومعتمداً بما يقوله، ويعتقد بأن ما يعنيه هو الحقيقة بعينها، ولكن مثل هذا الأمر يعد عند البعض ضرباً من

الجنون، والجائز في أمور الاختلاف والتضاد، فإن المجانين وحدهم من يمتلك الحقيقة. هل يجوز لي أن أصل لمثل هذا الاستنتاج؟ أم تراني وقد تلبستني روح الأستاذ عبد القادر، لذا بدأت عندي مثل هذه الھلوسات، فأخذتني لذة الدخول إلى العالم الافتراضي، وعندھا أتلمس عبر فضائھ وتهویماته خطى أستاذ قادر وحياته الملتبسة التي ما بقى منها يقیناً مستحقاً.

هل من المناسب أن أشرح لهم ما تعنيه الدولة المدنية، أم أن مثل هذا سوف يدخلني في إشكال صعب، مع ذهنیتهم التي استقرت عند عالم أستاذ عبد القادر ما بعد الاعتقال، ودونه سيكون العجب العجاب، أم ترى ما أقوله لهم سوف يتواافق وقناعتهم بأصل الصورة القديمة للأستاذ قادر. مثل هذا الانشطار بين الشخصيتين يمكن له مقاربة الانشقاق الديني بين المجتمع المدني والدولة السياسية، والذي ينجم عن التناقض بين الإنسان البرجوازي ومواطن الدولة العادي. الملاكون ومعدومو الدخل، بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، بين طابع التملك الخاص لوسائل الإنتاج ونتائج العمل نفسه، إنه التناقض والتضاد والانشطار بين المجتمع المدني والدولة السياسية. لأرمي ذلك على عاتق ذهن الأستاذ عبد القادر وهو حافظة غنية ممکن لي أن استل منها ما أشاء.

تبسم ماركس وهو يفكـر بهذا التعرج الفكري في عالم يراد أن يفرض عليه كواقع، بل حقاً كان يشعر أن هناك كائناً فنتازياً يجاوره في مسیرته داخل العراق، وهو الحضور والواقع الوحيد بالنسبة له، وليس له خيار غير البحث عن الخلاص من

## داخله وبأدواته الخاصة.

ارتشف شيئاً من الشاي وطالع وجوه جلاس المقهى.. زبائن المقهى مثلما سماهم أبو داود.. زبائن أم زبانات ما الذي سوف يختلف عنده، أيستحق أن يجادل أحدهم في هذا المعنى. فالعربي معروف عنه، صاحب حجج وجداول حتى في مثل هذه النتف الصغيرة، ولا يمكن إقناعه بسهولة. سمعت مرة قوله لأحد الرجال الحكماء أن العراقي مشاغب بطبعه، ولكنني لم أجد حقيقة ما يصف ذلك أو يقاربه، فالبسطاء من هؤلاء الناس بسطاء في طيبتهم وكرمههم، مثلما تطلعاتهم ونواياهم. ليست لي القدرة على الإحاطة بكل صلاح أو عاهات هذا الشعب، وأنا الذي وضعت في محيط أدور فيه من مأزق لآخر. زوايا مغلقة ومسالك لا تفضي لشيء يناسب من يريد اكتشاف الواقع.

استرعي انتباه ماركس مرور مجموعة شباب خطرت أمام المقهى، ثم لحقت بها موجة أخرى. جميعهم كانوا شباباً يرتدون الملابس الحديثة، وتبدو على وجوههم سمات الصحة والحيوية. خرج ماركس من داخل المقهى ليجلس عند المقدمة القريب من عربة أبو عفيفة. راح ينظر إلى مجتمع الشباب التي ترد المكان سائرة نحو نهاية الزقاق، حيث مخرج السوق المفضي إلى الشارع الرئيسي. اشتدت الحاجة لديه للسؤال عن هؤلاء ووجهتهم.

- من هؤلاء الشباب وأين تراهم ذاهبون؟

- خوش سؤال أستاذ قادر، إنته مو من الصبح ليهسه أدور على جماعة خبر حرية دولة مدنية؟

- نعم.

- أغاثي هذوله همه إللي أدور عليهم.. شوف شلون ورود  
ومتفحين، ومن تسألهم يكُولون ماكو خبز والحكومة تبوگ  
قوت الشعب.. حيره والله ما أدرى أصدَّگ بيهم لو أصدَّگ  
بالحكومة.

هكذا عقب أبو عفيفه وهو يراقب مجاميع الشباب الواردة  
على الزقاق حاملة بعض الأعلام واللافتات المطوية.

- تعتقد أن هؤلاء غير صادقين في ما ينادون به؟

- مو كلش.. بس مرات أكُول الحق وياهم.

- هل أنت مكتفي مالياً؟

- لا عمي.. التقادع وهاي شغلة العربانه وممطلع بيهن  
راس.

- مَاذا تعني ممطلع بيها رأس..

فجأة صرخ أبو عفيفه بصوته الجهوري منادياً أبو رجب.

- يمعود أبو رجب تعال ترجم العنك.. تره اليوم روحي  
زهكانه وليهسه ممطلع فلوس الصمونات.

- هاي شبيك أبو عفيفه؟

- أحچيله بالعربي ومدى يفتهمني.. أكُله راتب التقادع  
والشغل مال العربانه ميكفي العيشه يكُول شنو تقصد.

- أنت لم تقل هكذا.. قلت ممطلع بيها رأس، فأردت معرفة

## عن أي رأس تتحدث؟

- راس أبو البرتقاله يلوگ لبییتک.. يمعود أبو رجب ليش ما تخدہ للأستاذ قادر تفره ابغداد تراویه الزوراء لو أسوقاک  
الكراده، بلجي ربک يعطف عليه ويگوم يتذكر.. وبجاه الله وسیدنا عبد القادر ينعدل عنده الديلكو.

- هم های فکره والله أبو عفیفة.. بعد شویه آخذه ویایي للمظاهره وأخلي يرفع علم العراق ويهاتف ویانه.

- های شلک بیها أبو رجب.. يمعود يروح يضيع، لو يتخربط، لو يگوم يسوی حركات مزینه ويعتلقوه.. تره وضع الشرطة هل أيام مو تمام، ومرات يرتبکون ويدورون حجة على الناس، وفجأة وتلگاه رايح بالسجن، وهناك راح يأكل تن کتل ومحد يلحکله.. خوب أنته مو تروح أدور عليه من موقف الموقف.. وأنته عدك فلوس حتى اطلعه لو تدور على بالمستشفيات بعد ما يتتصوب بالدخانیات مال الشرطة.

- لا راح أزم أیده وأخلي يوگف بصفي وما يتحرك.

- والله ما أدری شاگول شنو أحچي.. های أنته العاقل وترید تتصرف هيچي.

تقدم أربعة من الشباب رافعين أياديهم بالتحية وطلبا من أبو عفیفة أن يعد لهم وجبة الطعام التي اعتادوا تناولها عند كل يوم جمعة. من خلال تحياتهم وحديثهم عرف ماركس بأن لهؤلاء الشباب معرفة سابقة بأبو رجب وأبو عفیفة، وظهر ذلك

أيضاً بترحاب أبو داود الحار بهم. جلسوا في الزاوية البعيدة من المقهى، وكانت ضحكاتهم وأحاديثهم توحى بالحيوية والنشاط. ذهب أبو رجب مقترباً منهم، ففسحوا له المجال ليجلس جوارهم وأخذ يشاطرهم الحديث.

- أستاد قادر تقدر تساعدنـي؟

- نعم أبو عفيفـة.. أستطيع ذلك.

- أخذ هذـني أـمامـعـينـ الزلاطةـ وـديـهـنـ يـمـ هـذـولـةـ الشـبابـ.

- أوـكـيـ.. إـنـ شـاءـ اللهـ.

- هـايـ شـنـوـ أوـكـيـ وـشـنـوـ إـنـ شـاءـ اللهـ.

- وـماـذاـ أـقـولـ إـذـنـ؟

- گـولـ بـسـ إـنـ شـاءـ اللهـ وـهـايـ كـافـيـ.

تناول ماركس صـحـونـ السـلـطـةـ قـائـلاـ:

- إـنـ شـاءـ اللهـ وـهـايـ كـافـيـ.

- خـوشـ، مـيـخـالـفـ، درـوـحـ يـمـعـودـ، درـوـحـ وـدـيـهـنـ وـتـعـالـ.

ذهب ماركس بالـصـحـونـ وـوضـعـهاـ فوقـ الـمنـضـدةـ الـتـيـ تـتوـسطـ جـلـسـةـ الشـبـابـ. عـنـدـهـ أـمـسـكـ أبوـ رـجـبـ يـدـ مـارـكـسـ لـيـقـدـمـهـ إـلـىـ الشـبـابـ.

- هذا أـسـتـاذـ عبدـ القـادـرـ مـلـهـ عـطاـ آلـ مـغـامـسـ، چـانـ وـاحـدـ منـ أـهـمـ أـسـاتـذـةـ كـلـيـةـ الـعـلـومـ السـيـاسـيـةـ فـيـ جـامـعـةـ الـكـوـفـةـ، وـمـسـؤـولـ عنـ التـقـيـيمـ الجـامـعـيـ وـالـبـحـوثـ.

هب الشباب بالترحاب وتقديم التحية لكارل ماركس، الذي مد يده وصافحهم جميعاً بحرارة. طلب أبو رجب من ماركس الجلوس. جلس ماركس جواره مبتسمًا ينظر إلى وجوه الشباب بود ورضا. فجأة نادى أبو عفيفة.

- يمعود أبو رجب خلي قادر يساعدني، بعدين عود يتعرف على الشباب.

تلك اللحظة انتبه ماركس لوجه الشاب الحنطي البشرة الكثير التجاعيد، الأشعث الشعرجالس أمامه. راح يطالع وجهه وحركات يديه، فجأة وجده ينط في الذاكرة، لذا لم يول اهتماماً لصياح أبو عفيفة وصراخه المتكرر. أغلق أذنيه تماماً وركز نظره، فقد شدته إليها ملامح الوجه العابس. أخذ يبحث في ذاكرته عن هذا الوجه. ليس هذا الوجه بغرير عليه. في هذه اللحظة لم يعد ينقصه غير أن يتذكر الاسم والمكان الذي التقاه فيه. لا يمكن لذاكرته أن تخونه، لم يعتد ذلك، فرغم كل ما حدث ويحدث، فهو يخزن في رأسه آلاف الوجوه التي قابلها طيلة حياته، ولم يدعها تفلت من مخيلته. أطرق مفكراً يحاول إيجاد وجه هذا الفتى العابس بطبياته الكثيرة المبكرة.

لم يأخذ ذلك من وقته الكثير، فجأة مثل ومضة خاطفة تجسدت صورته أمام عيني ماركس. الصورة المنتقة الراسخة في الذهن، لا يمكن لها التوھان أو الغياب بين زحمة الوجوه والاسماء.. سامر.. سامر.. الرفيق المتهور صاحب المزاج الحاد.. سامر.. نعم هو الرفيق سامر، الذي لم يستوعب حديثي ثم اتهمني بالتحريفية، وهددني بأنه ومجموعته سوف

يرشدونني إلى الماركسية. ورغم القلق فإن ماركس شعر بالسعادة تغمر كيانه، فيها لها من مصادفة غريبة. هل عاد القدر يكرر لعبته؟ هل استدار ليمنحه فسحة أمل؟ هل يكون هذا الشيء مقدمة لخاتمة مطاف غبي مشاكس، دفع فيه ثمناً من وقته وأعصابه ليس بالقليل. لم يجد ماركس ما يفسر به تلك الدورة وهذه المصادفات العجيبة، وهو الذي لا يثق بالقدر بذلك المستوى من الثقة التي يوليه لها الكثير من الناس. ما الذي عليه أن يفعله الآن. هل يقلب حضور هذا الفتى المعاملات، أم من الممكن أن يكون عائقاً، أو شراكاً جديداً، سوف يعلق بها مرة أخرى، عندها يبدأ فصل آخر من كومة الآلام والمحن. إنه الآن أمام مفترق طرق وختار صعب وقاهر، لا يستطيع معه المجازفة وكشف أوراقه جميعها، فعليه أن يحسب لكل خطوة حساب دقيق غير متسرع، وما الذي يتربّ عليه واقعه الحالي. لا يريد أن يتبع إغواء اللحظة بشكل عفوٍ وغبٍ، فعليه التروي دون فضح الموقف، عليه أن يدرس جميع الاحتمالات ويختار اللحظة المناسبة. أن يأخذ كامل التحوطات قبل المجازفة بكشف حقيقته لسامر، فذلك الأمر تترتب عليه تغيرات درامية صعبة ومذلة، ليس فقط لسامر وجماعته، وإنما الأكثر من ذلك لأبو رجب وأبو عفيفة وأبو داود، لقد كان صعباً عليه في تلك اللحظات اتخاذ القرار المناسب، ولكنه في النهاية قرر شيئاً ما. فوجئه لمجموعة الشباب سؤالاً مراوغاً.

- أود إليها الأعزاء أن أتعرف عليكم فهل تسمحون لي بذلك؟

فسقه أبو رجب قائلاً

- مثل ما گلنتكم هذا أستاذ عبد القادر مله عطا آل مغامس  
أستاذ كلية العلوم في جامعة الكوفة سابقاً.

- أهلاً بالأستاذ ومرحباً، أنا اسمي عبد الرضا وهذا صديقي  
مهند ونحن نعمل بالصحافة وهذا صديقي الآخر وزميلي في  
الجامعة سامر، وهذا زميلنا في التظاهرة مزهر ويعمل في  
 محل لبيع الأدوات الصحية.

تأكد ماركس بأنه أمام شخصية سامر التي قابلها وتعرف  
عليها سابقاً، لذا مد يده مرة أخرى وراح يصافح الشباب  
بحرارة دون أن يرفع عينيه عن وجه سامر.

- أستاذ قادر صار يومين يسألني شنو نريد بتظاهراتنا، آني  
شرحتله مطاليبنا ومعنى الدولة المدنية، وهو هسه من شافكم  
إرتاح وكيف بيكم واليوم راح يشاركنا بالمظاهرة.

- أهلاً بي وبيك وبكل عراقي شريف أو وطني وغيره على  
بلده.

قرر ماركس أن لا يتدخل أو الأخرى أن لا يتحدث، وإنما  
المهم عنده الاستماع لأحاديثهم، وفي الوقت نفسه راح يفكر في  
الكيفية التي تساعده للانفراد بسامر، بعيداً عن المقهى وعن  
هؤلاء أيضاً. اختار الصمت والتزوي للبحث في صيغة تسعفه  
للوصول إلى مبتغاه، ربما الذهاب معهم إلى التظاهرة سوف  
يمنحه فرصة ويسمح له الانفراد بسامر، عندها يكشفه  
بال موقف.

جاء أبو عفيفة بصحون الطعام ووضعها أمام الشباب  
 وعاتب أبو رجب قائلاً.

- تره هاي سوالف محلوه منك أبو رجب.

- ليش عيوني أبو عفيفة.. آني شنو سويت؟

- إي مو الرجال قادر راد أيساعدني وإنته ما خليته.

- عفيه عليك أبو عفيفة هاي شنو منك.. ليش آني ما خليت  
 قادر يساعدك!!

- أي نعم.. گعدته القادر يم الجماعة وما چان يهتم  
 لصياحي.. هسه بالله هو ما شاء الله لا حگ ومستوي وما  
 ينعتب عليه، بس إناته شبيك، ما چنت تسمع صوتي؟.

- أبو عفيفة والله ما انتبهت زين.. تدري الرجال يريد  
 يتعرف على الشباب وبنفس الوقت يعرف شنو غايتهم  
 بالمظاهرات.. وأنني گلت بلكي هذا يكون باب يفتحه رب العباد  
 ويگدر يساعده لاستاذ قادر ويبدي يرجعله عقله.. هاي كل ما  
 في الامر.

- خوش.. بس مچانت حلوه منك.. إنبح صوتي وإنته قادر  
 وكأنه مو يمکم.

- أعتذر منك أبو عفيفة.. المكان خبصه وما سمعت، العفو  
 عيوني إناته.

نظر أبو عفيفة إلى ماركس فوجده يطالع وجه الشباب  
 بدھشة وترسم شبه ابتسامة على وجهه، ربت بخفة ومسح

على رأس ماركس، دون أن يجد منه ردة فعل، فاستدار عائداً إلى جوار عربته.

- الحراك لازم يستمر ويأخذ شكل آخر.. مبصير جمعة وره جمعة وماكو نتيجة.. أعتقد إنه وصلنه الطريق مسدود... هذولة البلحومة يراوغون ويسوفون وميردون يسون إصلاحات ويراهنون على ملنه وتعبنه.

هكذا قال سامر وهو يلوك طعامه ويلوح بيديه.

- بس عزيزي سامر تره من عام ألفين وأهدعش صارت تطورات كثيرة بالساحة ووقائع جديدة ظهرت، وهدين وياهها عناصر جديدة، وبسبب هذا أنولدت شروط جديدة، يمكن نعرف من خلالها أ NUO المجتمع دخل مرحلة جديدة من الصراع حول شنو التغيرات إلى نريدها، وشنو طبيعتها.

- والله صحيح مثل ما يگول مهند، المهم نعرف التناقضات الموجودة مو بس بلمجتمع، وإنما ما يحدث من تناقضات داخل السلطة، وما نتوقف يم التناقضات الرئيسية، لازم نكتشف التناقضات حتى الثانوية منها.

- يا جماعة الخير حچيكم كلش صحيح، بس لتنسون تره هذي التناقضات وتقاعلاتها، واحد من يريد يكتشفها ويدرسها، لازم يعتمد من البداية ويروح على لب المشكلة وهو الأساس الاقتصادي، وشنو تأثيره، لو شنو حدث من تغييرات بمستوى القوى المنتجة، وطبيعة علاقات الإنتاج، وبنية الطبقات الاجتماعية، وبعدين اندور عليها، ونعاين الاصطفاف الصاير

في الجبهة الاقتصادية، وانعكاساته على البناء الفوقي في إطار العلاقة التبادلية والوحدة الجدلية بين المستويين.

- منطق سليم جداً.

قال ماركس ذلك بصوت خافت ونقر بإصبعه فوق المنضدة، وكان يبدو منشغل البال ينظر إلى سامر، الذي باتت جميع آماله تتعلق على اللقاء المفرد به.

فجأة تدخل أبو رجب وراح يتحدث بصوت مرتفع وواضح جعل باقي جلاس المقهي ياتفاقون نحو الزاوية التي كانت المجموعة تجلس فيها.

- خالي أنتو هذا تفكيركم على راسي، وما عندي اعتراض عليه، ولو يرادلي فد عشر دروس تعليمية حته أتعلم وأفتقهم شنو تردون.. بس آني أگول واسمحولي، يمكن تفكيري قاصر وهو بشكلكم.. الناس تطلع تظاهرة، تريد شي مبين، ضد شي محدد أو واضح، ضد شي ملموس ومأذي البلد وأهله.. وبسبب الفساد والبوگ صارت الدولة مفلسة، والبطالة مالها حدود، وما خلو بناء مال الدولة ما أخذوها.. والخدمات كلش معدهم.. والسلاح صار بيد حتى الزعاطيط، والمشاكل ما تحل إلا بالسلاح لو بالفصل مال العشاير، والتغيرات تحصد بالناس، والحدود العراقية صارت خري مري، والصاده والخطوط الحمر وتيجان الروس ترسو للشوارع، ومحد يفأك حلگه يخاف ينعلس.. والوظائف بس إلهم... وغيرها وغيرها.. تگولون الدولة المدنية تحل كل هذني المشاكل.. هسه إحجلنه بالنتيجه.. آنه وياكم علماود هذني مو على مود غيرهن..

- عيوني أبو رجب ما تفضلت بي صحيح، بس إحنه نسولف على لب المشكلة، يعني شنو السبب بكل هذا.

رد عليه عبد الرضا باسماً وكأنه يحاول مواساته. ولكن سامر سارع وتدخل بالحديث.

- يا جماعة تره أبو رجب وياه الحق.. إحنة حراك جماهيري ومن كل قطر أغنية، بينه العامل والبطال والفنان والموظف والطالب، وما جمعنا بالتظاهرات مو غير هاي الأهداف الحجه عليها عنده أبو رجب، وأحسن شي نحسب نفسنه حركة اجتماعية متعددة الأطراف والاطياف، وإحنه يبقى شعارنا التغيير، ومن أجل إقامة النظام الديمقراطي اللي يضمن تحقيق الإصلاح مو غيره.. وهذا يجي بالدولة المدنية.

- هو هذا الصحيح.. ولو نگدر نطب عليهم مرة لخ بعقر دارهم بالبرلمان وهناك نراويمش شنو الثورة الجماهيرية.

- حبيبي مزهر هاي باعتقادي چانت غلطة.. وأصلاً لو تنظر بيه وتشوف وتتمعن زين، راح تلگه إلي فشلها هو منها وبيها، يعني إلي دعا إلها وقام بيه، بعدين اندم، لو أكول ما تندم، بس لعبها حسب مصالحه وعلاقته بالحكومة.. لو ما ادرى شنو، وفشلها، إحنه نريدها سلمية لا أكثر ولا أقل.

- والله چانت تصير ثورة.

- عيوني رحمه الوالديك.. شلون تصير ثورة؟ ليش هيه ذيج الحركة إلي دخلنه بيه البرلمان تمثلن؟ تمثل الشعب.. !!؟ چنه مجاميع ما ينعرف راسنا من رجلينه.. الثورة ما تصير في مجتمع منقسم على نفسه، ومتوزع على سبعين ألف شگه، وكل

شگه ترید تحود النار الگرصتها.. يا ثورة عمي دخلونه.. نبقة على هذي الجمعة وكل جمعه، بلكي شويه الناس تتحرك. الثورة يرادلها وحدة مجتمعية قبل ما تصير ثورة، وهذا صعب ويوم على يوم الأمريكان ودول الجوار يستغلون حتى تصير أصعب.

- المهم الناس گامت تتحرك وتواعى وتعرف شنو ديصير.
- هسه يمودين خل نغسل ادينه ونشرب چاي ونروح يم الجماعة للمظاهرة.
- اوكي يا الله يا جماعة.

- ليش متخلوها على حسابي هذي المرة.

- عمي أبو رجب إحنه متعددين كل جمعه نجي يمكم بهاي الگھوة ناكل ونشرب چاي.. خوب مو جايين خطار أبيتكم.. الله يحفظك ويخليك وينطيك الصحة والعافية.. وهمزين بواسطتك تعرفنة على أستاذ عبد القادر.

قال مزهرا ذلك وطلب من ماركس النھوض من أجل السماح له بالخروج من المكان للذهاب وغسل يديه فتنھى ماركس جانباً مفسحاً له الطريق وفي الوقت ذاته طلب أبو رجب من ابو داود جلب الشاي للجميع. ولكن باعترافهم ماركس بسؤال مسرحي مفتعل رافقته ابتسامته المخفية.

- ماذا يعني تحود النار الگرصتها؟
- معود بطل من أسالتك.. دتعال گوم نبوس أبو عفيفه ونصالحة وبعدين تروح ويایه للمظاهرة.

## في ساحة التحرير

جاور ماركس سامر في المسير نحو ساحة التحرير، وكان قريباً منه جداً، وكأنه يريد أن لا يفلت منه، كان يلاحقه بنظراته وخطوه، ويحاول اختبار ردود فعله مع كل حركة أو جملة تقال، يود أن يتتأكد من شخصيته وهل هي ذاتها التي واجهته بنزقها وعنفوانها وهدنته بالحساب والعقاب بسماجة وسخف. يا ترى هل يفشل الحوار معه ويكون سامر أكثر تطرفاً وصعب المراس ومتطرراً أكثر من المرة السابقة. في كل خطوة كان يريد أن يسحب سامر من يده ويهذب به بعيداً ليحادثه ويصارحه، ولكن سامر كان مشغولاً مع أصدقائه بالحديث عن التظاهرة التي تأخذ من تفكيرهم الكثير، وهم يبحثون أيضاً في متبنيات المجتمع، وكل ما يعتمل فيه من وقائع ومرارة، تفرضها العادات والتقاليد والمعتقدات الغيبية، وكان حديثهم كعادة العراقيين خليطاً من كل شيء، يذهب هناك ثم يرجع على حديث آخر هنا، بعدها يعيد تكرار السابق. كان محور تفكير ماركس يرکز على محاولة الانفراد بسامر، وفي نفس الوقت كان يتتصت حديث هؤلاء الشباب عن حركتهم الجماهيرية، أو من الجائز إطلاق تسمية انتفاضتهم الجماهيرية. فالملاحظات التي أوردها بعضهم تبدو جد عقلانية

وواقعية، وشخصت لب وأس المشكلة وهو الأساس الاقتصادي، وما حدث من تغيرات وسط القوى المنتجة، وطبيعة علاقات الانتاج وبنية الطبقات الاجتماعية، وانعكاس ذلك على البناء الفوقي للمجتمع، تفكير سليم جداً، ولكنه يحتاج إلى دلالات في الوعي المجتمعي والطبيقي والحراك الجماهيري. ومن خلال ما عرفه عن طبيعة التشكيلات الاقتصادية في العراق فإن اقتصاد العراق الريعي اليوم، وهو الذي يعتمد على تصدير النفط وبيعه، لن يفضي إلى ما يرغبه هؤلاء، ولن تولد من رحمه دولة مدنية ديمقراطية، وإنما المعروف وبشكل جلي أن هذه المعادلة دائماً ما تطرح نموذجاً مشوهاً، وأي سلطة فيه ليس لها قدرة على وضع برامج تقدم للمجتمع ما هو نافع وحضارى، فهي تعتمد شعارات وحلول ترقيعية ليس إلا، وتحاول استغلال الدخل الوطنى لمصالح فئوية وحزبية. أعتقد أن عزيمة وقوة هؤلاء الشباب يحتاجها العراق بشكل حقيقى، ولكن تحقيق حلم هؤلاء بالإصلاح يحتاج إلى أفق أوسع وإلى قوى تخلق تناسبات وتحالفات جديدة، لتكون قادرة على الاستمرار وخلق الظروف الضاغطة لأجل التغيير. وهذا التغيير من المؤكد إن نجح في مهامه الأولية، سوف يساعد على كسر قاعدة احتكار السلطة المستندة إلى الهويات الفرعية، ويوسس لوعي اجتماعي جديد، وهؤلاء الشباب أجد فيهم المعرفة الجدية والإيمان بضرورة خلق البديل المدنى الديمقراطى، وهو البديل الوحيد القادر على بناء وطنهم. ورغم قناعتي بصعوبة التغيير هذا في المدى القريب، ولكنه كملح استراتيجي، يبقى ضرورة لإنقاذ هذا الشعب من

ثقافة الاستبداد والنزعات الماضوية المناهضة للحداثة والمغرقة بالتخلف وعدم احترام الرأي الآخر والانكفاء على الغيبيات.

فجأة وفي غفلة منه وبسبب سرحانه في تحليل أفكار الشباب، لم يجد سامر جواهه. التفت نحو الباقين وبارتباك ظاهر سالم عن سامر، فأجابه أحدهم بأنه ذهب لشراء علبة سجائر وسوف يعود.

- نلتگي بييه بالمظاهرة وين يروح.

- ولكن كيف أضعته أنا؟

- شنو ليش إنته.. شنو تريد منه؟

- لا شيء... لا شيء ولكن خفت أن يضيع وسط الناس؟

- أخونا الطيب استاذ قادر... ليش سامر ز عطوط لو مايندل المنطقة... چان كمشت إيده وما خليته يفلت منك؟

تدخل أبو رجب بالقول وهو يقبض على ساعد ماركس ويسحبه إلى جانبه.

- حقه استاذ قادر يخاف على أصدقائه.. تعرفون هو... هو تعرفون.. چان استاذ جامعة وكلش يهتم بطلابه.

- والله حسالي غير شي؟ گلت بس لا صاحبنا يدور طيور جنه مکلاشه؟

- لا يمودين تره استاذ قادر مر بظروف قاسية.. بعهد صدام چان مسجون وبعد دخول الامريكان طلع وهو هسه

شويه مريض، إن شاء الله يصير زين.

- والله إنته عبد الرضا كلش تفكيرك يروح بعيد ودائماً عقالك  
يدور على المزین.

- شمدريني، مو أشوفه بياوع لسامر مو طبيعي.

- أي مو سامر يتفلس على التمن..شلون جهره عاد، مطعمجه  
معقجه..لو بس أعرف شلون أطاهم گلبهم للأهله وسمو  
سامر..ليش ماسمو معيريج..صلبيخ.. شنيخر لو طاوه  
محروگه.

ضحك الجميع وكانوا قد اقتربوا من فتحة السوق المفضية إلى ساحة التحرير. كانت عيون ماركس القلقان تجوبان المكان بحثاً عن سامر الذي فاجأهم عند انعطافة الزقاق. كان يقف أمام بائع صغير السن يعلق صندوقاً خشبياً برقبته، يضع فيه عدداً من علب السجائر. سارع ماركس ووقف جوار سامر مراقباً حركته ثم سأله.

- سوف تذهب إلى التظاهرة.. أليس كذلك؟

- إيه لعد وين راح أروح؟

- ممكن أكلمك على انفراد.. أرجوك؟

- شنو القصة استاذ قادر أكو مشكلة؟

- نعم مشكلة كبيرة أحتج أن تحلها معي؟

- خلي نلحّ بالجماعة وعود بعدين نحّي؟

- أرجوك سيد سامر أحتج مساعدتك.

- زين.. زين بعد ما تنتهي المظاهره نحچي.
- أرجوك أن تتفهم موضوعتي.. أنا بحاجة لمساعدتك، وأنت أملني في حل هذه المشكلة؟
- أستاذ قادر إيه هسه وقت حل المشاكل.. وشنو آني لگيتني حلال مشاكل، لو أكسر السدة بهيج سوالف.. آني مشاكلی معره ولا تبعد ولا تتحچي، وهسه إنته تريد أحـل مشكلاتك.. يمـعـود الجمـاعـة صـارـو بنـصـ المـظـاهـرـة وإنـتهـ صالحـيـ هناـ.
- تقـدـمـ أبوـ رـجـبـ مـلـوـحاـ بـيـدـهـ وـمـنـادـيـاـ عـلـىـ مـارـكـسـ أـنـ لاـ يـتـأـخـرـ،ـ فـلـحـ بـهـ سـامـرـ يـرـافـقـهـ مـارـكـسـ وـخـلـالـ تـلـكـ الـخـطـوـاتـ الـقـلـيلـةـ تـابـعـ مـارـكـسـ إـلـاحـاحـ بـطـلـبـ الـحـدـيـثـ الـمـنـفـرـدـ معـ سـامـرـ.
- أرجوك لا تجعل أبو رجب يعرف بطلبي هذا أرجوك.. طلبي هذا وحديثي سوف يؤثر كثيراً بهؤلاء الرجال الطيبين، لا أريد أن أظهر أمامهم مخادع وغير جدير باحترامهم.
- إيه هسه هو شنو طلـبـكـ.. هو آني أعرفـهـ حتـىـ مـتـرـيدـ أبوـ رـجـبـ لوـ غـيرـهـ يـعـرـفـهـ؟
- لن أحـدـثـكـ بـهـ إنـ لمـ تـعـدـ قـلـيلاـ عنـ التـظـاهـرـةـ لأـخـبرـكـ بـالـذـيـ أـرـيـدـهـ مـنـكـ.
- أوـ كـيـ... بـسـ كـونـ عـلـىـ ثـقـةـ غـيرـ خـمـسـ دقـائـقـ مـاـ أـسـمـحـكـ باـكـثـرـ مـنـهـنـ.
- جـيدـ... لاـ تـدـعـ أبوـ رـجـبـ يـأـتـيـ مـعـنـاـ.. عـلـيـنـاـ أـنـ نـجـعـلـهـ بـعـيـداـ قـدـرـ الـامـكـانـ.

- أي دتعال أهنا.. كُول يمعود سطرتنى.. بس إنته ليش هيچي تحچي.. ولسانك أعوج چنڭ أجنبى؟

- عزيزى سيد سامر المحترم أنا هي تلك الحقيقة.. أنا أجنبى ولست عراقي.

- يعني إنته مو استاذ عبد القادر صديق أبو رجب؟

- سيد سامر أنا وأنت التقينا سابقاً قرب مطار بغداد، ومن ثم في فندق الرفيق جبار.. هذه ملخص للحكاية كلها.. أنا كارل هانريش ماركس.

تراجع سامر إلى الوراء وكأنه صعق حين سمع الاسم، شعر برهبة الموقف وكأن كل شيء قد توقف وتجمد من حوله وردد وهو يتلعثم بالكلام.

- منو...منو؟

- أنا رفيقكم كارل ماركس الذي استقبلتموه عند أول دخوله بغداد، وفي اليوم الثاني جلسنا في فندق رفيق جبار، وقد تكلمت أنا في موضوعة المجتمع والماركسيّة الجديدة، أثارك موقفي ذاك، وكنت أنت متواتراً جداً، وطلبت مني الاعتذار عما ذكرته، وقلت بأن الماركسيّة الكلاسيكيّة هي منهجم وطريقكم، واتهمنتي بالردة والتحريف، حينها قال لك الرفيق جبار بأنك تثير المشاكل، وبدأ الخصام بينكما، وأنت أخبرته بأنك تحملت رفقة لأكثر من عامين، وأنك لا تعرف به رفيقاً لك، واتهمنتي بأنني لست كارل ماركس الحقيقي، وإنما شخص آخر تحريفى، وكانت ردّة فعلك شديدة وعنيفة حين هددتني، وأنت تخرج من

قاعة الفندق مع مجموعتك بعواقب وخيمة، وسوف تطمعوني  
على الماركسية الحقيقة.

نظر سامر بتركيز شديد إلى وجه ماركس ثم ضغط على صدغيه وهز رأسه، وكأنما يريد أن ينفض عنه شيئاً ثقيلاً علق فيه، ثم أطرق نحو الأرض، وبعد لحظات رفع عينيه ليغرسهما بوجه ماركس، ثم مسّ كتفه وراح يخضه بهدوء وهو يصرخ بسرور وفرح طفولي، تجلّى في بريق عينيه السوداويين.

- ياربى.. ياربى هاي شلون دنيا.. افترت ودارت.. ورجعت ليوره.. والله صحيح هذا الخشم عرف، وهو غريب وهاي الگصة نفسها.. هاي انته وين جنت.. منين أجيت.. وهاي منو هلس شعرك ولحيتك؟

- حين كنا مختطفين عند عصابة أبو بشير وبعد إطلاق سراح رفيق جبار، عذبت كثيراً وقام أبو بشير ومرتزقته بحلق شعر رأسي ولحيتي.

- تعال.. تعال.. تعال ورائيه خل ننزل بحديقة الأمة هناك نگدر نتفاهم أحسن.

كان زحام الجماهير على أشده، وهتافاتهم تتعالى لا يستطيع المرء التمييز والتعرف على ما يردد فيها، مجاميع تشتم وتقدّف الأحذية نحو صور لشخصيات لم يسبق لماركس مشاهدتها، وهناك مجموعة كبيرة أخرى تستمع لخطاب يقرأه رجل رشيق القامة بشعر فاحم، يعتلي منصة نصبت أمام الساحة، ومجموعة أخرى ليست ببعيدة ترفع لافتة خط عليها شعار كبير، باسم

الدين باكتونه الحرامية، لم يجد ماركس في جعبته ما يعطي الكلمة الوسطى حقها، ولم يهتم للأمر بشكل جدي، فكثيراً ما كانت ترد كلمة باكتونا على أفواه العراقيين، ودائماً ما وجدتها قد أصبحت لازمة عند البعض في أثناء أحاديثهم، دون أن يسألهم عن قيمتها المعنوية وتأثيرها.

تابع سيره وسط الزحام ليلحق بسامر الذي سبقه، وكان هذا يقترب جموع المتظاهرين بقوة وحيوية وكأنه تيس ماعز ضخم. هبطا سوية السلم المفضي إلى وسط الحديقة، بعد أن اجتازا العربة العسكرية التي كانت تقف تحت الرأية الخرسانية، تاركين ورائهم الجماهير الصاخبة، وهي تهتف مطالبة بالإصلاح، والبعض منها يطالب بإسقاط الحكومة. أمسك سامر ماركس من يده وتنحى به جانباً نحو زاوية بعيدة من الحديقة.

- هاي شلون..وين أفتر بيك الدهر يمعود تعال أحچيلي شنو القصة؟

- حكاية طويلة سوف أرويها لك لاحقاً.

- لعد أنني خبرني رضا أخي الرفيق جبار بأن العصابة أطلقت سراحك بعد ما أخذت الفدية من السفاره الألمانيه.

- أي سفاره وأي فدية.. لم يحدث مثل هذا الأمر، وإنما الشرطة من أطلق سراحي بعد فترة من خروج الرفيق جبار الذي دفع لهم أخيه مبلغ السبعة آلاف دولار فدية عنه.

- سبعاتالاف دولار؟

- نعم سبعة آلاف دولار اتفقوا عليها ولذا أطلقوا سراح

الرفيق جبار.

- ولكن رضا أخو الرفيق جبار گلي دفعنه سبعين ألف دولار.

- مثلما أخبرتك الآن وهو الذي حدث أمامي في ذلك المكان.

- مو غريبة كلها أتطير أفياله!

- كيف يطير الفيل، شيء غريب؟

- رفيق ماركس بالعراق كلشي ممکن ولا تستغرب.. الطلي يلعب شناو.. الديچ الهراتي من الخوف ينزعص ويگوم يوعي بنص الظهر.. الواوي يصادق الدجاج.. بالعراق كلشي يصير وكلشي يطير.

- رفيق سامر لا أريد أن أعرف شيئاً عن الذي تتحدث عنه.. المهم كيف أستطيع الوصول إلى الرفيق جبار؟

- ولو ما أريد أخذب عليك وإنته رفيقنا الجبير، من يوم تعاركـنه أنه ويـاه بيـوم نـدوـتك.. انـگـطـعـت عـلاـقـتـي بـجـبارـ، أو وـرـاـکـمـ تـفـلـکـشـ وـخـربـ كـلـشـيـ بـحـزـبـهـ، بـسـ بـقـتـ عـنـديـ عـلـاقـةـ بـأـخـوهـ رـضـاـ، عـلـاقـةـ قـوـيـةـ لـأـنـ رـضـاـ خـوـشـ ولـدـ حـبـابـ وـفـقـيرـ، وـمـرـاتـ شـوـيـهـ يـسـاعـدـ، رـجـالـ سـخـيـ، وـهـوـ سـوـلـفـلـيـ كـوـلـشـيـ إـلـيـ صـارـ بـيـکـمـ. وـهـذـاـ إـلـيـ تـسـمـيـهـ هـسـهـ رـفـيـقـ جـبـارـ.. وـرـهـ مـاـ طـلـعـ مـنـ يـمـکـ رـجـعـ مـتـخـلـ وـصـارـ طـبـاـکـاتـ.. أو وـرـهـ شـهـرـ گـلـبـ عـکـرـفـ لـوـيـ عـلـىـ حـزـبـهـ، وـگـامـ يـضـرـبـ رـكـعـةـ، وـجـواـهـاـ لـگـصـتـهـ بـالـبـيـتـجـانـ.

- وما معنى يضرب ركعة وجواها لگصته؟

- يعني يصلّي ويقشر بالناس على أساس هو متدين ورائي بالدين للوحه.. وگصته صارت سوده، من هلگ ما يصلّي.. وتخشّش وبه الجماعة المتدينين إلى الحكومة، وتعين بمركز مهم بوزارة الخارجية ومن ذاك الوگت أربع سيارات جسكاره تودي وأربعه ترجعه وحرس أباب بيته.

- أرجوك رفيقي سامر أفصح جيداً عن حديثك فما عدت أعرف ما تعنيه.. رايح باللوحة وتخشّش وسيارات جسكاره.. ماذا يعني كل ذلك؟

- ملخص الكلام، خلال چم يوم، صار الرفيق جبار متدين ومن جماعة الحكومة، ورأساً عينوه بوزارة الخارجية بمركز جبير، لأنّه عنده شهاده ويعرف لغتين.. وگرايبه هم جبير بحزبهم.. يعني جبار صار فد شيء، فد شيء مهم بالنسبة لجماعته إلى صار منهم. أصلاً المشيطن حته سالفة الاختطاف استغلها وحصل من وراها أشياء.

- ما الذي تعنيه؟

- يگولون سواها على أساس اختطاف طائفي، وبسبب موقفه الديني وعلاقاته ببعض رجال الدين من طائفته. لتگلي ولا أکلک سواها کولبه، وصارت صدگ، تگول چانو خاطفين نلسن ماندلا مو جبار أبو العقد المرعوص.

- ماذا اقول لك وماذا تقول لي.. ألا تنتهي هذه الكوارث والعقد اللغوية؟

- حقك ابو الشباب ابن عمي ماركس.. العفو رفيق ماركس؟

ولا يهمك نرجع لصلب الموضوع.

- المهم كيف نستطيع الاتصال به والوصول إليه؟

- الحقيقة.. رفيق ماركس تعرف.. هو بدل تلفوناته وتغيرت أحواله وما گام ينشاف.. بس علاقتي بأخوه رضا استمرت وكلش زينه، يمكن نگدر نحصل من عنده على تلفون جبار ونحاول الاتصال بيه.

- ليتك تفعل هذا الآن.. أرجوك دعني أحادثه.

- إيه هسه خليني أحصله وبعدين كولشي يصير.. إذا حصلناه أو وافق يشوفك كون على ثقة اعتبر نفسك وصلت للمكان إلى تريده.

- أيعني ذلك عودتي إلى لندن؟

- نعم، رفيقك جبار سابقاً وحالياً مولانا جبار، بين يوم والثاني يروح خارج العراق، ويگدر يسويلك جواز سفر ويطلعك وياه.. هذوله عدهم كولشي سهل مثل شربة بطل ببسي ويجرون وراه تريووه طويله.. من كثر ما شابعين ومربعين بالنعمة والناس جوانه. خل انحصله هسه وإذا وافق يقابلك خير على خير.. اعتبر مسألتك إنحلت وميك بالصدر، والهوه بظهرك عدل وگبل للندن.. بس كون يشيل التلفون، وأخاف يگلب ويرفض يحچي ويایه وحتى وياك، تره هو نحس، أعرفه ابن المدارس حيل نحس، وشاييف نفسه شوفه.. على كل حال تتصل بأخوه رضا أولاً حتى نحصل تلفونه، وشي هم حلو، بلجي هم بواسطتك وترجع علاقتنا آني وياه وشويه نستفاد منه

لهذا اليابس الانهاري اللوكي.

كان ماركس ينظر إلى سامر بغضب ويجر نفسي الاستماع لثرثرته، وهو لا يملك حيال هذا الأمر ما يجعل سامر يكتفى عن الثرثرة والشروع مباشرة بإنجاز ما يرغب به ماركس. وترسخت في ذهنه القناعة بأن مثل شخصية سامر، لا يمكن لها أن تكون ثورية وقادية في مجال عمل ما، أي عمل كان، وهو هامشي وفوضوي ومخادع، فكل شيء فيه يوحى بالتطير والعجاله، وكذلك الوصوصية والانهاريه. المهم يريد ماركس منه أن ينجز مهمة إيصاله إلى الرفيق جبار، ولি�ذهب سامر بعد ذلك أينما يذهب.

ضغط سامر على أزرار هاتفه ليتصل برضاء وفي ذات الوقت سحب سيجارة وضعها عند طرف فمه. طال الوقت مع رنين الهاتف دون رد. أغلق سامر الهاتف وأشعل سيجارته وارتشف منها بقوه.

- كلهم نفس الطينه، ولد الركاع.. تگول حسبالك أولاد شاه نشاه، لو أمبراطور اليابان ولد الق... استغفر الله.

- ألم يجيب..؟

- لا ما ديرد على التلفون.

- يجوز بعيد عن الجهاز لو مشغول.. حاول مرة أخرى.  
أعاد سامر الكرة وضغط على أزرار جهاز الهاتف وراح يستمع لرنينه البعيد.

- ألو.. ها سامر.. أهلا شلونك.

- هلو ورده أغاتي شلوناك شلون العائلة، والله مشتافقك كلش،  
ولو آني أدرى إنته مشغول، بس حبيت أسلم عليك، ذاك اليوم  
أجيت للفندق بالعرصات گالولي بالفندق للاخ اللي بالمنصور..  
بقيت شويه وتغديت يم الجماعة وهمه ما قصرؤ.. حبي  
رضاوي الورد رحمه الذاك الأب الطيب ألف رحمه ونور  
عليه بهذا يوم الجمعة المباركة، أكدر أحصل تلفون الحبيب  
جبار.

- شنواليوم بيهاب حبيب جبار، لازم أكوشي.. گلي بلکي  
أگدر أساعدك؟

- لا والله ما كواشي بس ردت أسلم عليه، خوب ما تبقيه علاقتنه مكتفوّعة بـهـلـشـكـلـ وإـحـنـهـ أـصـدـقـاءـ وـرـفـاقـ منـ زـمـنـ طـوـيلـ، والـيـوـمـ حـلـمـتـ بـيـ حـلـمـ قـوـيـ، وـكـلـتـ لـازـمـ أحـچـيـ وـيـهـ أـخـوـيـهـ الحـبـيـبـ.. مـنـ كـلـ وـلـاـبـدـ. دـادـ صـدـقـهـ لـلـوـجـهـ الـحـلـوـ، أـرـيدـ تـنـطـيـنـيـ تـلـفـونـ الرـفـيقـ جـبـارـ. خـوبـ إـنـتـهـ مـتـضـوـجـ مـنـ أـخـوـتـكـ  
پـتـصالـحـونـ؟

- لا أخويه بالعكس.. ليش اضوج.. تدلل، والله صحيح جنتو  
أصدقاء وحباب وچماله رفاق، واليمشي بدربنه شيشوف لو  
طرگاue لو عندك الحساب مو هېچى الحچى.

ضحك سامر ضحكة طويلة، ثم راح يسجل في هاتفه رقم تلفون الرفيق جبار الذي أعطاه إيمان رضا. وبعد أن أغلق الهاتف مع رضا قال لماركوس.

- هسه تمام رفیق مارکس، لو شعرایة من جلد خنزیر لو

بح.

- أما ضجرت من ترديد الألغاز.. أي خنزير هذا وأي بح؟
- قصدي لو نطلع بنتيجة زينه ويه ابن المهلوس الرفيق جبار، لو يعنفه عليه وكلشي يضيع ومنحصل منه كل نتيجة، وتبقى إنته تقتر بسواكة باب الشرجي لحين يقضي الله أمرا كان مفعولا.. تعال رفيق ماركس تعال نروح نگعد فوگ ذيج المصطبة.

ذهبا وجلسا هناك. كان ماركس يراقب حركات سامر وينتظر بفارغ الصبر أن ينهي ثرثرته ليتصل بالرفيق جبار. سحب سامر سيجارة أخرى وأخذ ينفث الدخان ويقلب بيده جهاز الهاتف دون أن يقدم على الاتصال بالرفيق جبار، بل فضل أن يسبق اتصاله بالحديث عن الخصال السيئة التي يتمتع بها الرفيق جبار، كان الحماس ظاهراً عليه وكأنه يتحدث عن عدو لئيم لا يملك من الصفات إلا سيئها وأرذلها.

- ألا تتصل بالرفيق جبار؟

- نعم سوف أتصل.. من كل ولا بد أتصل. بس دا أفكر شنو أحچي وياده، وبس لا هذا الانتهازي القذر أخاف يسد التلفون بوجهي؟

- بدون أي مقدمات قل له بأنك عثرت على كارل ماركس، وأنني أجلس جوارك الآن، عندها نرى رد فعله. هيا يا رفيقي فقد عيل صبري ما الذي تنتظره.. أرجوك.

- أوكـي حبيـي راح أـتصل بـس تـره إـنته لا تـتفاجـئ.. تـره آـني

أعرف النتيجه ويه هذا.. شايف نفسه شوفه أكثر من گبل بآلف  
قاط.. وهسه ينكر الأول وال التالي.. أعرفه آني قاري وكاتبه  
ومفسه تفليس.

- مهما يكن أرجوك اتصل به ولنرى حقيقة الأمر.

ضغط سامر على أرقام الهاتف وراح ينتظر، لم يطل به الوقت حين جاء صوت جبار من هناك.

- الو تفضل وياک سید چبار آل مطورد.

- مرحباً رفيق جبار آني رفيق سامر.

- أهلاً وسهلاً بسامر.. هاي شنو شسامع اليوم صار وقت طويـل ما سامع صوتـك.. سامر بعد لـتـگـول رـفـيق ولـتسـولـف بـذـيج السـوـالـف.. الرـفـيق رـاحـت وـيـه الرـفـيق الجـبـير.. أوـكي سـامـر..  
تفـضـل شـنـو تـرـيد.

- ماکو شی حبیت اسلم علیک وأسال عن صحتک.. خوب ما  
یطول زعلک علینه، واحنه أخوتک وانحباک حیل ونحترمک..  
أنت جبیرنه وگلبک واسع تتحمل غلطاتته وسوالفنه التعبانه..  
مو هیچ رفیق.

- مو گتاك عوف كلمة رفيق.. تره اذا كررتها راح اسد  
التلفون زين.. گول شنو عندك شتريد.. تريد تروح تبات  
بالفندق.. بعدها ام عشتار ما تريديك. هسه أخبارلك رضا خلي  
بيتاك هناك.

- لا أستاذ جبار آني هسه رجعت يم أهلي وعفتها لأم عشتار  
هينوب، بعد صارت العيشة وياهه صعبية.. بس أكو شغله

تهمك كلش ردت أحچي وياك بيـهـ.

- گول شـنـوـ هـيـهـ الشـغـلـةـ؟

- يـمـيـ وـاـحـدـ لـاـ زـمـ إـنـتـهـ تـعـرـفـهـ وـهـ بـرـيدـ يـحـچـيـ وـيـاـكـ.

- جـيـبـهـ أـنـطـيـنـيـاهـ، تـرـهـ مـاـ عـنـديـ وـكـتـ، وـلـازـمـ أـطـلـعـ يـلـهـ  
بـسـرـعـةـ.

أـسـتـلـمـ مـارـكـسـ الـهـاـفـ النـقـالـ بـقـلـبـ وـجـلـ يـخـفـقـ بـسـرـعـةـ، وـكـأـنـ  
الـكـونـ كـانـ يـرـتـجـ مـثـلـ شـجـرـةـ جـوـفـاءـ فـيـ رـيـحـ عـاـصـفـ. كـلـ شـيـءـ  
يـبـدوـ مـعـلـقاـ بـكـلـمـةـ تـصـدـرـ مـنـ الرـفـيقـ جـبـارـ، وـأـنـ هـذـهـ اللـحـظـةـ  
الـصـارـمـةـ القـاسـيـةـ مـنـ عـمـرـهـ، هـيـ اللـحـظـةـ الحـاسـمـةـ وـهـيـ حـدـ  
الـسـيـفـ القـاتـلـ الـذـيـ سـوـفـ يـشـطـرـ العـمـرـ لـمـرـحـلـتـيـنـ.

- أـلوـ رـفـيقـ جـبـارـ أـنـاـ الرـفـيقـ كـارـلـ مـارـكـسـ.

- منـوـ..ـشـلـوـنـ منـوـ؟

- أـنـاـ كـارـلـ هـيـاـنـرـيـشـ مـارـكـسـ.

- يـمـعـودـ هـذـاـ شـلـوـنـ حـچـيـ؟ـ أـنـتـ وـيـنـ يـاـ رـجـلـ، وـشـلـوـنـ  
وـصـلـتـ هـنـاـ؟ـ وـهـسـهـ إـنـتـهـ يـمـنـ..ـ أـطـيـنـيـ سـامـرـ..ـ أـطـيـنـيـ سـامـرـ.

وـبـشـيـءـ مـنـ الـفـزـعـ الـذـيـ دـبـ فـجـأـةـ فـيـ قـلـبـهـ نـاـوـلـ مـارـكـسـ  
الـتـلـفـونـ إـلـىـ سـامـرـ، وـهـوـ غـيـرـ مـصـدـقـ بـأـنـهـ تـحـدـثـ مـعـ جـبـارـ..ـ  
ظـهـرـتـ أـبـتـسـامـةـ طـفـولـيـةـ عـلـىـ وـجـهـ سـامـرـ وـهـوـ يـأـخـذـ جـهـازـ  
الـهـاـفـ.

- أـلوـ عـيـونـيـ أـسـتـاذـ جـبـارـ..

- لـكـ هـذـاـ صـدـگـ دـيـحـچـيـ، هـوـ كـارـلـ مـارـكـسـ صـاحـبـنـاـ؟ـ لـوـ

خاف هاي وحدة من دكّاتك العوجه؟

- أفة رفيق لا وروحه الوالدك العزيز، هذا صاحبنا نفس  
الخشم والحلگ والعيون، ولو شعر راسه خفيف وما عنده لحية  
بشكل ذيج لحيته مال گبل.

- أي موگنلک بلا رفيق.. شنو شعر راسه خفيف شنو ما  
عنده لحية؟

- رفيق جبار هو يگول عصابة أبو بشير زينو راسه ولحيته  
وعذبوه.

- شوف سامر أذا تستمر بكلمة رفيق فراح أسد التلفون،  
وخلی مارکس مالتاک هذا یدفعلك فلوس العشه. بعدين أني  
أعرفك زين أنته تبقه على نفس ذبتاک مخبوص ومتظير، وهذا  
المارکس مالتاک لعب عليك وإنته صدگت بي؟

- أستاذ جبار دا أكلک وروحه الخالي هو.. لو بس تشوفه.

- سامر، مو عليه، تره أني أعرف إنته ما عندك خال ميت  
غير واحد، مات وچان عمره ست شهر يعني بالگماط فلا  
تسوي عليه داور كيسه؟

- يابه والله وداعتك والخوه والروح الرفاقية، القصة  
الجاهه ألي لو بس تسمعه، رأساً تصدگ بي.

- يمعود إنته متأكد من عنده هو مو غيره؟

- أستاذ جبار نعم حيل متأكد، ومن إنته راح تشوفه  
ويسلفلك قصته راح تتأكد مثلی.

- متنطينياه مرة لخ أحجي وياه.

قدم سامر جهاز الهاتف إلى ماركس طالبا منه التحدث مع جبار.

- أستاذ جبار يريد يحكي وياك.. يعجبك تحجي وياه لو ميعجبك؟

لم ينتظر ماركس ليجيب على سؤال سامر وتلتف الهاتف بسرعة قائلًا.

- نعم رفيق جبار؟

- عزيزي أرجوك لا تناذيني برفيق، فقط گول أستاذ جبار فالمسألة حساسة أرجوك؟

- حسنا أستاذ جبار مثلما ترغب.

- تگدر تحصيلي وتصفلي شلون چنت بمكان الاختطاف وشلون حالنه هناك؟

أخذ كارل ماركس يصف لجبار حادث الخصومة مع عبيس، وكيف تم اختطافهم، وحال الغرفة والبستان، وغرفة أبو بشير ومرتزقته وساقيه الماء والتتوّر، ولليلة فرصات البعض وحلم جبار بمحاولة رميء في النهر، وعندما وصل ماركس لكلمة قزولاقورت. صاح جبار بأعلى صوته وبفرح.

- أنطيني سامر بسرعة رفيق، رفيق أنطيني سامر.

ناول ماركس الهاتف لسامر وكانت ابتسامة عريضة ترتسم على وجهه الذي تحول إلى ما يشبه عرف ديك بلونه الأحمر

القاني.

- نعم أستاذ جبار العزيز أخويه الورد.

- أخذ تكسي هسه بسرعة، وأخذ وياك العزيز ماركس للفندق، أو وصي أخويه رضا إذا شفته، لو العمال هناك حته يعتنون بيـه. كـلـلـهـمـ وـصـيـةـ جـبـارـ، يـوـفـرـوـلـهـ غـرـفـةـ زـينـهـ وـكـلـشـيـ يـحـتـاجـهـ، أـخـوـيـ أـخـوـيـ سـامـرـ ماـ وـصـيـكـ أـدـيرـ بـالـكـ عـلـيـهـ، وـأـنـيـ بـعـدـ سـاعـتـيـنـ أـنـهـيـ الـاجـتمـاعـ بـالـوزـارـةـ وـأـجـيـ عـلـيـكـمـ لـهـنـاـكـ... خـوـشـ أـخـوـيـهـ ماـ وـصـيـكـ مـرـهـ لـخـ بـمـارـكـسـ تـرـهـ هـذـاـ صـاحـبـيـ بـوـكـتـ الشـدـهـ وـالـضـيـگـ..ـ ماـ أـوـصـيـكـ سـامـرـ الـورـدـ ماـ أـوـصـيـكـ.

- أـنـتـهـ تـأـمـرـ أـمـرـ أـغـاتـيـ أـسـتـاذـ جـبـارـ..ـ مـيـصـيرـ خـاطـرـكـ أـلـاـ طـيـبـ.ـ اللـهـ وـيـاـكـ مـحـرـوـسـ عـيـونـيـ.

أغلق الهاتف والتفت نحو ماركس قائلاً

- عـيـونـيـ مـارـكـسـ الـورـدـهـ أـنـتـهـ هـسـهـ خـشـيـتـ بـالـعـصـرـ الـذـهـبـيـ..ـ وـأـنـيـ هـمـيـنـ بـلـكـتـ يـصـيـرـلـيـ فـدـ شـيـ وـيـهـ صـاحـبـنـاـ سـيـدـ جـبـارـ،ـ وـتـنـزـلـ رـحـمـةـ اللـهـ تـهـلـهـلـ عـلـيـنـاـ،ـ شـفـتـهـ شـلـوـنـ مـنـ سـمـعـ بـيـكـ يـمـيـ،ـ تـخـبـلـ طـارـ مـنـ الـفـرـحـ..ـ هـوـ جـبـارـ تـرـهـ هـمـ بـشـكـلـكـ تـحـرـيـفـيـ..ـ أـكـلـ أـسـتـاذـ مـارـكـسـ أـرـيدـ أـحـچـيـ حـچـاـيـهـ بـسـ لـاـتـزـعـلـ،ـ وـهـمـيـنـ موـ تـرـوـحـ وـتـنـقـلـهـ لـلـرـفـيـقـ جـبـارـ.

- تـفـضـلـ تـكـلـمـ.

- يـعـنيـ لـوـ هـسـهـ أـخـطـفـكـ وـأـطـالـبـ جـبـارـ بـفـدـيـةـ عـنـكـ..ـ تـتـصـورـ رـاحـ يـنـطـيـنـيـ لـوـ يـغـلـسـ الـحـبـابـ..ـ؟ـ

كان ماركس يتمنى أن يتجنب النظر إلى سامر ويشغل نفسه بالتلطع

نحو المتظاهرين، ولكنه في نفس الوقت كان منتبها لما ي قوله أو الأخرى ما يهدر به سامر من كلام.

- شفت شلون صاير جبار سيد أبن رسول الله من بيت الساده آل مطورد، هو ايه عدهم الگابه حيل سهلة. راح ناخذ تكسي على حساب السيد. ستگول رفيقي العزيز لو أفرك أبغداد فد ساعة ساعتين، تشوفها للولاية مالتنه زين وتشبع منها گبل ما ترجع الأهلاك.

أطلق ضحكة مدوية بوجه ماركس الذي لم يجاريه بفرحة، ولم يكن على استعداد لقبول مثل هذه المزحة السمحجة، وجهه كان مقطباً شاحباً، يفكر بأنه لن يجد راحته قبل أن يلتقي الرفيق جبار، رغم سماعه لكلماته الترحيبية الفرحة وضحكاته التي كان ينقلها الهاتف بشكل واضح حين كان سامر يبعد السمعاء عن أذنه متعمداً ليقربها من ماركس.

كان ماركس يتسرّط بنظراته حشود الجماهير وهو يبتعد مع سامر خارج الحديقة. جموع غفيرة تصرخ وتهتف بملء حناجرها وتلوح بالأعلام، ويبدو الإصرار رغم التوتر هو السمّه والطبع الظاهر على هذه الجموع. شيء حسن يبعث على التأمل والأمل، إنهم يشنون حرباً لتحطيم قيم وقواعد وقيود خلقها وفرضها أصحاب السلطة، ولكن يا ترى هل تستطيع هذه الجموع كسر تلك القواعد والاستحكامات. لم تكن حشود الجماهير بأعداد كبيرة ولكن يبدو عليها الإصرار والعزم وهذا هو المهم، ول يكن هذا سلاحها في المواجهة.

كثير من الغرابة والتناقضات في هذا البلد، وكان هناك

مخاض لصناعة وطن غير الذي هو عليه الآن. ولكن الغريب أن أكثر الأشياء والأفعال دائماً ما تأخذ منحى العنف والعدوانية، وتطغى عليها الأنانية عوضاً عن المحبة والتسامح والألفة. المظاهر الطاغية على الفرد وحتى المجتمع، متوجهة بشكل غريب نحو تمجيد الماضي، وكقواعد وسلوكيات فذلـك من يتـسيـد المشهد الـيـومـيـ، وتـكون مـحاـكاـةـ المـاضـيـ قـاعـدةـ وـسـلـوكـ يـوـمـيـ وـمـعـيـارـ لـقـيـاسـ الـعـلـاقـاتـ وـسـيرـ الـأـحـادـاثـ. ولـكونـ المـاضـيـ وـالـتـقـليـدـ يـشـكـلـ الـغالـبـ فـيـ حـيـاةـ النـاسـ فـحـالـاتـ التـوتـرـ تكونـ شـائـعةـ فـيـ الـبـنـيـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ، وـمـنـ خـلـالـ ذـلـكـ يـسـتـمرـ المـجـتمـعـ فـيـ خـلـقـ وـسـائـلـ عـدـيدـ لـتـعـزـيزـ التـقـليـدـ وـكـبـتـ حـرـكـاتـ التـغـيـرـ وـالـمـطـالـبـاتـ الـجمـاهـيرـيـةـ بـالـإـصـلاحـ. ربماـ كـانـتـ تـلـكـ قـنـاعـتـيـ أوـ هـنـاكـ مـتـغـيرـاتـ وـوـقـائـعـ لـمـ اـسـتـطـعـ اـكـتـشـافـهـاـ أوـ الـوـصـولـ إـلـيـهـاـ، فـبـاتـ فـهـمـيـ لـهـذـاـ المـجـتمـعـ قـاصـراـ، وـلـكـنـ مـثـلـ تـلـكـ التـظـاهـراتـ الـجمـاهـيرـيـةـ فـيـ المـدـنـ الـعـرـاقـيـةـ، حـتـماـ سـوـفـ تـخـلـقـ أـجـوـاءـ جـديـدةـ وـتـكـونـ نـوـاـةـ لـتـغـيـرـ قـادـمـ، فـمـنـ غـيـرـ الـمـعـقـولـ أـنـ يـسـتـمـرـ الـوـضـعـ عـلـىـ هـذـاـ الـحـالـ الـذـيـ تـفـرـضـهـ النـخبـ الـحـاكـمـةـ وـمـافـيـاتـ السـوقـ.

- هـاـ رـفـيقـ مـارـكـسـ، أـشـوـفـكـ رـحـتـ بـدـالـغـةـ جـبـيرـهـ وـإـنـتـهـ تـبـاوـعـ لـجـمـاعـتـهـ؟

- الـافـكارـ تـتـحـولـ إـلـىـ قـوـةـ مـادـيـةـ حـيـنـ تـتـبـناـهاـ الـجمـاهـيرـ، وـدـائـماـ ماـ تـبـدـأـ الـثـورـةـ بـبـؤـرـةـ صـغـيرـةـ ثـمـ تـتـسـعـ.

- رـفـيقـ مـنـ حـلـگـاـكـ الـبـابـ السـماـ.

- شـنـوـ حـلـگـاـكـ وـأـيـ بـابـ لـهـذـهـ السـماءـ؟

- رفيق إنته لو مسجل ما سمعته من سوالف وكلمات وأمثال، وما شفته من أحداث بالعراق، وبعدين كل هذا تطبعه بكتاب وبعنوان صارخ، كارل ماركس في العراق، يابه بعرضي راح الكتاب هذا يثير ضجة بالعالم وخاصة هو باسمك، وينوضع يم كتابك، العمل المأجور وراس المال لو حول المسألة اليهودية وغيرها، يابه وروح خالي، ميه بالميء إنته من وراه راح أتألف وتصير برجوازي. وبالعراق أسألاني أني، ناسي وأعرفهم زين، يكيفون لو واحد يسولفهم عن الأمثال والعبر والدكايك والفاينات العراقية، أحسن من سوالف الاقتصاد وجنجلويات البحوث والدراسات؟

- أرجوك سامر فلنبعذب ونذهب إلى حيث قال الرفيق جبار.

- يمعود هاي شبيك گالب وجهك، موزين راح تلتقي بأحد أقطاب الحركات الثورية العالمية رفيق جبار آل مطورد.

- أرجوك سامر لقد تجاوزت كثيراً، دعنا نذهب حيث طلب جبار ذلك.

- شنو أجاوزت، وعليمن، تره لوما مصلحتي يم السربوت جبار چان هسه عفتاك تفتر أباب الشرجي، وترجع تبات بالگهاوي، ويبيقى أسمك أستاذ عبد القادر إلى يوم يبعثون.

- شكرالك على كل حال، أعتقد أنك تستطيع أن تفعل ذلك.

- هم مخالف مقبوله منك، رفيق ميكون خاطرك الا طيب، نص ساعة ونكون بالفندق.

## وصية الأستاذ عبد القادر

اقترب من المقهى حافي القدمين بثياب رثة، يداه ملوثتان وبيدو عليه وكأنه يعمل في محل لبيع الفحم، أو في كورة حداده. دنا من طرف التخت جوار عربة طعام أبو عفيفة، وجلس ينظر مبهوراً لصحن الطعام الجاهز الموضوع فوق سطحها. التفت أبو عفيفة نحوه وسأله مباشرة وشبه ابتسامة ترتسم على شفتيه.

- ها وليدي جو عان؟

- إيه جو عان..

- تريد لفة.. لو بالماعون؟

- بكيفاك عمي.

- أخلياك عروگ وبيتتجان لو بس عروگ؟

- بكيفاك.

ابتسم أبو عفيفة ابتسامة عريضة وهو يطالع هذا الفتى البائس بشعره الكث ووجه المتتسخ، ثم وجه نظره داخل المقهى حيث يقف أبو داود ويجلس قريباً منه أبو رجب.

- أخلياك خضر؟

- بکیف؟.

- أخیالک طرشي؟

- بکیف؟ عمي خلیلي کلشی وكلاشی.. الله يخلی بيبيتك فدوه.

- عدک فلوس؟

- هذی بس.

أخرج من جیب ثوبه ورقہ نقدیہ إیرانیہ. ضحک أبو عفیفة وراح یجهز الطعام، وبین لحظة وأخری یخطف النظر نحو الفتی الفقیر، الذي تعلقت عیناه بید أبو عفیفة وهي تھیئ الطعام. ناوله قطعة رغیف كبيرة بداخلها مثلما طلب کلشی وكلاشی، فاخذ الفتی یلتھمها بشيء من العجالۃ. فجأة نادى أبو عفیفة على صاحبه أبو رجب.

- أبو رجب.. أبو رجب حبیبی.. تعال.. تعال، رحمه لهذاك الأب، هذا هم إلك عرف بيه مثل استاذ عبد القادر.. دتعال بلجي هذا هم إله نصیب یمک.

جاء أبو رجب مقطب الوجه یتحدث بعجالۃ وبشيء من الغضب.

- أبو عفیفة إی هسه صار لك أسبوع تصجم.. یزي عاد.. تره أزعـل والله.

- تزعـل على أخوك، خوش والله، هاي الچانت مرجيـه منك.

- لعد شنو قصدك.. قابل چنت تريـدنـي أحـطـ أـبـأـيدـ استـادـ قادرـ سنـاسـلـ؟

- لا، بس أعرفك أدور ثواب من المخابيل.
- هم مخالف مقبوله منك.. اشكرك هوایه هوایه.
- های شبیک روحك زغیره الیوم.
- وإنـته الـیـوم جـایـک الـواـھـس وـتصـچـم وـتضـرـب بـسـامـیـرـ.
- قـصـدـي أـتـلـاطـف وـیـاـک حـبـبـيـ.
- تـتـلـاطـف مو؟ شـنـو إـنـته حـسـبـالـك رـجـعـو أـسـتـاد قـادـر لـلسـجـنـ  
لو لـلـشـمـاعـیـة لو تـاهـ.
- هـسـه لو تـاهـ لو رـجـعـ الأـهـلـه شـنـو طـبـ بـجـيـسـنـ؟ أـشـو أـكـثـرـ  
من شـهـرـ من أـجـهـ يـمـنـهـ وـفـرـحـنـهـ بـيـ، وـفـجـأـةـ گـلـبـ وـرـاحـ مـثـلـ فـصـ  
ملـحـ وـذـابـ.
- أغـاتـي أبو عـفـيـفةـ شـنـو قـصـدـكـ گـلـبـ وـفـصـ مـلـحـ وـذـابـ؟  
أـطـلـقـ أبو عـفـيـفةـ ضـحـكـةـ صـاخـبـةـ جـلـبـتـ اـنـتـبـاهـ روـادـ المـقـهـىـ  
ونـادـىـ باـعـلـىـ صـوـتـهـ
- هـايـ هـمـ خـوشـ وـالـلهـ، تـعـالـ عـيـونـيـ أبو دـاوـودـ، تـعـالـ شـوـفـ  
أـبـوـ رـجـبـ هـمـ تـيـهـ الحـجـيـ وـگـامـ يـسـأـلـ شـنـوـ ماـ شـنـوـ؟  
 جاءـ أبو دـاوـودـ لـيـاتـحـقـ بـهـمـ وـرـاحـ يـنـظـرـ بـدـهـشـةـ نحوـ الرـجـلـ  
الـفـقـيرـ وـفـجـأـةـ قـالـ وـهـوـ يـهـزـ يـدـهـ يـمـيـنـاـ وـشـمـالــ.
- واـيـ واـيـ، أـنـيـ أـحـسـنـلـيـ أـعـزلـ الـگـهـوـةـ.
- ليـشـ عـيـونـيـ أبو دـاوـودـ، ليـشـ شـنـوـ صـاـيـرـ؟
- صـارـتـ السـالـفـةـ مـاـصـخـةـ، الـگـهـوـةـ صـارـتـ تـجـمـعـ لـلـمـخـابـيلـ.

- إِي لَعْد شَلُونْ، غَيْر شَبِيه الشَّيْء مَنْجذِب إِلَيْهِ.
- عند تلك الجملة راح الجميع في حالة من ضحك هستيري.  
نهض الرجل الفقير من مكانه وفغر فاه وبدأ بموجة ضحك  
وتصفيق أجبرت الرجال الثلاثة التوقف والنظر إليه بدهشة.
- مسْتَوِي حَيْل..الله يخليه، ما يحْتَاج..نَگَرْه سَلْف..عَفِيه  
ولَيْدِي عَفِيه.
- تَرَه مو بَسْ هُو، وَرَبُك الْمَعْبُود، الْكُل مَسْتَوِيَه.
- بَسْ چَانْ اسْتَاذ قَادِر مو بِشَكَل هَذَا، شَوِيَّة أَوْعَى وَحَچِيه  
مَرْتَب وَمَوزُون.
- لَكَنْ يَخْرُبَط بِالْحَچِي چَنَه مَثْل الْأَجَانِب وَيَگَلَب الْوَلَد  
وَيَسُوي ابْنِيَه وَالْبَنِيَّه يَسُويَها وَلَد، وَيَسْأَل هَوَايَه.
- هَسَه مَوزِين طَلَع بِهْجِي حَالَة، هُو چَان الْيِطْب يَمْ ذُولَاك  
بِذَاك العَهْد صَدَگ چَذَب چَان يَطْلَع عَدَل؟
- الله يذكرك بالخير أستاذ عبد القادر، ما أدرني شنو صار  
ويyah. وشحل بيه الدهر؟
- وضعه كُلش زين ومنشنش.
- قال ذلك ابو رجب وهو يسحب نصف رغيف من تحت  
غطاء القماش الذي يحفظ ابو عفيفة أرغفة الخبز والصمون  
تحته.
- نعم عيوني نعم، قادر وضعه كُلش زين ومرتاح ومنشنش،  
هاي عرفناهه، بَسْ أَرْوَحَلَك فَدوَه، أَرِيد أَعْرَف، عَود الْخَبَز

مالتي شعلي؟

- أبو عفيفة فلوسك تلگاهه يوم القيامه.

- أي أقبض من دبش مو؟

- أخويه أبو رجب إنته متأكد من سالفه گرايب استاذ قادر،  
أخاف الرجال راح بين الرجلين بهذا الوگت الما يتأمن؟

- لا يابه ماكو هيج شيء، مو گدامك أبو داوود، ما سمعت  
شنو گالي سامر، أنو واحد أجه يمهم بالظاهرة مال الجمعة،  
لمن طلع وي انه قادر.. وهذا الرجال گال هوه گرايب قادر،  
وبوسه لعبد القادر وشبگه، وگال راح يوصله الأهله بعد أيام،  
وبعدين يگول سامر، الرجال ترخص مني وگال القادر تجي  
وياياي، وقدر چان فرحان كلش، والرجال أخذه وياه، وقدر  
چان راضي ومرتاح، راح ويه گرايبه.. أصلا يگول سامر،  
أنو گرايب استاد قادر چانت عنده سياره من هاي الحديثة ألي  
تخرج، سوده مظلة وموديل هل سنـه.. بعد شنو أريد اسوسي  
وياه.. الله يحفظه ويسلمه ويشافيـه ما طول لـگـه أـهـلهـ.

- أي آني سمعته السامر من حجالك، بـس شـو ما صـدـگـتـهـ ما  
أدرـيـ ليـشـ؟ـ هذاـ أـصـلاـ موـ رـاحـهـ،ـ وـأـنـيـ خـاـيفـ تـرـهـ بـهـذاـ الوـگـتــ  
ولـدـ الـحـرـامـ هوـاـيـهـ،ـ أـخـافـ هذاـ شـافـوـ مـخـبـلـ أـخـذـوـ وـرـاحـوـ وـدوـ  
لـهـذـوـلـةـ العـصـابـاتـ الـيـاخـذـونـ الـجـلـاوـيـ وـالـمـشاـويـ لـوـ وـاـحـدـ منـ  
أـعـضـائـهـ،ـ لـوـ يـفـخـوـهـ وـيـسـتـعـمـلـوـهـ بـالـتـفـجـيرـاتـ..ـ اللهـ يـسـتـرـ.

- هـايـ شـلـاـكـ بـيهـ يـمـعـودـ أـبـوـ عـفـيفـةـ،ـ فالـلـهـ وـلـاـ فالـلـكـ..ـ تـرـهـ  
بـسـوـالـفـكـ هـايـ تـمـرـدـ گـلـبـيـ مـرـدـ.

- لا والله أخويه أبو رجب مو قصدي آذيك، وأسأل الله أن ينجي استاذ قادر..بس أني گلبي يلعب من هذا أبو كفشه المنفوشه ألي اسمه سامر.

- أبو عفيفة، أني أدرى ليش.. لأن انته تكره هذوله الشباب جماعة حرية حرية دولة مدنية.

- لا والله مو هيچ.. آني ما أكراهم..هذوله ولدنا.. بس أشوف ديتبعون نفسهم وماكو نتيجة، وطوخوها ومصخوها..وسالفتهم ما بيها فايده. والناس تريد السالفة تستوي بالعجل، ما بقه عدها صبر.

- إذا الناس ما عدها صبر لعد شنو تنتظر.. ربک ينزل لهم بالزنبيل؟

- وربک المعبد تره البلاحكومة رايحين بفالهم وينفذون بس إللي براسمهم، وما يفهمهم كلشي، وحاليلهم إذن من طين وإذن من عجين.. دعوتنا من هاي السالفة.. هسه يعني ما راح تتعرف على هذا المسكين؟

- شلك بهذي السوالف أبو عفيفة مو گتاك، تره والله أزعل عليك.. هسه تقبل أدفع حساب أكل هذا الفقير لو تزيد تحصل الثواب لوحدك.

- عنده تومانات.

- شنو راح تاخذهن منه؟

- ليش أخويه أبو رجب.. اشفتني.. چنت أخذ من استاذ قادر؟

- لا والله أخويه والنعيم منك.. وكم ياه چانت كلش حلوه.
- أبو رجب هذا المسكين ذكرني باول يوم إجه استاذ قادر هنا، گعد بنفس المكان وچان يباوع مثله وهم چان جو عان.
- أبو داود تره هاي الدنيه.. كثرو بيه الماجادي والجوعانيين والبطالة والعطالة والمخابيل، وغيرهم بذيج الصفحة يربون كروش ويأكلون ويشربون ومبرعين بالفلوس.. الله لا يوفق كلمن سعه بهذا الصار بالعراق.
- الناس راح تتخبل من هادي الاوضاع.
- ابو عفيفه، ليش إحنه منو بقه بينما صاحي.. أشو كلنا نحتاج علاج نفسي.
- اي والله أبو رجب كلنا أطباقات والحمد لله.. هو إللي شافه وديشوفه العراقي قليل، والله الصار بينه وديصير، لو بغير ناس چان ما بقو على وجه البسيطة..
- صحيح والله.. الله يكون بعون العراقيين.
- صدگني آني حيل حيل مشتاق الاستاذ قادر.. تعودت عليه. تره ما چان يبين عليه مشخوط.
- والله آني بشكلك مشتاقله، وآني أحبه كلش، وإللي وياه ذكريات من چان استاذ، تصور البارحة شفته بالحلم جن گاعد بوسط حديقة جبیره، لابس قاط ومتهدم وشعره مسفط ولا بس مناظر. مریت من يمه چان يکوم وإجه وسلم عليه وصافحني وسائل عليكم حيل.. بعدین گالی أترخص منك ابو رجب أروح، تره الطلاب ينتظرونی، بس گبل ما يروح چه چایه حلوه،

كَال تره العراق حتما ما يبقيه بهذا الحال، ولا بد يصير زين ويتقدم بقدرة وقوة وتصميم أهله، أو وصاني أستمر بالمظاهرات والمطالبة بالإصلاح. گعدت من الحلم ما أدرى ليش فرحان.. كون على ثقة أبو عفيفه چانت الناس تحلف براس استاذ قادر... ربي بجاه كلمن عده جاه يمك، ينسعد ويتشافه ويرجع الأهلة مثل ما چان وسالم غائم.

- أمين رب العالمين... ها عمي تريد لفه لخ؟

- إيه عفيفه حباب ينصرك الله على البنات.

- هاي شنو يابه؟ معود گول غيرها، هاي السالفة منين لگيتها؟

وبضحكة ضاجة قال أبو داوود.

- هذا عقدته تختلف عن عقدة استاذ قادر، تره ياجماعة كل عراقي وعنه عقدة خاصة بي.

- إيه نعم، مثلا عقدة أبو رجب من يوصل يم العربانه، لازم يهلس نص گرصة خبز.

اشاعت مزحة ابو عفيفه هذه الضحك والفرح بين الجميع.

- ضحك خير ربي وشره على المايدب الخير للناس.

- الله يكون بعون الناس ويمتعهم بالسلامة ويرجع الغائب الأهلة ويشافي كل مريض ويفرج كربة المظلوم والمهضوم ويطيحهم الأمان والعافية.

النهاية

ستوكهولم

«AlYaa» نشرت «الفيلم»

# صدر للمؤلف

1. "فيما تبقى"، مجموعة قصصية، 2010.
2. "كارل ماركس في العراق" (رواية) (تخيل نقد ماركس للواقع العراقي المعاصر) 2017.
- النسخة الرقمية "ألف ياء" تشرين 2 / نوفمبر 2025
3. "من يسمى عين الحرب؟"، إعادة إصدار المجموعة القصصية "فيما تبقى" منقحة وموسعة، 2017، إصدار دار اورووك ميديا للإعلام والنشر ستوكهولم السويد.
- النسخة الرقمية "ألف ياء" تموز / يوليو 2025
4. "هارب من الإعدام"، تحرير وتقديم مذكرات الدكتور خليل عبد العزيز السياسية 2018.
5. "بوسترات" (المجموعة القصصية) 2021. إصدار دار اورووك ميديا للإعلام والنشر ستوكهولم السويد.
- النسخة الرقمية "ألف ياء" تموز / يوليو 2025
6. "الإبهار في النص الغائي" (سيرة وأعمال الشاعر زهير الدجيلي)، 2022.
7. "هناك لي أهل في بعيد (عراقو)" (مزيج من الاجتماعي، التاريخي، والخيالي، مستوحاة من قصة أهل عراقو في أفريقيا)، 2023.



## فرات المحسن

- ولد الكاتب فرات المحسن في قلعة سكر / محافظة ذي قار، عام 1949.
- حاصل على بكالوريوس في آداب اللغة الروسية من كلية الآداب - جامعة بغداد (1975-1976).
- غادر العراق نتيجة للقمع السياسي ويعيش الآن في السويد ويحمل الجنسيةين العراقية والسويدية.

### المسيرة الأدبية والصحفية:

- بدأ النشر الأدبي عام 1975 بنشر قصة قصيرة في جريدة "طريق الشعب".
- تأثر مساره بظروف سياسية صعبة أواخر السبعينيات، أدت إلى توقف مؤقت وفقدان بعض المخطوطات.
- استأنف نشاطه الأدبي وال الصحفي بعد الاستقرار في السويد، موزعاً بين الهم السياسي والأدبي.

- مارس الصحافة ككاتب للمقال السياسي في:
- مجلات منظمات المجتمع المدني العراقية في السويد.
- صحف المعارضة العراقية والواقع الإلكترونية.
- الصحف العراقية والعربية لاحقاً.
- حافظ على كتابة القصة القصيرة كـ"سلوى ومتنفس" رئيسى.
- يواصل الكتابة والنشر في المجالين السياسي والأدبي في الصحف والمجلات العراقية والعربية والواقع الإلكترونية.